رحلات إلى الشرق والغرب

عبدالله بن حمد الحقيل

الطبعة الاولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

رحلات
إلى الشرق والغرب

عبدالله بن حمد الحقيل

الطبعة الاولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الناشر
دار أضواء المعرفة للنشر والتوزيع
الرياض : ٥٠٣٣٣ - ص ب: ١١٥٢٣
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديمًا وحديثًا وعنى به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ، وما زالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدرًا للتعرف على أحوال الأمم وثقافات الشعوب كما أن للرحلات أهميتها في اكتساب الخبرات واقتباس المعارف في شتى المجالات، ولقد فطر الإنسان على حب الاستطلاع واكتشاف كل جديد.

والرحلات مصدر للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع وفيها قدوة للمقتدي بحيث يستفيد منها العظة والعبرة والفائدة ويترك الأثر الحسن بما شاهد ورأى.

ويحرص كثير من الناس على الإهتمام بأدب الرحلات.. حيث إنَّ الرحالة دائمًا ينقل للقارئ صورًا وقصصًا وطرائف ومشاهدات لكل ما شاهد وسمع ورأى، وما أكثر ما حفل به التراث العربي الإسلامي من أخبار الرحلات والرحالة، كرحلة ابن فضلان إلى اسكندنافيا والتي اعُدَّت أقدم تسجيل كتبه شاهد عيان عن حياة ومجتمع «الفايكنج» فهي وثيقة فريدة تصف بدقة أحداثًا وقعت منذ ما يزيد على ألف سنة.. ولقد وصفت تلك الرحلة بأنها المصدر الوحيد لتاريخ روسيا وبلغاريا وتركيا في تلك الفترة من القرن العاشر الميلادي.. كذلك رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى المدينة، ورحلة أبي دلف، ورحلة ابن جبير، ورحلة العبدري، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن خلدون، ورحلة العياشي وغيرهم كثير مما يضيق المجال عن استعراضه.. فكم فيها من الصور والمشاهدات والتي أصبحت تاريخًا ومعرفة وفائدة للباحثين والدارسين بل وثائق تمثل نشاط أسلافنا وطموحاتهم وارتيادهم للمجهول ومعرفة العالم وطلب العلم والمعرفة ورواية

الأخبار والأحاديث من أفواه الرجال، وكم تفيض كتب التاريخ والحديث بالروايات والأخبار والقصص عن المحدثين الذين قاموا برحلات بصدد جمع الأحاديث وتدوينها، وكذلك كان الرحالة يذهبون ويرتحلون من أجل التجارة والالتقاء بالعلماء والأدباء والمؤرخين والأطباء ووصف طريق الحج والمشاعر المقدسة والحرمين وما بهما من آثار ومعالم وعلماء ومخطوطات وأماكن ومساجد ومكتبات، وما أعظم ما كتبه الرحالة ابن بطوطة في كتابه «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

ولقد حفل التراث العربي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول السفر والرحلات وإن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً وذا عطاء علمي غزير بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والبحث الإجتماعي مع تطعيمه بمأثور الشعر والحكم مما تقتضيه المناسبة.

ولقد أوصى حكيم عربي صديقًا له أراد سفرًا فقال:

«انك تدخل بلدًا لا تعرفه ولا يعرفك أهله فتمسك بوصيتي تكتب لك السلامة، عليك بحسن الشمائل فإنها تدل على الحرية ونقاء الأطراف فإنه يشهد بكرم المنبت والمحتد، ونظافة البزة فإنها تنبئ عن النشأة في النعمة، وطيب الرائحة، فإنها تظهر المروءة.. والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة وليكن عقلك دون دينك وقولك دون فعلك ولباسك دون قدرك والزم الحياء والألفة فإنك إن استحييت من الفضاضة اجتنبت الخساسة وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة.. ويروى لأحد الشعراء قوله:

يزين الغريب إذا ما أغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه وثالثة في اجتناب الريب

ويروي عن الإمام الشافعي قوله:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تَفَرُّج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

ولقد أوصت أعرابية ابنها في سفر فقالت: يا بني انك تجاور الغرباء وترحل عن الأصدقاء ولعلك لا تلقى غير الأعداء.. فخالط الناس بجميل البشر واتق الله

في العلانية والسر.. ويقول أحد الشعراء في الأسفار:

سـفـر الفـتى لممـالك وديار وتجـول في سـائر الأمـصـار

علم ومـعـرفـة وفـهم واسع وتجـارب ورواية الأخـبـار

ويقول المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»:

«ما تم لي جمع (هذا) الكتاب إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي الثقاة ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي... حتى عرفتها ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي على الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور (يقصد المحافظات والولايات)، حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة (يقصد الضرائب) حتى أحصيتها، مع ذوق الهوان، ووزن الماء، وشدة العناء.

ولقد أمد الكثير من الرحالة الثقافة العربية بثروة فكرية وتاريخية وجغرافية وجمعوا قدراً كبيراً من المعلومات وكتبوا الرحلات التي قاموا بها والرحلات كما يقال شيء ثابت لا يأكله الدهر وتظل لها طابعها.. فرحلة ابن جبير وابن بطوطة زادها الدهو خلوداً ورونقًا وإعجابًا وترجمت إلى لغات شتى لأن النفس بطبيعتها تواقة إلى المعرفة واستطلاع ما كان عليه العالم قديمًا وكيف كانت حياته وتقاليده.. فالرحلات من أهم مصادر دراسة التاريخ وتتحول إلى وثائق علمية وذكريات لها خصائصها وسماتها.. ولقد قيل: «إن من يسافر كثيراً يتعلم ويعرف كثيراً».

والمهم أن يستفيد الرحالة من رحلته بحيث يكتسب الخبرة والمعرفة وأن يهدف أيضًا إلى الأسوة والقدوة الحسنة والعبرة مما يشاهد ويرى وأن يترك الأثر الحسن في تعامله وسلوكه وأخلاقه.. ولا سيما في هذا العصر الذي تعج به الحياة بالمغريات وما يفيض به سطحها من سلوكيات.

ولقد قال الرحالة ابن جبير الذي تعب كثيراً من رحلاته:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

رحم الله أسلافنا من الرحالة الذين كانوا ينشرون العلم والدين والمعارف والآداب والفضائل خلال رحلاتهم وما زالت آثارهم باقية خالدة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكم نحن في حاجة في هذا الزمان إلى إعادة قراءة كنوز تراثنا الفكري والتاريخي والتأمل والنظر فيه والإفادة منه..

ومجمع القول: فالرحلات من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لكشف المجهول والوصول إلى الغاية ومعرفة الحقيقة والإستمتاع بالتاريخ والآثار والطبيعة ولقد شغف الكثير بأدب الرحلات لأنه أدب ممتع وشهي وقد فطر الله الإنسان على البحث المستمر عن الحقيقة وحب المعرفة والاستطلاع والتعرف على هذه الدنيا ومظاهر الحياة فيها وما تزخر به من جبال ووهاد وبحار وإنسان ونبات وأثار وحيوان.. إلخ، فسلك فجاج الأرض ومفاوز الصحراء وركب متن البحر وتعرض لوحشة الأجواء والمحيطات وما تنطوي عليه من المخاطر والمتاعب وما يواجهه من لفحات الهجير وشدة البرد والثلج والزمهرير وتردد الكثيرون على الاسفار وعشقوا الرحلات ولم يبالوا بالأهوال والأخطار بل عشقوا حب المغامرة اذ هي وسيلة إلى المعرفة والبحث.. والمتعة والفائدة خاصة ونحن في عصر الرحلات والمغامرات العلمية في الأرض والفضاء.

ولقد عنى أسلافنا بالرحلات واهتموا بشأنها فسافروا من بلد إلى بلد لحضور مجالس العلم والأدب أو توثيق الأخبار والأحاديث ووصفوا الطرق والمعالم والناس وجابوا الأقطار والأمصار وتنقلوا بين المنازل والمسالك والديار ووصفوا الطرق وأحوال الأمم فتركوا آثارًا خالدة في التاريخ والأدب والجغرافيا الوصفية.. فوصفوا ما شاهدوه ودونوا ما رأوه بكل دقة وحصافة.. فأصبحت آثارهم معالم يهتدى بها حيث دونوا ثقافات الأمم وحضارتها وعلومها وآدابها وسجلوا ملاحظاتهم وتحليلاتهم فأسهموا بذلك في خدمة العلم والفكر وتنوير الأذهان.. وكما قال الحريري:

نقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذي يهوى به المطر

وهكذا سيظل أدب الرحلات رافدًا من روافد المعرفة والثقافة والأدب والتاريخ بحيث يحلق الرحالة في أجواء مختلفة وخواطر متفرقة لا تقف عند الإنسجام والمتعة فحسب وإنما تهدف أيضًا إلى الأسوة والقدوة وإلى العظة والعبرة وإلى ما يترك أثرًا خالدًا يعود بالفائدة والأسوة الحسنة ولقد قيل:

سِحْ في البـــلاد إذا أردت تعلمـــا إن الســيــاحــة في البــلاد تفــيــد

ويقول أبو تمام:

وطول مـقام المرء في الحي مـخلق لديبــاجـتـيـه فــاغـتـرب تتـجـدد

فـإني رأيت الشـمس زيدت مـحبـة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويضم هذا الكتاب بين صفحاته رحلات قمت بها إلى ربوع العالم في الشرق والغرب التي ذهبت إليها زائراًأو تلك التي ذهبت إليها في مهمات رسمية وتشتمل في مجموعها على انطباعات وذكريات وتأملات سياحية وماذا يبقى للمرء بعد أن يطوف بأرجاء تلك البلاد سوى بعض الذكرى.. فهذه الرحلات هي ذكريات وخواطر وانطباعات ومشاهدات وتقديم صورة عامة لهذه البلدان لا تصل إلى درجة الدراسة والبحث، ومن المعروف أن أساليب كتابة الرحلات يراعى فيها غالبًا السهولة والوضوح وعدم التكلف.

وهكذا أتركك أيها القاريء مع هذا الكتاب في رحلات متنوعة إلى الشرق والغرب عسى أن تجد فيها ما يلبي نهمك ويشبع رغبتك وأن يكون فيها من المتعة والمعرفة والثقافة ما وجدته أثناء ترحالي في أرجاء تلك البلاد ولن أطيل عليك في هذا التمهيد والذي هو مدخل لهذه الرحلات والذكريات وأختم القول بما قاله ياسين بن فضل الله العمري في إحدى مقدماته:

إن تجــد عــيــبــا فــســد الخللا جل من لا عــيب فــيــه وعــلا

والله الهادي إلى سواء السبيل

عبدالله بن حمد الحقيل

أدب الرحلات فن متميز

يتساءل كثير من الباحثين عن أدب الرحلات ودوره في تاريخ الأدب العربي والواقع أن أدب الرحلات استأثر بالإهتمام وعنى به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ ماضيًا وحاضرًا وقديمًا وحديثًا.. حيث تحدثوا فيه عن مشاهداتهم والاماكن التي مروا بها وزيارة المعالم والآثار والمكتبات وما تحويه من مخطوطات ووصفها.. وكذا زيارة المواضع التاريخية.. ومازال هناك عشرات المخطوطات من المؤلفات عن الرحلات لطائفة كبيرة من العلماء لم تنشر بعد.

وينبغي ألا نهمل ادب الرحلات.. فهو فن متميز ومعلم بارز وأثر حيوي من معالم الثقافة والمعرفة يتطلب ذوقًا وحسًا.. فهو بحق كحديقة غنّاء تشتمل على ثمار يانعة ولا تخلو من الأشواك.

فالقاريء يطل منه على أنماط مختلفة وصور من صور الحياة وأشكالها المتباينة، ويرى ويشاهد من خلالها عوالم واسعة يستقريء واقعها ويتعرف على بيئاتها وحياتها.. وإذا كانت الرحلات فيما مضى عملا شاقًا واسلوبًا مضنيًا.. فإنها اليوم بفضل التطور الحضاري والتقنية الحديثة صارت عملاً مريحًا. وما أجمل الرحلات التي نقرأها اليوم والتي تفيض بالمشاهدات الحية والملاحظات الطريفة والتجارب والمفاجآت والخبرة والمعرفة عن طريق المشاهدة والمعاينة وتمحيص الحقائق والقدرة على التعبير والدقة في التصوير.. فكم من رحالة أمدنا بمعلومات تاريخية وجغرافية تتخللها إشارات ومعلومات عن الحياة وعادات الناس وعن المدن والجزر والقرى والجبال والأودية ومختلف الظواهر مما يمتع النظر ويثير الشجون بما يعرض للرحالة من احداث وعبر وركوب الخطر.. وما أعظم أن نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: «**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم**» (سورة غافر/٢٠).

لقد غامر كثير من الرحالة للتعرف على الظواهر الطبيعية ووصلوا إلى مناطق الجليد في شمال أوروبا وألاسكا وجبال روكي ومنحدرات جبال الألب وبحر

الشمال وبعض المناطق في أمريكا الشمالية وروسيا والمانيا و الجبال العالية في الهملايا وفي شرق أفريقيا وجبال كينيا و جبال الأنديز ونيوزيلندة وفي الصين والهند وفي القارة القطبية الجنوبية ووصفوا لنا اتساع الجليد وضخامته وهي معلومة لها اهميتهاوفائدتها.

فالرحلات كما يقال منجم مفيد ومنهل ثر نافع للآخرين من شتى النواحي والمهم أن نستفيد من تلك الرحلات بتسجيلها والكتابة عنها.. ولقد قيل «**قيدوا العلم بالكتابة**» ورحم الله أسلافنا الذين تحملوا المشاق والصعوبات وجابوا الأمصار وسلكوا فجاج الأرض وامتطوا متن الخطر وصعوبة المسالك والطرق من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي والهمداني والبكري والاصمعي وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان الذي يحوي مشاهدات ميدانية والمسعودي ورحلاته حيث احاط بالكثير من العلوم والثقافات وطاف اكثر البلدان وقد فقد الكثير من مؤلفاته ولم يبق له إلا كتابان هما «مروج الذهب» و«التنبيه والإشراف» حيث تضمنت جانبًا من رحلاته التي تعد مصدرًا من مصادر معارفه الجغرافية.. ولقد استمتعت أجيال كثيرة بتلك الرحلات.

ولقد فطر الإنسان على حب الاستطلاع واكتشاف كل جديد ومجهول وقد دفعه هذا الحب إلى السفر والتنقل والارتحال من بلاد إلى بلاد.

إن أدب الرحلات مازال مستمرًا ولكنه أقل مما كان عليه سابقًا.. فقد كتب الأولون وتركوا تراثًا غزيرًا في هذا الميدان.. فما أجمل أن نهتم بهذا الجانب ونكتب عن البلدان التي نزورها ونشاهدها ونطلع على آثارها ومعالمها وثقافتها وحضارتها بأسلوب ممتع يزيل السأم عن القارئ ويجدد نشاطه لمواصلة القراءة.. فلقد أفاد أسلافنا في كتاباتهم عمن أشرنا إلى أسمائهم ولكم انتفع الكثيرون من رحلات ناصر خسرو حيث دون الكثير من المعلومات في كتابه فتوح البلدان وغيره كثير ممن أمد الثقافة العربية بثروة فكرية وتاريخية، كذلك في رحلات الاستاذ عبدالوهاب عزام الشيء الكثير من المعارف والأداب والعلوم..

كما لا ننسى مجموعة من المستشرقين ممن عنوا بالتنقيب والسياحة والتاريخ ودراسة الآثار في المشرق العربي وقاموا برحلات في أنحاء مختلفة من البلاد العربية وجمعوا قدراً كبيراً من المعلومات ودرسوها دراسة علمية ونشروا تلك الدراسات وكتبوا الرحلات التي قاموا بها وهي تحوى آراء ومعلومات عن بلادنا على جانب كبير من الأهمية.. ومهما يكن من نقص فيما نكتبه خلال زياراتنا فإن في ذلك فائدة للآخرين وخاصة فيما يتصل بالمجالات التاريخية والعلمية وغيرها.. فإن ذلك يساعد المهتمين بذلك فكم ترك الأول للآخر.. فإذا زرت بلداً من البلدان وتحدثت عن جامعاتها ومكتباتها وما تحويه من مخطوطات فإن ذلك يعين الباحث والمهتم بذلك.

إن كثيراً من العلماء والأدباء والمفكرين يزورون بلداناً كثيرة ويحضرون مؤتمرات شتى فما أجمل أن يسجل هؤلاء افكارهم وآراءهم ومشاهداتهم لتلك البلدان عند زيارتهم لها وخلال زيارتهم لمكتباتها ومتاحفها ومجامعها العلمية والفكرية ومراكز البحوث فيها ومقابلاتهم للشخصيات العلمية المرموقة فيها.

إن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً وذا عطاء علمي غزير.. بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والإجتماعي وتطعيمه بمأثور الشعر والمثل والحكم مما تقتضيه المناسبة والمقام.

إن الكثير من الناس قد لا تتاح له فرص الأسفار والتجوال ولذا فهو يجد متعة وفائدة فيما يقرأه عن تلك الرحلات وعن بلاد يجهلها.. بقلم كاتب أو أديب أو مؤرخ خبرها وعرفها وعاش فيها وقتًا مكنه من معرفتها مما اكتسبه من رحلاته.. وكم نقرأ في بعض الأحيان عن بلدان نجهلها فنجد في ذلك بعض المعلومات والمشاهدات عن تلك البلدان التي تكاد تكون مجهولة لدى جمهرة القراء كما أنها تتضمن معلومات وملحوظات عن الأماكن التاريخية والأوضاع الإسلامية للجاليات المسلمة في تلك الأقطار.. ويجد القارئ والباحث الذي يهمه هذا الأمر ما يحسن الاطلاع عليه والاستفادة منه.. وما أكثر المؤلفات للرحالة العلماء الذين رحلوا من الأندلس إلى مكة والشام ومصر والعراق فكانوا رسل

علم ومعرفة ورواد ثقافة ، وأدب وتاريخ وفكر.

إن الرحالة حينما يكتب يجب عليه أن يكون أمينًا ومخلصًا لفنه وفكره وثقافته وقارئه، لا يقول إلا ما يراه حقًا يرضي ضميره وتفكيره ويتعمق في مشاهداته وانطباعاته.. يستلهم كل ذلك فيما يكتب، يجمع إلى جمال الاسلوب بهاء التصوير لما يكتب، يجيل فكره فيما يشاهده في طيات مقاله فيكون ما يكتبه هادفًا له مقاصد سامية.. إن الكتابة في أدب الرحلات فيها الطرافة والمتعة والفائدة.

إن الرحلات أنواع فهناك الرحلات العلمية والأدبية والصحفية والتاريخية والسياسية ومن يطالع كتابات الاساتذة الرحالة في هذا القرن امثال أنيس منصور.. ويحيى حقي.. وحسين فوزي.. وحمد الجاسر.. ومحمد العبودي.. وعبدالقدوس الانصاري.. وعبدالعزيز الرفاعي.. ومحمد حسين هيكل.. والمازني، وغيرهم يجدها زاخرة بصنوف المعارف.. ولقد كتب محمد حسين هيكل كتابه في «مهبط الوحي» ووصف الحرمين ومشى في مناطق الحج، كذلك المازني عندما زار هذه البلاد كتب مشاهداته كأديب يصور انطباعاته فقد عبر عن أشياء كثيرة ذاتية كذلك عبدالوهاب عزام وغيرهم كثير وكثير من الأدباء والصحفيين من عرب وأجانب.. ولقد سجل الرحالة ناصر خسرو المتوفي عام ٤٨١هـ في سفرنامه أشياء كثيرة من المظاهر الصناعية والتجارية والعمرانية في قلب نجد ونفى الإدعاء بتخلف المنطقة في ذلك الوقت حيث تحدث عن قنوات المياه ونظام الري والوان الصناعات وقوافل التجارة.

إننا للأسف لم نهتم بأدب الرحلات مع أن هذا النوع من الأدب يكوّن رصيدًا غزيرًا من التراث العربي الإسلامي، ولقد بلغ الأدب العربي في ذلك شأوًا كبيرًا لأن الرحلات كانت كثيرة جدًا سواء من أبناء المشرق العربي أم المغرب العربي، والرحلات كما يقال شيء ثابت لا يأكله الدهر وتظل لها طابعها، فرحلة ابن جبير وابن بطوطة زادها الزمن خلودًا ورونقًا وإعجابًا وترجمت إلى لغات شتى لأن النفس البشرية بطبيعتها تواقة إلى المعرفة واستطلاع ما كان عليه العالم قديمًا وكيف كانت حياته وعاداته وتقاليده ومعيشته.. فالرحلات من أهم مصادر دراسة التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية.. ولقد برز علماء المغرب على

غيرهم في تدوين الرحلات.. إذ أن الرحلات تتحول إلى وثائق علمية وتاريخية وإلى ذكريات لطيفة وطريفة لها خصائصها وسماتها وتجاربها. وفوائدها ولقد قيل إن من يسافر كثيراً يتعلم ويعرف كثيراً.

يقول الدكتور طه حسين حول كتب الرحلات: تجد فيها المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع مع أنك لا تبرح مكانك.. فأنت مع الكاتب تشهد ما يشهد وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من ألم أو لذة ومن سخط أو رضى تسافر معه وتقيم معه حين يقيم.. الخ.

حقًا إن الرحلات بطبيعتها سبيل من سبل المعرفة ومعين ثر للفائدة والإطلاع على عجائب هذا الكون ومشاهدة الأماكن ورؤيا المناظر وكما قال أبو تمام:

كان به شوقا إلى كل جانب من الأرض أو ضغنًا على كل جانب

ولكم أثار هذا البيت اهتمام الدكتور طه حسن حيث يقول لا أعرف بيتًا تتسع آفاقه وتبعد آماده ويجمع الأرض كلها في كلمات معدودة مثل هذا البيت.

إن الرحالة يجب أن يكتب مشاهداته ويرصد خواطره ويدون معلوماته ويبرز انطباعاته ويسجل أفكاره ليستفيد منها القراء والباحثون والقاريء يفضل دائمًا ان يقرأ عن أشياء يجهلها.. فأدب الرحلات ارتياد لمناهل الثقافة والمعرفة والوقوف على كل جديد ومفيد.

إن المكتبة العربية لفي حاجة إلى كتب الرحلات في مختلف الأدوار التاريخية وإذا كان لأسلافنا المصنفات المتعة فإنه يحسن بنا وقد اتسعت دائرة الرحلات أن نعنى بهذا الجانب الذي سيثرى أدينا باستنهاض الهمم وحفز المواهب والقدرات وسيقوى على ذلك كل عالم واديب منحه الله القوة والصبر والاحتمال.

وحول أدب الرحلات كتب الأستاذ أنور الجندي قائلاً:

توسعت في السنوات الأخيرة دراسات الأدب العربي المعاصر. وصدرت مؤلفات متعددة وجرت أبحاث متحررة تناولت آداب الأمة العربية جملة، كما تناولت آداب الأقاليم المختلفة، والعصور المتعددة، وظهرت دراسات تناولت

فنون هذا الأدب من شعر وقصة ونقد ونثر وصحافة وأدب نسوي. كما تناولت هذه الدراسات تراجم الأدباء والكتاب والشعراء والصحفيين جميعًا. غير أن هناك جوانب أخرى ما تزال في حاجة إلى دراسات شاملة وموضوعية حتى تستكمل الصورة، وهناك صفحات مجهولة ونقاط غامضة تحتاج إلى الكشف عنها والتنقيب حولها، ومن أبرز هذه الميادين: الرحلات، والرسائل، وصورة العصر، وتراجم الأعلام المغمورين.

ومازال «أدب الرحلات» في الأدب العربي المعاصر في حاجة إلى مزيد من الكشف عن صفحاته. وهذه المادة خصبة ضخمة مدفونة في بطون الصحف والدوريات. وباستثناء ما نشر من مؤلفات لهؤلاء الرحالة، وهو قليل جدًا. لا يكاد يصور حقيقة الرحلة والهجرة ويكشف دوافعها وبواعثها ونتائجها، ومدى الخبرات التي أضافها إلى التراث الأدبي، والآفاق التي فتحها أمام الرحالة والمهاجرين، وقد امتدت هذه الرحلات إلى أوربا، وإلى فرنسا بالذات وبريطانيا، ثم أمتدت إلى العالم الجديد. إلى الأمريكتين حيث أقام كثيرون من أدباء المهجر في بوسطن وفي البرازيل وفي غيرهما، كما سافر كثيرون في أنحاء العالم العربي، وجاوزوه إلى جنوب افريقيا ووسطها، وإلى الصين والهند وجاوه والملايو. وتكشف الدوريات. في فترة الثمانين عامًا الماضية. والتي راجعت أغلبها عن عشرات من هذه الرحلات التي كم نشرت عنها الفصول الطوال والقصار وتوالت. والتي حررها كاتبوها من أماكن زيارتهم وبعد عودتهم. وضمنوها مشاعرهم وانطباعاتهم، وآرائهم ومواقفهم بالنسبة لما شاهدوه من بلاد وحضارات. وما التقوا به من أهل تلك الأوطان. وقد اختفت هذه الفصول في أعماق الأضابير. وذهب أصحابها دون أن يعرفهم عارف أو ينتفع أحد بما كتبوا، وهذه الصور والحلقات ما زالت تملأ صحف الأهرام، والمقطم، واللواء، والمؤيد، ومجلات الهلال، والمقتطف، والمشرق، وعشرات من صحف ومجلات أخرى أقل شهرة وذيوعًا.

وقد أستطعت أن أحصي عددًا غير قليل من هذه الرحلات، ومنها رحلات: داود بركات المتوالية على السنوات، ورحلات خليل ثابت ومحمد عبدالله عنان،

وقد ذهبت هذه الرحلات إلى المشرق والمغرب وأوروبا، وزار أصحابها كثيراً من الأماكن التاريخية في باريس وتركيا والمشرق، ورحل محمد فريد إلى الجزائر وتونس وفرنسا، وسافر الشيخ محمد عبده إلى المغرب وأوروبا، وسافر لطفي السيد وقاسم أمين إلى تركيا وسويسرا، وذهب سلامة موسى إلى الجزائر، وأحمد فهمي العمروسي إلى مراكش، وعزيز المصري إلى إيران وسوريا والعراق، وأمير بقطر إلى أغلب بقاع الأرض، وسافر محمود عزمي إلى الشام والمغرب والحجاز، وكتب كل من هؤلاء فصولاً متعددة، تضمنت صوراً وأحاديث. وهناك «محمود رشاد» الرحالة الذي لم ينقطع عاماً واحداً عن الرحلة، وهو صاحب «المرسيليات» التي كتبها من مرسيليا والتي نشرتها الأهرام له، وله «رسائل مصري من أوروبا» منذ ١٩١٢م. وإذا كانت رحلة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر لقيت ذلك الاهتمام البالغ، فإن هناك رحلات مشابهة تمت في الوقت نفسه لبعض أعلام الجزائر والمغرب سجلوا فيها مشاعرهم وآراءهم. وما زالت رحلات عبدالعزيز الثعالبي إلى أطراف العالم الإسلامي خلال ثلاثين عاماً في الصحف المصرية والعراقية، في رسائل ومقالات تناولت مختلف شؤون العالم الإسلامي.

ومن هذا التراث الضخم يستفيد الأدب العربي كثيراً اذا ما أعيد كشف هذه الصفحات. فإنها تصحح كثيراً من وقائع التاريخ، وتلقي أضواء على كثير من المواقف، وتحقق كثيراً من جوانب الفكر، ومعالم الأدب، وتراجم الأعلام.

فإذا أضيف إلى هذا مراجعة شاملة لما نشر من مؤلفات عن الرحلات، أمكن رسم صورة كاملة، وما تزال هذه المؤلفات قليلة فهي لا تعدو أن تكون متمثلة في هذه المؤلفات: «تخليص الابريز في تخليص باريز» لرفاعة الطهطاوي، و«السفر إلى المؤتمر» لأحمد زكي باشا، و«الواسطة في أخبار مالطة» و«كشف المخبا في فنون أوروبا» لأحمد فارس الشدياق، و«الرحلة إلى ألمانيا» لحسن توفيق، و«رحلة محمد شريف إلى أوروبا» لمحمد شريف، و«صفوة الاعتبار» لمحمد بيرم، و«ارشاد الألبّاء» لعبدالله فكري، و«من مصر إلى مصر» لمحمد فريد، و«رحلات» لمحمد لبيب التنانوني،

ومحمد ثابت، وعبدالوهاب عزام. و«ملوك العرب» لأمين الريحاني، و«ذكريات باريس» و«وحي بغداد» لزكي مبارك، و«غرائب الغرب» لمحمد كرد علي، و «الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية»، و«الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» لشكيب أرسلان، و«ولدي» و«منزل الوحى» لمحمد حسين هيكل. و«رحلة الحجاز» لإبراهيم عبدالقادر المازني، و«أبو الهول» «لمحمود تيمور». فإذا أضاف البحث خلاصات لهذه المؤلفات إلى المتناثر في الدوريات تحقق أن يظفر الأدب العربي المعاصر بدراسة شاملة لأدب الرحلات.

من أعلام الرحالة

لقد ظل العرب المسلمون روادًا في ميدان الرحلات وليس بوسعي في هذا العرض السريع استعراض كتب الرحلات والحديث عنها لأنها أكثر من أن تحصر، وقد قام الشيخ عبدالقدوس الأنصاري -رحمه الله-باستعراض مجموعة من الرحالة في كتابه «مع ابن جبير في رحلته». أعراضها للقاريء ليستفيد منها.

رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى المدينة – للربيع. رحلة ابن فضلان. رحلة أبي دُلَف. رحلة مسعر بن مهلهل الينبعيَ. رحلة ابن رشيد الفهريّ الأندلسيّ، رحلة محمد بن أحمد القيسيّ. رحلة الرادعيّ اليمنيّ. سفر نامه – لناصر خسرو. رحلة أبي حامد الغرناطيّ. رحلة ابن جبير. رحلة العبدريّ. مستفاد الرحلة والاغتراب – للقاسم بن يوسف التُجيبيً. (ظهر القسم الأول من الجزء الثاني منها في عالم النشر بتونس وليبيا سنة ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م). رحلة ابن جابر إلى مكة. رحلة إلى بيت الله الحرام – لإدريس بن عبدالله الشاكري. رحلة ابن بطوطة. التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا – لأبن خلدون. دُرَوُ الفرائد المنظمة – لعبدالقادر الجزيريً الأنصاريّ. تاريخ المستبصر – لابن المجاور. رحلة ابن عثمان الحجازية. الرحلة التجانية – لعبدالله التجاني التونسي. حلية الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز – للنابلسي. الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز – لعبد الغني النابلسي. التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية– له. الرحلة الذهبية إلى الأقطار الحجازية – لأحمد بن عليّ الشاذليّ. رحلة الْعَيَّاشيّ. الحلية الحقيقية في الرحلة الحجازية – لمصطفى كمال الدين الصديقي. النفحة المسكية – لعبدالله السُوَيْدِي. تخليص الإبريز في تلخيص باريز – لرفاعة الطهطاويّ. الواسطة في معرفة أحوال مالطة – لأحمد فارس الشدياق. كشف المخبا عن فنون أوروبا – له أيضًا. الفوائد السنية في الرحلة المدنية – لمحمد بن أحمد القطبيّ المكيّ. التحفة اليمنية في الأخبار الحجازية – لمحمد بن عليّ عَرْعَار اليمنيّ العُنَّابّي. رحلة عثمان عبدالرحمن بن الصلاح

الشَّهْرَزُوري. وصف رحلته إلى الحبشة – لشرف الدين الحيمي الشامي. رحلة ابن عبدالسلام الناصريّ. رحلة أبي الطيب الشرقي. رحلة نزهة الأنظار – للوريثلاني. رحلة الصديقيّ إلى البيت العتيق – لمحمد بن صديق خان. تشحيذ الأذهان في سيرة بلاد العرب والسودان – لمحمد بن عمر التونسيّ. الرحلة المكية – لعلي ابن يحيى الكيلاني. رحلة الوزير في افتكاك الأسير – للوزير محمد بن عبدالوهاب المغربي. نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد – لأحمد بن المهدي الغزالي المغربي (وهما الرحلتان اللتان قام بهما هذان السفيران المغربيان رسميًا من المغرب إلى الأندلس بعد أفول شمس الحضارة الإسلامية عن أجواء تلك البلاد). التحفة السنية للحضرة الْحَسنِيَّة بالمملكة الأصْبَنْيُولِيَّة – لأحمد الكردوديّ المغربيّ. رحلة الشتاء والصيف – لمحمد بن عبدالله الحسينيّ المُوسَويّ. رحلة الخياري المدني. دليل الوارد إلى مكة والمدينة من كل فج – للواء محمد صادق أمير الحج المصريّ. مشعل الحج في سفر المحمل بحرًا وسيره بَرًّا – له أيضًا. نبذة سياحية إلى الآستانة العلية – له أيضًا. نشوة الشَّمُول في الذهاب إلى إسلامبول – لمحمود الآلوسي. دعوة المُدام في العود إلى مدينة السلام – له أيضًا. فوائد الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب – له أيضًا. الرحلة اليمانية – للشريف البركاتي المكيّ. الرحلة الأنُوَريَّة إلى الأصقاع الحجازية والشامية – لمحمد كُرْد علي. مرآةُ الحرمين – لإبراهيم رفعت أمير الحج المصري. الرحلة الحجازية – للبتنوني. رحلة الأندلس – له. الرحلة إلى أمريكا– له أيضًا. الارتسامات اللَّطَاف في خاطر الحاج إلى أقدس مَطَاف – لشكيب أرسلان. ما رأيت وما سمعت – لخيرالدين الزركليّ. رحلات محمد رشيد رضا. صور ومشاهدات في الحجاز لمحي الدين رضا. رحلات – لعبدالوهاب عزام. في صحراء ليبيا – لأحمد محمد حسنين. في منزل الوحي – لمحمد حسين هيكل. مع عاهل الجزيرة العربية – لعباس محمود العقاد. رحلة الحجاز – لإبراهيم عبدالقادر المازنيّ. رحلة في البلاد العربية السعيدة – لنزيه مؤيد العظم. رحلة الربيع والصيف – لطه حسين. في ربوع عسير ذكريات وتاريخ – لعمر رفيع. رحلات في عسير – ليحيى إبراهيم الألمعي. مذكرات سائح في الشرق العربي – لأبي الحسن علي الحسني الندوي. الطريق إلى مكة – لمحمد أسد.

رحلة محمد شفيق مصطفى. قلب نجد والحجاز تذكار الحجاز – لعبد العزيز صبري. يوميات عربيّ في أمريكا – لسامي الكبالي. غربيون في بلاد العرب – لسليمان موسى. شهر في دمشق – لعبدالله بن خميس. المجاز بين اليمامة والحجاز – له أيضًا. رحلة ينبع لحمد الجاسر. في شمال غرب الجزيرة – له أيضًا. رحلة الأندلس – لحسين مؤنس. رحلة إلى الشرق – لشكيب الأموي. رحلة إلى الربع الخالي – لتوفيق شاكر النتشة. رحلة الربيع – لفؤاد شاكر. رحلة إفريقية الخضراء – لمحمد العبودي. رحلاتي إلى الديار الإسلامية – لمحمد محمود الصواف. رحلات صفوت السقا أميني إلى ربوع البلاد الإسلامية. رحلة يوسف عثمان المهندس مع الخديوي إسماعيل إلى فرنسا سنة ١٨٦٧م. حول العالم في ٢٠٠ يوم – لأنيس منصور. أعجب الرحلات في التاريخ – له أيضًا. رحلة إلى دولة تَرَانْزَسْتُور: قبرص (قبرس) لحسين قدري. رحلتي إلى إفريقيا الغربية – لناجي جواد. رحلة الرياض – للمؤلف. رحلتي إلى بني سُلَيْم – له أيضًا. رحلة الباحة – له أيضًا. رحلة الْجَار – له أيضًا. على هامش الرحلة إلى مصر – له أيضًا. سندباد دبلوماسي – لأحمد عبدالمجيد. رحلة إلى آسيا – لشريف شحاتة. رحلة الصيف إلى بلاد البوسنة والهرسك – للأمير محمد علي شقيق الخديوي عباس الثاني. رحلة الأمير محمد علي إلى الجهة الشمالية لأمريكا. السفر إلى المؤتمر – لأحمد زكي. مترجم مجلس النظار. كتاب منظر أوروبا العجيب – لنجيب حسين الجندي. رحلة الأندلس – لمحمد لبيب البتنوني. الرحلة إلى أمريكا – له أيضاً. لندن – لأحمد عطيه الله. رسائل سائر من بلاد العرب إلى بلاد اليونان – للشيخ محمد سليمان. رحلة كلية الآداب إلى ساحل البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالوجه القبلي – لجملة أساتذة أولهم (مقالاً في الكتاب): توفيق الطويل، وآخرهم (مقالاً في الكتاب): إبراهيم أحمد رزقانة. جولة في ربوع العالم الإسلامي – لمحمد ثابت. جولة في ربوع إفريقية – له أيضًا. رحلات في الإسلام – لمحمود خليل الحصري شيخ القراء والمقارئ بمصر.

وبعد: فمن أراد المزيد فالتاريخ الإسلامي حافل بأسماء الرحلات والرحالة فقد أتاحت الفتوحات الإسلامية وسائل السفر وهيأت لهم أسبابه وكان للحج

أثر واضح في ميدان الرحلات كما حدث لأبن بطوطه الذي بدأت رحلته بالحج وانتهت بالطواف في أرجاء الأرض وإلى جانب الفتوح والحج التجارة والبريد وجباية الخراج وطلب العلم. وهكذا ظل العرب المسلمون روادًا في ميدان الرحلات حتى القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي».

ثم أنطلقت من أوروبا حركات الاستكشاف والرحلات حيث بلغ كريستوف كولومبس أمريكا ١٤٩٢م وكذا ماجلان» طاف حول الكرة الأرضية ١٥١٩م وكذا هنري الملاح طاف أقسامًا مجهولة من الشواطيء الأفريقية سنة ١٤٤٢م ووصل بارتولوبو سنة ١٤٨٦م إلى رأس الرجاء الصالح وكذا فاسكو دوغاما. بحر الهند سنة ١٤١٢م بمساعدة الملاح العربي المسلم ابن ماجد وغيرهم كثير ممن يضيق المقام عن استعراض رحلاتهم وحصر اسمائهم.

عناية الرحالة بالجزيرة العربية

الجزيرة العربية مهد الحضارات وكانت ولا تزال مهد البطولات وموطن المفاخر ومنطلق الرسالات السماوية الخالدة ومهوى أفئدة العرب والمسلمين، وضعت طابعها على الدنيا كلها بحضارة قوم عاد وثمود والأنباط وذي القرنين ثم جاءت الرسالة المحمدية بالقرآن الكريم والفتح المبين. وإلى جانب ذلك فلقد كان لموقعها الحيوي أثر في العناية والإهتمام بها من جانب الأوروبيين القدامى حيث بدأ اهتمامهم وزيارتهم لها منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وكان لتلك الرحلات أهداف متنوعة، كما جاءت كتاباتهم متباينة من حيث الالتزام بالموضوعية والحياد، وما اشتملت عليه من معلومات وانطباعات.. ولا شك أن تلك الكتابات كانت موضع اهتمام عدد من الباحثين المعاصرين عن تاريخ الجزيرة العربية، فقد ترك أولئك الرحالة كتابات أفادت بعض الباحثين حيث درست جوانب مختلفة من تاريخنا..

وقد ترجم قسم كبير من تلك الرحلات والدراسات التاريخية إلى العربية، وكانت تعكس اهتمام البلدان الأوربية المتزايد بالشرق عندما بدأت البوادر الأولى لصراعاتها من أجل السيطرة والتوسع فيما وراء البحار، وقد بدأته أسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا كقوى بحرية استطاعت الوصول إلى الشرق العربي والجزيرة العربية والخليج العربي، وكانت تلك الرحلات لا تخلو من مهام استطلاعية وعوامل سياسية واقتصادية أخرى..

ومن يستعرض كتب الرحالة الغربيين يجد الكثير ولعل من أبرزها كتاب جاكلين بيرين «اكتشاف جزيرة العرب» والذي ترجم إلى العربية في بيروت منذ خمسة وعشرين عامًا، كذلك الرحالة «بدول» والذي نشر كتابه في لندن سنة ١٩٧٦م والكابتن ج. فورستر سادلير وكذا جيفور بالغريف وفيلبي واليزابيث مونرو وهاملتون وهونكه زيفريد وكذا لود وقيجوفارتيما من (مدينة البندقية) ١٥٠٣ – ١٥٠٨م الذي قام برحلة من البندقية للقاهرة ثم سوريا واليمن ثم فارس والهند، وكارستون نيبور (دانماركي) ١٧٦٢م كان رئيسًا للبعثة الملكية

الدنماركية التي قامت برحلة إلى جدة، اليمن، مسقط، الأحساء، وهو الوحيد الذي عاد حياً من أفرادها إلى بلاده.

وريتشارد بيرتون (بريطاني) ١٨٥٣م قام برحلة إلى ينبع والمدينة، مكة، وجدة، وجوزيف بتس (بريطاني) ١٦٨٧م قام برحلة للقاهرة، مكة، المدينة، وجان لويس بيركهارت (سويسري) ١٨١٤م، قام برحلة إلى مكة والمدينة، ووليام بالجريف (بريطاني) ١٨٦٢-١٨٦٣م قام برحلة إلى نجد وشرق شبه الجزيرة العربية، وكارلو جوار ماني (إيطالي) ١٨٦٤م قام برحلة إلى شمال نجد، وكولونيل لويس بلى (بريطاني) قام برحلة من الكويت إلى نجد والرياض، تشارلز دوتي (بريطاني) ١٨٧٦-١٨٧٨م، وسط وغرب شبه الجزيرة العربية، وموريس تاميسيير (فرنسي) ١٨٣٣م رحلة إلى الشرق زار فيها الحجاز وعسير والسيدة/ آن بلنت وزوجها (بريطاني) ١٨٧٩م رحلة إلى حائل ونجد، و ج. ج. لوريمر (بريطاني) دليل الخليج نشر سنة ١٩٠٨م. وغيرهم كثير، ومهما تكن غايات تلك الرحلات وأهدافها فقد احتلت الجزيرة العربية مكانة بارزة منها، وذلك بسبب أهميتها وشهرتها التاريخية المعروفة وموقعها الاستراتيجي المهم.

ولا غرو فقد حظيت الجزيرة العربية باهتمام كثير من المؤرخين والرحّالة من القدماء والمحدثين الذين قاموا بتأليف كتب تاريخية وبحوث ودراسات تتعلق بتاريخ جزيرة العرب وأبرز معالمها وما خفي من تاريخها وآثارها، وقد تصدى لذلك طائفة من الباحثين والمستشرقين والمؤرخين والرحّالة كما جرى تحقيق كثير منهم للكتب والمخطوطات والمؤلفات القديمة، ولا يخفى على القاريء الكريم الجهد والمعاناة في تحقيق ونشر المخطوطات وكتب التراث والمراجع التاريخية.. ومن واجبنا أن نتعرف على كل ما يكتب عن بلادنا وتاريخنا وآدابنا وتراثنا لننتفع بما يكون منه مفيداً ونافعاً ونعيره الاهتمام اللائق به ونخرجه منشوراً نشراً علمياً خاصة وأن معظم ما كتبه هؤلاء يتعلق بالتاريخ والجغرافيا.

وإلى جانب كتب الجغرافيا والتاريخ هناك عدد من الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية بقصد الحج أو التعرف على المعالم والآثار، سجلوا ما شاهدوه

ودوّنوا انطباعاتهم ومشاهداتهم في كتب قديمة وحديثة، وبذلك تركوا لنا ثروة من المعلومات التاريخية والجغرافية. ومن ذلك عدد كبير من علماء الغرب من مستشرقين وغيرهم ممن استهوتهم الرحلات لهذه البلاد رغم صعوبتها وقسوة الحياة فيها، فهاموا في صحرائها رغبة في التعرف على وهادها وشعابها وجبالها وأماكنها التاريخية ومناطقها الأثرية.

وكذلك لا ننسى في هذا المقام بعض الرحالة من الرواد المسلمين الذين حاولوا التعرف عليها والكتابة عنها، فقد اشتملت رحلة ابن بطوطة علي الكثير من المعلومات خلال مجيئه لأداء فريضة الحج، فهو رائد في هذا المجال، وذلك في عام ٧٢٥هـ.. ولقد لاقى وهو في طريقه الكثير من المواقف والمتاعب، إذ ذكر أنه وصل للحج بعد رحلة مغعمة بالمشاق في المغرب والشام وكان يتنقل في جزيرة العرب ويطوف بين أرجائها ثم يحج بعد ذلك، فلقد أمضي خمساً وعشرين سنة يتجول فيها وفي ربوع العالم ويطوف بالممالك والأمصار ويصف مختلف أنواع الحياة من قرى ومزارع وطرق وجبال وحياة الناس.. ويصف كل شيء رآه وشاهده من بيوت ودكاكين كما ذكر لقاءاته مع القضاة والأمراء والعلماء والأدباء والحكماء..

ومن هنا تأتي رحلته ووصفه لجزيرة العرب من المصادر العلمية والتاريخية لأنها تحمل في طياتها وبين ثناياها وصفًا تفصيليًا في تلك العصور إذ كان يصف كل ما يراه ويعلّق على كل ما يشاهده من غرائب وعجائب..

ولقد زار اليمن وتحدث عنه بشيء من التفصيل والوصف الطويل كما قام بزيارة لعمان وتجوّل في ربوعها وتحدّث عن جبالها وبلدانها ومرابعها ومياهها وآثارها العريقة ومعالمها التاريخية.. كما زار منطقة الخليج وتحدّث عن الغوص على اللؤلؤ وعن الفوّاصين وحياتهم.. وعن سفنهم ومراكبهم، كما زار نجدًا وتحدّث عن مرابعه وتاريخه وآثاره وأطال الحديث عن الأماكن التي زارها وقدّم معلومات ومشاهدات مختلفة..

ومن الرحّالة المشهورين ابن جبير فقد قام برحلته المعروفة سنة ٥٧٩هـ حيث قدم لأداء فريضة الحج، وقد وصف ما شاهده في رحلته مبتدئًا بمدينة جدة ثم

ارتحل منها إلى مكة المكرمة ووصفها بإسهاب وتفصيل وغادرها إلى المدينة المنورة ووصفها وصفًا شاملاً حيث مكث بها عدة أيام، ثم تجوّل في بلاد نجد حتى وصل إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية.. وكذلك الرحّالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري حيث زار العديد من المناطق والبلدان..

وكذلك من الرحّالة المشهورين محمد بن محمد العبدري سنة ٦٧٩هـ، وقد كان قدومه لتأدية فريضة الحج، وغيرهم من الرحالة والجغرافيين ممن ضاعت كتبهم في مختلف مكتبات العالم..

وما أجدر جامعاتنا اليوم ومراكز البحث والتوثيق والمخطوطات أن تعمل على تجميع ذلك التراث وتحقيقه كما أن هناك كتبًا مخطوطة قديمة وحديثة حول الرحلات في حاجة إلى النشر والتحقيق، ووضع الفهارس الكاملة لها وتبويبها وشرح عامضها وتحقيق نصوصها وغير ذلك مما يتوخى من نشر كتب الرحلات والكتب التاريخية لأنها بمثابة وثائق تاريخية وجغرافية واجتماعية عن الجزيرة العربية في تلك القرون السالفة حيث أن أولئك الرحالة قد تجولوا في سائر أنحائها وعنوا بوصف ودراسة معالمها الجغرافية وعلمائها ومآثرها وآثارها وما هم عليه من علم ومعرفة وإدراك..

فتركوا لنا ثروة تُعَدُّ من أهم روافد الثقافة والمعرفة والتاريخ من خلال تطوافهم في البلاد وما قضوه من سنوات طوال بين الفيافي والوديان والشعاب والآكام وسط الأهوال والمخاوف والمتاعب والمعاناة .

وهكذا تُعَدّ كتب الرحلات من المصادر المهمة لدراسات تاريخ بلادنا، لأن أهميتها لا تكمن في عددها الضخم وإنما في مادتها الغزيرة التي درست جوانب مختلفة.. ومفيدة.

رحلة إلى الخليج

منذ مدة وأنا ارتقب الفرصة لزيارة الخليج العربي إذ هو جزء من جزيرة العرب. مهد العرب ومهبط الوحي ومنطلق الإسلام ومهد الفصحى وموطن الشعر والفكر، وكم للشعراء والأدباء في ذلك من رصيد جم وقول رصين وبيان مشرق وذكر عريض ومجد أثيل فقالوا في ذلك نظمًا ونثرًا، وكانت حفاوة العلماء والباحثين والمحققين كبيرة جدًا حيث كانوا يقطعون الفيافي ويجتازون المفاوز ويتعرضون للمتاهات ووعثاء السفر، ولا غرو فجزيرة العرب واسعة الأرجاء وتزيد مساحتها على ثلاثة ملايين كيلٍ.

وفي يوم السبت الموافق ١٣٩٧/٤/١٢هـ وجدتها فرصة لتحقيق بغيتي فذهبت مبتدئا بزيارة الكويت، وفي الصباح فارقنا مطار مدينة الرياض على متن إحدى الطائرات السعودية التي كانت تسير بنا بين شعاب نجد وأوديته وجباله وقممه الشاهقة ورياضه الجميلة مرددًا قول أبي الطيب المتنبي:

إذا مضى علم منها بدا علم وإن مضى علم منه بدا علم

ولكم توحي تلك المناظر بتاريخ عريق وما تزخر به من ذكريات ومجد وخطوب وتاريخ خالد، وكانت الشمس في أوج إشراقها والسماء صافية الأديم تشرق على الهضاب والواحات والقرى والمراعي الخضراء والرمال والنخيل، الرمز الشامخ للجزيرة والخزامى والشيح والقيصوم والسدر والأثل والأقحوان وغير ذلك مما كان يأخذ مكانًا بارزًا في روايات المؤرخين وفي قصائد الشعراء وأساطير الرواة وأخبار القصاص وأحاديث الرواة، تفتقت على ذلك قرائح الشعراء العرب في جاهليتهم وتفجرت ملكاتهم وزخرت مواهبهم فتركوا تراثًا وعطاء هو أسمى ما وصل إليه شعرنا وأدبنا.

وما أكثر ما قال الشعراء في تلك المرابع حيث يقول الشاعر:

سقى الله نجدًا من ربيع وصيف وماذا ترجى من ربيع سقى نجدًا

وكنت أرنوا لتلك الأودية والشعاب ومشاهدة تلك الهضبات مستعرضاً أقوال الشعراء كقولهم:

تمتع من ذري هضبات نجد فإنك موشك ألا تراها

وكقول أحد الشعراء:

يشتاق قلبي إلى نجد ويطربه نسيم نجد إذا ما هب خفاقا
وأسأل البرق أحيانًا فيطربني عنهم بما يملأ الأحشاء إحراقًا
إن أومض البرق نجديًا بعثت له سحا من الدمع مدرارًا ومهراقا

وكقول الأمير عبدالقادر الجزائري:

وأسأل عن نجد وفيه مخيمي وأطلب روض الرقمتين ونعمانا

وكقول ابن خلدون:

يا أهل نجد وما نجد وساكنها حسنًا سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أن ما قد مر ذكر كمو الا انتشيت كأن الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكمو شوقًا ولولا كموما كان يضنيني

وما أكثر ما قال الشعراء في ذلك، فهذه نفحات يسيرة مما قيل من أشعار في نجد وأوديته وقراه ومضاربه ورياضه – تنفست بها قرائح الشعراء وأتوا فيها بما يعجب ويطرب كامرئ القيس وطرفة وزهير وعنترة والحارث بن حلزة وأوس ابن حجر وجرير والفرزدق وغيرهم كثير.

وكان بجواري على المقعد أحد الشيوخ وتجاذبنا أطراف الحديث حول الأسفار فحكى لي قصصا حول سفره على قوافل الإبل إلى الكويت ودبي ورأس الخمية، وما مر به من المتاعب والمشقة.. سير متواصل في النهار واختفاء عن أعين اللصوص وقطاع الطرق في الليل، وفيما كنا نتحدث عن تلك الأيام إذا بالمضيف يطلب منا التهيؤ والاستعداد للهبوط في مطار الكويت والتفت لصاحبي وقلت له: إن الطريق ساعة واحدة بدلاً من ثلاثين ليلة «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» وكما ترى الأمن شامل والزاد متوفر في الأرض والجو، وهبطنا في المطار حيث كان النسيم يداعب خد الكويت رطبًا نديًا منعشًا، وبكل بشاشة من قبل

المسؤولين في المطار انتهت إجراءات الدخول وتوجهت صوب أحد الفنادق في مدينة الكويت وحملت أمتعتي إلى حجراته وأخذت غفوة نهضت بعدها وخرجت أتجول في أسواقها، مدينة جميلة تبدو في زينة من مبانيها الشاهقة وتخطيطها البديع وشوارعها الواسعة وميادينها الفسيحة، ولبثت بها عدة أيام أتعرف على حاضرها وأتلمس مناظر قديمها واستمع لقصص من ماضيها.

ولكم حدثني الكثيرون عن حياتها القديمة حيث عاشوا فيها فترة من الزمن وكانت لهم لطائف وذكريات، وتلفتت عيناي على تلك الأماكن والأحياء القديمة ومداخلها فوجدت يد التطور والنهضة قد أمتدت إليها وحل محلها أحياء حديثة.

أمضيت في الكويت عدة أيام تمكنت خلالها من زيارة جامعة الكويت ومجموعة من المدارس الثانوية والإبتدائية والمعاهد الخاصة ومتحف الكويت وبرجها الرفيع، كما قمت بزيارة للجهراء ولينائي الكويت والأحمدي كما قمت بجولة في أحيائها مثل السالمية.. حولي المرقاب.. الرميثية.. الصليبيخات.. خيطان.. المرقاب.. الفحيحيل.. الشويخ.. وغيرها من الأحياء والأسواق العامة والمنتزهات.

وفي الكويت نهضه علمية وثقافية، ويصدر العديد من الصحف والمجلات منها اليومي والأسبوعي والشهري، وقمت بجولة في مكتبات الكويت وذلك بهدف التعرف على مؤسسات الثقافة والنشر.

وفي الكويت التقيت بالعديد من رجالها وعلمائها الأفاضل وبسعادة سفيرنا والملحق التعليمي وغيرهم من الإخوان السعوديين ممن استوطنوا الكويت فوجدنا منهم كل حفاوة ومحبة وتقدير.

ثم توجهت صوب البحرين وكان يسمى «أوال» قديما فوصلناه ليلاً واوينا إلى أحد الفنادق في المنامة في شارع واسع وعلى شاطئ البحر، وكانت تتناثر في خيالي ذكريات الماضي الخالدة عن هذه الجزيرة التي تمتد في التاريخ إلى أقدم العصور.

وفي الصباح خرجت لزيارة المسؤولين في وزارة التربية والتعليم وزيارة

نماذج من المدارس المتوسطة والثانوية والإبتدائية، وفي العصر خرجت لمشاهدة أسواق المدينة والتجول في شارعها الكبير، وفي العشية خرجت مع بعض الإخوان الذين حضروا لزيارتنا في الفندق فجلنا على شاطئ البحر ورأينا البحرين تتلألأ، ثم ذهبنا لتناول طعام العشاء لدى أحد الإخوان إجابة لدعوته ونعمنا لديه بلقاء الكثير من الإخوان السعوديين، من رجال الأعمال والمدرسين السعوديين والعاملين في السفارة السعودية والملحق الثقافي وعدت إلى الفندق مشياً على الأقدام ولكم تذكرت ما مر به البحرين من تاريخ طويل عريض يشد الاهتمام.

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حال بعد حال

وفي صبيحة اليوم الثاني نظمت لنا وزارة التربية والتعليم رحلة إلى بعض جزر البحرين ثم قمنا بزيارة للمحرق والرفاع وبعض البساتين المجاورة والعوالي حيث تقوم أكبر مصافي النفط.

ثم زيارة لمصنع الألمونيوم، وانتقلنا بعد ذلك إلى المدرسة الفندقية ثم إلى المتحف لنرى آثار البحرين ولنشاهد عصوراً من التاريخ وبدائع من التراث والفنون آثاراً ومناظر تحكي زمناً طويلاً طوي في هذا المتحف الواسع الكبير.

كل حي على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حاد

ذهب الأولون قرناً فقرنا لم يدم حاضر ولم يبق باد

هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقي مآثر وأيادي

ومن البحرين غزا المسلمون وانطلقوا إلى بلاد فارس وفتحوا كثيراً من تلك البلاد بقيادة العلاء بن الخضرمي ورفاقه من أولئك الأسلاف الجحاجحة العظام الذين نشروا الإسلام فكانوا نورا أومض في الظلام وعزماً واصلوا به الجهاد، ثبتوا به قدم الحضارة الإسلامية في تلك الأراضي التي اكتسبت شخصية الإسلام الروحية والثقافية والعلمية.

وفي الصباح الباكر برحت البحرين متوجهاً إلى قطر وكانت أشعة الشمس

تموج مع البحر وتضفي على مياه الخليج روعة وجمالاً وتداعب أمواجه الهادئة، ووصلنا الدوحة بعد نصف ساعة من الطيران وبعد إنهاء الإجراءات في المطار أويت إلى فندق الخليج.. وهو اسم عربي جميل ولبثت في الدوحة ثلاثة أيام ولقيت خلالها من إخواننا القطريين كل حفاوة وتكريم.

ولقد تكرم الإخوان في وزارة التربية والتعليم بوضع برنامج حافل بالزيارات ابتدأ بزيارة كلية التربية وبعض المدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائية، ثم توجهنا في رفقة بعض الإخوان نبغي زيارة بعض العلماء والمشايخ فوجدنا البعض وكان آخرون في حضور مؤتمرات خارج البلاد.

وفي اليوم الثالث سرنا لمشاهدة المتحف القطري وهو يمثل تاريخ قطر قديماً وحديثًا وبه آثار كثيرة وبنادق وآلات حربية ومناظر لبعض معالم قطر وشيوخها وأمرائها وأزيائهم القديمة إلى جانب بعض الخرائط المجسمة لصناعة الزيت.

ثم بعد ذلك قمت بزيارة لمكتبة قطر وقد حدثنا المسئولون عنها بعد التجوال فيها عن تاريخها وعدد الكتب الموجودة فيها وأقسام المحفوظات والتحقيق والمخطوطات الموجودة بها وغادرت المكتبة شاكراً حفاوتهم واهتمامهم بالكتاب، فخير جليس في الزمان كتاب.

ومن الدوحة توجهت إلى مسقط على متن طيران الخليج، وقد غادرنا الدوحة في تمام الساعة الحادية عشرة مساء ووصلنا إلى مسقط بعد منتصف الليل، وخلال الرحلة طاف بي الخيال وحلق في أجواء التاريخ فذكرت من أعلام عمان الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض وصاحب كتاب العين وابن دريد صاحب كتاب الجمهرة والشاعر المشهور وأبا العباس المبرد صاحب كتاب الكامل. ولقد كانت تسمى قديمًا «بمزون» كما ورد في قول الشاعر العماني:

إن كسرى سمى عمان مزونا ... ومزون ياصاح خير بلاد
بلدة ذات زروع ونخيل ... ومراع ومشرب غير صاد

وذكرت قول شاعرهم الذي وفد مع قومه إلى رسول الله ﷺ:

إليك رسـول الله خـبت مطيـتي تجوب الفيافي من عمان إلى العرج

وكان بجواري أحد الإخوان العمانيين، وكان على جانب من الخلق والأدب، فصرنا نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب والشعر، وعلى حد قول الشاعر كثير عزة:

أخـذنا بأطراف الأحـاديث بيننا وسـالت بأعناق المطي الأباطح
وشدت على دهم «البونج» رحالنا ولم ينظر الغـادي الذي هو رائح

وروى لي قصصاً عن عمان ومن ذلك ما روى أن رجلا من أهل عمان ذهب إلى المدينة فرآه عمر فقال: ممن أنت؟ فقال: من أهل عمان، فأدخله على أبي بكر فقال: هذا من أهل الأرض التي سمعت رسول الله يقول: «إني لأعلم أرضاً يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر».

وروى قصصاً عن الوفود التي وفدت من عمان على رسول الله ودعائه لهم ولأرضهم وخطبة أبي بكر في أهل عمان وأمارة عمرو بن العاص فيها، وقلت له: وماذا تعرف عن قول الجاحظ عن أهل عمان: لهما خطبتا العرب العجوز ووصف سيف أفيح وفضاء صحصح وخيل صلدح ورمل أصبح؟ وهكذا كنا في حوار علمي مفيد حتى هبطنا في مطار مسقط ثم أوينا إلى أحد فنادقها الواقعة في روي وهي مدينة حديثة جميلة، وخلال اقامتنا قمنا بزيارة للعديد من المدارس والمعالم الأثرية ولمدينة مسقط وهي مدينة قديمة تقع على الساحل الجنوبي لخليج عمان في مكان مرتفع على طول الشاطيء، كما كانت فرصة لزيارة الضواحي القريبة ومشاهدة البساتين والنخيل وبعض القلاع التاريخية، ولقد كرم القائم بأعمال السفارة السعودية فدعانا لحفل غداء دعا إليه طائفة من أهل الفضل والأدب والعلم والصحافة فكان لقاء ممتعاً ومفيداً.

ثم توجهنا بعد ذلك صوب دبي ورأس الخيمة والشارقة وعجمان وأبو ظبي وأمضينا بها بضعة أيام شاهدنا خلالها ما تحفل به من تطوير ونهضة وعمران ومناظر طبيعية وأماكن أثرية ومؤسسات ثقافية وعلمية ومكتبات عامرة،

والإطلاع على تلك المدن والتجوال في ربوعها ومشاهدة معالمها.

حقًا فمنذ حللت في ربوع الخليج لم أشعر أني اغتربت بل رأيت نفسي كأني في بلدي وبين إخواني ولا غرو فنحن أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة متماثلة وعادات متقاربة.

وهذا ذخر يجب أن يصان ويحافظ عليه وإن الكتابة عن الخليج و الجزيرة العربية يحتاج إلى كتاب مستقل فقد بلغت هذه الربوع أوجها في الماضي كما تثبت ذلك الدراسات الأثرية والتاريخية والجغرافية وقد خلد ذكرها في أقوال الشعراء والأدباء والعلماء ووصفها المؤرخون بأنها كانت ذات حضارة وازدهار ورقي، وزيارة هذا الجزء الغالي خيال يداعب كل من قرأ التاريخ وسمع عن تطوره المعاصر وسأحاول مستقبلاً أن أفرد لذلك كتابًا مستقلاً عن تاريخ الجزيرة باذن الله ويتضمن الماضي العريق ومشاهد الحاضر المجيد والأصالة والأمجاد التاريخية.

رحلة إلى اليمن

منذ مدة والنفس تحدثني بزيارة اليمن والوقوف على معالمه وأخباره وآثاره.. ولكم قرأت الكثير من كتابات المؤرخين اليمنيين ممن لهم باع في التاريخ تأليفًا وتحقيقًا ودراسات ولقد تتبعت كتابات مؤرخ اليمن المعروف أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل وصفة جزيرة العرب الذي تبعه واعتمده الكثير من المؤرخين والمحققين من قدامى ومعاصرين وكذا صاحب معجم البلدان «ياقوت بن عبدالله الحموي..» وغيرهم فقد أحاطوا بأوصاف تلك البلاد وتاريخها ومعالمها وآثارها وما يتعلق بأوصافها وآدابها وشعرائها. وقد سميت بالخضراء كما يقول الهمداني لكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، ولقد كانت حفاوة العلماء والمؤرخين والباحثين كبيرة في هذا المجال كل ذلك شدني إلى الوقوف على تلك المعالم فتطلعت إلى الفرصة المناسبة للقيام برحلة إلى تلك الربوع.. فصادف أن تلقيت دعوة كريمة من مدير جامعة صنعاء ورئيس مركز البحوث والدراسات اليمني بالحضور للمشاركة في أعمال الدورة الثامنة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية فتوجهت يوم الجمعة الموافق ١٤٠٥/١٠/١٧هـ على متن إحدى طائرات البوينج، وقد أقلعت بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات حيث مررنا بمدينة تعز ولقد كنت أشاهد جبال السروات ثم جبال اليمن الشامخة حتى وصلنا إلى صنعاء المدينة التاريخية والتي كتب عنها المؤرخون كثيرًا، فهي من أقدم المدن، نعم ها هي صنعاء والتي قال فيها أبو محمد الحسن الهمداني:

أرض تخيرها سام وأوطنها ... وأسّ غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمها ... ولا علا حجر من قبله حجرًا

وقال أيضاً أحمد الرداعي وما أكثر ما قال الشعراء ولعله يؤرخ هنا لها:

صنعاء ذات الدور والآطام ... والقدم القدام ذي الأقدام
والعز عن ذي الهوة الغشام ... أست بعلم لابن نوح سام
يعلم رب ملك علام ... إذ رادها سام بلا توهام
ورادها من قبل ألفي عام ... ما بين سفحي نقم النقام

وبين عـيـبـان العـبـيـر السـام فـأسـهـا في سـالف الأيـام

ويقول الهمداني:

مـازال سـام يرود الأرض مطلبـا للطيب خـيـر بقـاع الأرض يبنيـهـا

حـتـى تبـوأ غـمـدانا وشـيـدها عشرين سقفًا يناغي النجم عاليـها

فلقد كانت معشوقة الشعراء وما أكثر ما قرأنا من أشعار رقيقة يتغنون فيها بقصائد مفعمة بالحنين والشوق لهذه المدينة وكنت أتلفت يمنة ويسرة في ربوع هذه المدينة، وأنا في طريقي إلى فندق «سبأ» فأرى فيها تاريخ الحياة لأمم عديدة تذكرت خلالها عرش بلقيس وسد مأرب وسبأ وحمير ومعين والتتابعة وسيف بن ذي يزن... الخ.

وحضارة مأرب. حضارة رواها القرآن الكريم في سورة سبأ وأطلق عليها المؤرخون اسم أرض (الجنتين)..

ومدينة «مأرب» هي العاصمة التاريخية لليمن، وتقع على بعد ١٧٠ كيلا شرق العاصمة صنعاء وتربطها بالعاصمة طريق مرصوفة..

وهي مدينة عريقة عاشت حضارات دول غابرة هي دول معين وسبأ وحمير، وبها آثار تلك الحضارات من منشآت ومعابد مثل معبد الشمس، وطرق وسدود لا تزال أطلالها شاهدة. وقد حظيت هذه المدينة الآثرية - وخصوصًا منذ مطلع هذا القرن - باهتمام الباحثين وعلماء الآثار العرب والأجانب، كما شد إليها السواح من كثير من بلدان العالم، وكتبوا عنها عدة مولفات وأبحاث، كما حظيت اللغة اليمنية القديمة وأبجديتها التي توجد نصوص منها منحوتة على الصخور والكهوف والجبال في مدينة مأرب وما جاورها باهتمام كثير من الدارسين اليمنيين الذين أخرجوا عددًا من هذه النصوص التي تسمى «خط المسند» وقاموا بترجمة مفرداتها التي لا يزال البعض منها ينطق حتى اليوم ضمن بعض اللهجات اليمنية..

وفي اليمن معالم تاريخية كقصر غمدان الشهير ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل وجامع صنعاء والهمداني والزبيدي وعمرو بن معد يكرب وغير ذلك مما هو موضع اهتمام الباحث والمؤرخ والأثري والأديب.

وتذكرت الرحالة المعروف أمين الريحاني وهو يدخل صنعاء مبهوراً بزحمة التاريخ وجلال الزمن. حقًا إن الحديث عن هذه البلاد وما فيها له نكهة تاريخية تستهوي القاريء والمؤرخ والرحالة بل وعلماء التاريخ والآثار.

إن صنعاء مدينة محاطة بالجبال تمتد شرقًا وغربًا كأنها وهي كلها بيضاء سلسلة من التلال في سهل مخضر جميل وعن شمالها وجنوبها هضاب وآكام وأودية.. وهكذا نزلنا في صنعاء مردداً قول الإمام الشافعي رحمه الله الذي سار سير الأمثال:

«لابد من صنعاء وإن طال السفر».

وقول الشاعر:

ياحبذا أنت يا صنعاء من بلد وحبذا واديك الظهر والضلع

وما أكثر ما بكى شعراء اليمن بين يديها ومن ذلك قول أحدهم:

إني إلى صنعاء يحملني وجه النهار وترحل الأصل

فمتى تظللني مآذنها ويضيء من أحضانها الجبل

أأموت يا صنعاء مغتربآ لا الدمع يدنيني ولا القبل

لقد اطلعت على الكثير من المعالم والآثار التاريخية حيث تمكنت من التجول بين عدد من المدن والقرى.. ولقد قمت بزيارة لجامع صنعاء الكبير والذي بناه ابان بن سعيد وقيل أيوب بن يحيى في السنة السادسة للهجرة وقد بنى بأحجار كبيرة ضخمة متقنة النحت به زخارف ونقوش وسقفه تحفة من تحف الفن الإسلامي النادرة ويحيط بالسقف من جميع جنباته حزام خشبي محفور عليه آيات من القرآن الكريم بالكتابة الكوفية.

وفي هذا الجامع مكتبة ضخمة تحتوي على مجموعة كثيرة من المخطوطات

والمصاحف المكتوبة على الرق بالخط الكوفي والحجازي على مختلف الأحجام. وقمت بزيارة لدار الكتب والمخطوطات ولجامع صنعاء حيث استقبلنا عبده حسين صلاح حيث قام يشرح لنا المعدات الفنية لترميم المخطوطات وتجليدها وتصويرها وفرز كل نوع على حدة.. ثم دخلنا قاعة معرض المخطوطات الحافلة بشتى المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفي والحجازي والنسخي. وكذا بعض النقوش وحروف المسند.

والواقع أن الجامع يزخر بثروة كبيرة من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف، ومن جامع صنعاء خرجنا نتجول في وسط المدينة القديمة ومشاهدة بيوتها وآثارها فزرنا قصر غمدان ومسجد صلاح الدين وغرفة القليس وسوق الملح وغير ذلك من أحيائها القديمة وحواريها وتراثها المعماري والأثري وأبوابها العشرة. أما مبانيها فهي تضم أنماطًا من المباني العربية والتي كانت شائعة قبل الإسلام ثم النمط الإسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الإسلام ثم النمط العثماني وكل صنعاء القديمة ما زالت تحتفظ بكل هذا التنوع مع ملاحظة الزخرفة وتعدد الطوابق.

حقًا إن صنعاء لمدينة قديمة يقال إنها أول مدينة عمرت بعد الطوفان وسميت باسم بانيها سام بن نوح. ولكم حفلت كتب التاريخ والأدب بأخبارها. وهناك عدد جم من الشعراء والمؤرخين والأدباء عنوا بوصفها وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وتاريخها وأخبارها.

دار الكتب ،المخطوطات:

قمت والصديق الدكتور عبدالله الغنيم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بزيارة لهذه الدار الحافلة بخزائن المخطوطات وقد استقبلنا رئيسها القاضي اسماعيل بن علي الأكوع من المحققين والمشتغلين بكتب التراث وله اهتمام وخبرة بالمخطوطات والتقينا عنده بكل من مدير المتحف الأستاذ زيد بن علي عنان وبعض الأخوة العلماء فكان الحديث عن الكتب والمخطوطات والوثائق ودور مراكز البحوث والمخطوطات في نشر ذلك وأهمية الحفاظ على التراث ودور العلماء

والباحثين. . وجهود البعض من المستشرقين في هذا المجال وأهمية تسهيل الحصول على المخطوطات للباحث والاستفادة منها بأسهل الطرق. . ولقد أمضينا وقتًا ممتعًا انغمسنا خلاله في أغوار التاريخ والتراث والعلم. حقًا إن واجب جامعاتنا ومراكز البحوث الاهتمام بالتراث وتحقيق المخطوطات كما أن الكثير من المخطوطات مهددة بالضياع ما لم نبادر إلى صيانتها وترميمها وحفظها خاصة ما كتب منه على الرقوق والجلود كما أن الاهتمام بالوثائق ناحية مهمة باعتبارها مصادر مهمة في البحث والدراسة.

زيارة السفارة السعودية:

قمت بزيارة لسفارتنا وقد وجدت من سعادة السفير الأستاذ علي القفيدي كل حفاوة وتقدير ولقد حرص / أكرمه الله على إكرامي فدعاني لحفل غداء حيث دعا الأخوة السعوديين فكان لقاء أخويًا وديًا وفي أثناء وجودي هناك قمت بزيارة مكتب الملحق التعليمي السعودي ولقد سررت بما يقدمه المكتب من خدمات جليلة حيث إن هناك بعثة تعليمية سعودية كبيرة تقوم بالتدريس في مختلف المناطق، وحكومتنا الجليلة تأتي في مقدمة الأمم بذلاً وعطاء حيث بناء المدارس والمستشفيات والطرق والمساجد. . ثم خرجت من مكتب الملحق التعليمي بعد أن زودني بمجموعة من صحف بلادنا. .

زيارة مدينة تعز:

وفي الصباح الباكر ذهبت إلى مدينة تعز وانطلقت بنا السيارة شطرها وكان الطريق مائتين وخمسة وستين كيلاً جنوب العاصمة ومررنا بمناطق خضراء وجبال مجللة بالجمال والخضرة وسهول تغطيها المزارع ومررنا بعشرات البلدان والقرى كذمار، والتي سبق أن تعرضت لكارثة الزلزال حيث شاهدنا آثاره وكذا إب ويريم وغيرها من القرى والبلدان وهي أجمل مناطق هذه البلاد، ولقد صعدنا جبالاً شامخة فارعة فكنا نرتفع تارة ونهبط أخرى إنها لقمم شامخة خطرة كجبل سمارة الشهير وكان مرافقي الأخ محمد المعلمي يشرح لي أسماء هذه الأماكن والجبال والوديان وكان السائق ماهراً حاذقًا بالطريق فعندما رآني

مكتئباً من وعورة الطريق قال لي لا تخف فقد ترددت مع هذا الطريق عدة سنوات ومازلت أتردد بين جنباته فهو شيء سهل فقلت زادك الله نشاطاً وقوة ومهارة فعليك بالرفق ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة. ولقد تعودت على صعود واجتياز مناطق جبلية أصعب منها.

ثم لاحت لنا تعز المدينة الخضراء يحتضنها الجبل الأشم «صبر» وهي مدينة جميلة تقع على الربوات المتناثرة هنا وهناك تغريك خضرتها وجبالها وجمال مبانيها، وقد زرنا أسواقها القديمة وجامعها وحصونها القديمة وجبالها الشامخة وقمت بزيارة للمتحف الوطني.

ثم غادرناها إلى بعض القرى والأرياف حتى عدنا إلى العاصمة بعد أن مررنا بالعديد من قصور اليمن ومعاقلها الكثيرة والأثرية وهي غاية في فن العمارة والنقش ومن القصور التاريخية التي لا زالت باقية قصر غمدان وصرواح وناعط وفيه يقول الهمداني:

فمن كان ذا جهل بأيام حمير ... وأثارهم في الأرض فليأت ناعط
يجد عمداً تعلو الفنا مرمرية ... وكرسي رخام حولها وبلائط
ملاحقها لا ينفذ الماء بينها ... ومبهوقة مثل الفراخ خرائط
ترى كل تمثال عليها وصورة ... سباعاً ووحشاً في الجبال وباسط

وفي قصر صرواح يقول الشاعر:

أبونا الذي كانت بصرواح داره ... وفي جبل النعمان عز تمكنا
ونحن ورثنا عز خولان ذي الندى ... مآثر عز مثلها لم يدم لنا

وقبل أن نعود للعاصمة لاحت لنا قصورها فتذكرت قول الشاعر:

إذا طلعنا جبال السود لاح لنا ... من أرض صنعاء معطاف ومرتبع

وطلبت من مرافقي ان نعرج لمشاهدة بعض الآثار ثم عدنا إلى الفندق بعد رحلة حافلة بالأدب والتراث والمعرفة والآثار والمشي والبرد وهطول المطر واستغرقت في نوم عميق حتى الفجر حيث الاستعداد للسفر مردداً قول القائل:

نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا ... فدنيانا نزول وارتحال

في ربوع الشام

قرأت عن الشام كثيراً وما يحفل به من المعالم والآثار وعن دمشق المدينة التاريخية القديمة وعاصمة الأمم الغابرة والجامع الأموي والمكتبة الظاهرية وقصر العظم وفي صيف عام ١٣٨٠هـ رأيتها فرصة سانحة لزيارة بلاد الشام وأعني ببلاد الشام المعنى الواسع والحدود القديمة لبنان وسوريا والأردن وفلسطين، والتي مرت بأحقاب تاريخية قبل الفتح العربي الإسلامي فقد حكمها البابليون والآشوريون والفرس والرومان والبطالسة والسلوقيون حتى امتدت إليها يد العرب فترة من الزمن ثم استولى عليها الرومان ثم استردها العرب المسلمون بعد موقعة اليرموك الشهيرة، ولم تزل موضع اهتمامهم حتى صارت تحت الحكم الأموي وصارت دمشق عاصمة الأمويين في عام ٤١هـ ثم تعرضت للحكم التركي والفرنسي ثم عادت عربية تتمتع باستقلالها.

وكانت بداية الرحلة أن نتوجه لدمشق الفيحاء من الرياض بطريق الجو ووصلنا دمشق بعد أن مكثنا أكثر من ساعتين بالطائرة، ولقد كنت خلال تلك الساعتين أرسم خيالات شتى عن بلاد الشام وعن الجامع الأموي وعن قصورها ومتاحفها ومعارضها ومدنها ومصايفها وروابيها ومساجدها ومعاهدها، وعن ابن تيمية وصلاح الدين وابن القيم وعصورها الذهبية التي مرت بها والفتوحات الإسلامية وما كتبه مؤرخوها كابن عساكر وغير ذلك مما قرأته وسمعته مما يملأ النفس إعجاباً – ولقد كان منظر دمشق من الجو رائعاً حيث كانت الجبال والوهاد حللا من الخضرة والنضرة مما يدخل على النفس البهجة والغبطة والسرور.

ووصلنا دمشق واتجهنا لأحد فنادقها في قلب العاصمة مردداً أبيات حسان بن ثابت التي مطلعها:

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

وأعدت إلى الذاكرة أبيات حسان بن نمير:

ويا بردى لا زال ماؤك باردا وماء الحيا من ساحتيك نمير

وفيما كنت محتارا لا أدري إلى أين أذهب وإذا بأحد الإخوة السعوديين ينادي على اسمي فالتفت نحو مصدر الصوت وإذا به أحد الأصدقاء الأفاضل فسعدت بلقائه حيث أخبرني بأن له شهرًا ونيفا هنا فقلت له: إذًا أنت دليل ممتاز فذهبنا للنزهة والاستجمام بين أحيائها كحي المهاجرين وأبي رمانة وسوق الحميدية وشارع بغداد وحي الربوة، وفي الأيام الأخرى قمت بزيارة آثارها كالجامع الأموي ودار الآثار وقصر العظم والمكتبة الظاهرية والجامعة والمتحف الوطني.

لقد حرصت على التردد على الجامع الأموي وتأدية فروض الصلاة فيه، والواقع أنه آية من آيات الجمال والفن الرفيع ودليل على ما لأسلافنا من مجد ورقي وتقدم ومهارة بالتصميم والفن المعماري.. إن جامع بني أمية يحكي تاريخًا عظيمًا حيث كان الخليفة يصدر أوامره من هذا الجامع فتأتمر به الدنيا، فقد كان مكانه قديمًا معبدًا لليونانيين حتى بناه الوليد بن عبدالملك والذي بلغت الفتوحات الإسلامية في عهده ذروتها وأتم بناءه عام ٩٧هـ ويقول المؤرخون إن بناءه استمر عشر سنوات، ولهذا الجامع مدخلان رئيسيان وأرض المسجد كلها مفروشة بالمرمر، ولقد روي عن ياقوت الحموي قوله: إن من عجائب هذا المسجد أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه ما لم يره في سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها.

وبعد مضي عدة أيام من التجوال في داخل مدينة دمشق دعانا أحد الإخوان لنزهة خارج دمشق فذهبنا لكل من عين الفيجة وبقين وبلودان، ومررنا بالكثير من الجداول والأنهار والشلالات تنساب مياهها بين المروج والأشجار، فكان لمنظر المياه وهديرها وتدفقها الأثر الجميل في نفوسنا حيث أمضينا يومًا ممتعًا وجميلاً وكنت أردد قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يادمشق

فتحت جنانك الأنهار تجري ومـلء رباك أوراق وورق

وقــوله:

آمنت بالله واســتــثنيت جنتــه ... دمــشق روح وجنات وريحــان
قـال الرفـاق وقـد هبت خـمـائلهـا ... الأرض دار لهـا الفـيـحاء بستـان
جـرى وصـفق يلقـانا بهـا بردى ... كـمـا تلقـاك دون الخلد رضـوان
دخلتـهـا وحـواشـيـهـا زمـردة ... والشمس فوق لجين الماء عقبان
والحور في دمـر أو حول هامتـهـا ... حـور كـواشف عن سـاق وولدان
وربوة الوادِ في جلبـاب راقـصـة ... السـاق كـاسـيـة والنحـر عـريان
وقـد صـفـا بردى للريح فـابتـردت ... لدى سـتـور حـواشـيـهن أفنان
خلفت لبنان جنات النعـيم ومـا ... نبـئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحـدرت إلى الفيحـاء وارفة ... فـيـهـا الندى وبهـا طي وشـيـبـان

إن بردى النهر الجميل تتفرع منه أنهار دمشق ويضفي عليها جمالا وجلالا إذ يمر بشوارعها وميادينها حتى يصب في الغوطة وهي التي يعنيها الشعراء في قصائدهم ومن ذلك قول الشاعر:

سـقى الله أرض الـغوطتين وأهلهـا ... فلي بجنوب الغـوطتين شـجـون
ومـا ذقت طعم الماء إلا اسـتـخـفني ... إلى بردى والـنـيـريـن حنين

وبعد العودة إلى دمشق كان في انتظارنا في الفندق أحد الإخوان السعوديين المقيمين في دمشق حيث كنا على موعد معه وقد حضر لاصطحابنا إلى منزله فوجدناه قد دعا عددًا كبيرًا من أبناء الجالية السعودية فسعدنا بلقائهم والتعرف عليهم وقد أكدوا علينا بضرورة الإستجابة لدعواتهم فاعتذرنا لهم بحجة أن وقتنا قصير وسوف نغادر دمشق قريبًا وقمت بزيارة لدار الكتب الظاهرية والمجمع العلمي وجامعة دمشق ومعرض دمشق وغير ذلك من المعالم والآثار.

وفي اليوم التالي ذهبنا للسفارة السعودية للسلام على بعض الإخوان فيها ولقد سألت عن بعض العلماء والأدباء فقيل لي إن أكثرهم موجود في الجامع الأموي

وأفضل وقت للقاء بهم بعد صلاتي العصر والمغرب، وبالفعل وجدنا مجموعة طيبة من العلماء والمحدثين يلقون دروسهم وسط مجموعات من طلاب العلم. وخرجنا من المجامع إلى قاسيون لمشاهدة دمشق كلها من عل حيث كانت غارقة في الخضرة والنور والجمال وتتأنق بالزينة وتتألق بالجمال وتزدهي بالنضارة، وودعنا دمشق متوجهين إلى لبنان بطريق السيارات حيث مررنا بالكثير من المصايف. ولقد أضفى الجمال عليها حللا من الخضرة والنضرة والزهور يتمثل حقيقة فيما قاله شعراء العرب في الربيع كابن الرومي والبحتري وابن خفاجة، فأينما تدير بصرك لا تجد إلا رياضا وشجراً وزهوراً ولا غرو إذا افتن شعراء لبنان في وصف لبنان وجمال ربيعه وحقوله، فالجمال يلهم القرائح الخلاقه شعرا تمتزج النفس فيه بالخيال والحقيقة، وبعد أن وصلنا بيروت توجهنا لأحد فنادقها في رأس بيروت وكان الجو معتدلاً وجميلاً وبعد أن استقر بنا المقام قمت بجولات في مختلف أحياء بيروت قديمها وحديثها ومتاحفها وآثارها ومساجدها ومكاتبها.. ولقد حفل تاريخ لبنان بذكريات عديدة منذ قديم الزمان وتصارعت أمم شتى منذ عهد الإغريق والآراميين والفينيقيين والبابليين والآشوريين. فهو عبارة عن تاريخ ضخم حيث مرت عليه أمم ودول وحضارات ومدنيات وعلوم وثقافات، وللبنان تاريخ في عهد الخلافة الأموية والعباسية والدويلات التي تلتها كما أن موقعه الممتاز أعطاه مركزاً دولياً كما أن طبيعة أرضه الجبلية وقربه من البحر وكونه في مركز متوسط في البلدان التي كانت مهداً لمختلف الحضارات كل ذلك جعل له دوراً وأثراً في تكوين دوره التاريخي.

ويتميز لبنان بجباله فهي ركيزته الجغرافية وعامل حيوي في حياته ولذا فهو يستهوي ويجذب إليه الكثير من السائحين كما يمتاز بمغاراته وكهوفه وأنهاره وجباله، ويقول المتنبي:

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وكثيراً ما تحدث اللبنانيون عن الأرز ونظموا القصائد الطوال في ذلك وصار من المعالم السياحية، وكم قرأنا من أشعار وقصائد وكتب حول شجرة الأرز، وجودة أخشابها وطيب رائحتها، وكانت فرصة طيبة أن نذهب لتمضية يوم في

الأرز ومشاهدة الثلوج ومنه ذهبنا لبشري، وزرنا بيت أديبها الريحاني وهي تشرف على وادي قاديشيا.. والواقع أن شجرة الأرز شجرة جميلة كما أنها صلبة ولا غرو إذا استعمله الأقدمون وصنعوا منه مراكبهم وسفنهم.

كما قمت برحلات متتالية لجباله ومصايفه والتي تمتاز بالنسيم العليل والمناظر الخلابة والمناخ الجميل والمياه الباردة العذبة، ومن أشهر المغارات مغارة جعيتا وفاديشيا والتي تتفجر منها المياه.

ومن أشهر المصايف:

عالية، بحمدون، صوفر، حمانا - ظهور الشوير، سوق الغرب، برمانا، زحله، خلده، فالوغا، بكفيا، كيفون، نبع الصفا، نبع الباروك، شتورة إلى غير ذلك من القرى والمصايف المنتشرة على سفوح الجبال وقد حباها الله بالخضرة والنضرة والجمال.

ولقد أمضيت يوماً كاملاً على ضفاف نهر البردوني في رحلة ممتعة والذي جلس فيه أمير الشعراء شوقي حيث يقول من قصيدة طويلة:

ياجارة الوادي طربت وعادني ... مايشبه الأحلام من ذكراك

إلى أن يقول:

مرآك مرآه وعينك عينه ... لم يا زحيلة لا يكون أباك

وذهبنا لعاصمة الشمال طرابلس ذات التاريخ المديد حيث كانت عاصمة لأمم كثيرة وقد كانت تشتهر بوجود المكتبات العلمية فيها وحينما كانت عاصمة لبني عمار كان بها مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد حيث كان ابن عمار حريصاً على جمع الكتب وتوفيرها ولكن الافرنج خربوها، ثم جاءها الفاطميون وغيرهم وهي الآن المدينة الثانية في لبنان وبها نشاط اقتصادي وازدهار صناعي، وحركة تجارية واسعة.

ومن الشمال قصدنا الجنوب صور وصيدا وجبيل وغيرها من المدن والقرى وهي بلدان ذات شهرة تاريخية وبها قلاع تاريخية قديمة وآثار تحكي تاريخ الأمم

الغابرة.. أما بعلبك فقد أمضينا في ربوعها وبين قلعتها يومًا تجولنا فيه بين آثارها التي تمثل المعابد الرومانية القديمة ذات التصميم القوي والإبداع الهندسي.. وحينما كنت أتجول في أسواقها تذكرت القائد البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي فقد تربى فيها حيث كان والده عليها واليا، كما أنها أنجبت العديد من الشعراء والأدباء والعلماء.

إن لبنان بلد تجارة وسياحة وهما أسباب ازدهاره وغناه وليس فيه موارد طبيعية غنيه ولكن السياحة والموقع الاستراتيجي ومهارة أهله في ممارسة أساليب الخدمات العامة جعلته يرتفع إلى هذا المستوى..

زرت الكثير من المكتبات في لبنان والتقيت بمجموعة طيبة من الشعراء والأدباء ممن لهم نشاط ومشاركات علمية وأدبية، وكنت حريصًا على أن تتاح لي الفرصة للقاء مع كبار الأدباء والمفكرين ممن نقرأ نتاجهم ونسمع بأسمائهم اللامعة في الحياة الفكرية ونتابع انتاجهم وأبديت رغبتي لأحد أصحاب المكتبات فأبدى استعداده حيث أن له صلات عديدة وصداقة وطيدة بحكم اشتغاله بالنشر والكتاب، ولقد حرصت على أن يكون لقائي مع من لهم إهتمام بالأدب العربي وخدمة التراث والثقافة الإسلامية ولقد وجدت منهم كل رحابة صدر وتواضع حيث جرى الحديث عن الأدب والشعر والتراث والتجديد قديمًا وحديثًا، واندفاع الكثير من الأدباء والشعراء مع تيار الحياة المادية ورواج الصحف والمجلات والكتب التي تبعد عن واقع الأدب والثقافة الموضوعية الجادة، ولقد سمعت ما أثلج صدري وملأ نفسي تطلعًا من أن هناك حرصًا واهتمامًا بالأدب ورفع مستواه ويوجد في بيروت متحف أثري ومكتبة عامة سعدت بزيارتها.

الصحافة في لبنان:

يشتهر لبنان بكثرة صحفه ومجلاته مما يسترعى الأنتباه وقليل هي الصحف الجادة الملتزمة ومع هذا فهناك مجلات علمية وأدبية وفكرية وتربوية ويمارس الكتابة فيها كتاب مبرزون وأدباء مجيدون ممن لهم قدم راسخة في ميدان العلم والأدب، ونأمل أن تتمكن هذه المجلات وغيرها في العالم العربي من الأرتفاع بمستوى الأدب والمعرفة ليبلغ أوج الإبداع والعطاء والخلود.

ومن لبنان توجهنا إلى عمان حيث ذهبنا في الصباح إلى مطار بيروت للسفر إلى الأردن على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية اللبنانية، وكانت إجراءات الركوب والسفر في غاية من اليسر والسهولة وركبنا طائرة البوينج ولم يكن يبلغ عدد ركاب الطائرة أقل من نصف مقاعدها، وقد قدموا لنا طعام افطار في الطائرة وكنت طوال الرحلة في حديث مع أحد الركاب الأردنيين وهو من رجال التربية والتعليم، حيث تجاذبنا الحديث عن الأساليب التربوية الحديثة والتطورات المعاصرة في حقل التعليم حتى نزلنا في مطار عمان، وبعد أن أنهينا الإجراءات المعتادة ركبنا سيارة أجرة من المطار إلى أحد فنادق عمان وكان قائد السيارة على جانب من دماثة الخلق فأخذ يشرح كل ما نمر به من الأماكن والميادين وغيرها، وبعد أن وصلنا الفندق وجدناه في غاية النظافة فشكرنا للسائق خلقه الكريم وبعد الاستراحة في الفندق خرجنا في جولة حول الفندق وتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة ثم فوجئت بنزول وابل من المطر فكانت السحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع والرعد يكاد يصم الآذان، وعدنا لفندقنا مسرعين فلم نتمكن من الخروج فبقينا بين الغرفة وقاعة الفندق نطالع الصحف والمجلات ونتناول الشاي والقهوة.

وفي اليوم الثاني ذهبنا مبكرين للسفارة السعودية للتحية والسلام وتسجيل الجواز فلقينا منهم كل حفاوة واحترام، وبعد أن أمضينا في عمان عدة أيام زرنا خلالها الكثير من المعالم والآثار والمكتبات ودور العلم والمعرفة، توجهنا صوب القدس* لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ثالث المساجد، وقد مررنا بالعديد من القرى والبلدان ووصلنا القدس وتوجهنا للمسجد الأقصى أولى القبلتين والمسجد الذي يشد إليه المسلمون رحالهم من جميع بقاع الأرض وقد أسرى الله بنبيه محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السماء، ومشينا على أقدامنا بين وسط طرقات مدينة القدس القديمة وبعد أن اجتزنا سوق المدينة وصلنا المسجد ولقد امتلأت نفسي روعة وجلالا وعبرة وتأملاً وكانت الأبواب مليئة بالناس من رجال ونساء وأطفال قدموا من مختلف المدن والقرى المجاورة فكان الزحام شديداً في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ودلفنا إلى المسجد وأدينا صلاة

* وكان ذلك في عام ١٣٨٠ هـ.

الجمعة مع الجموع الكبيرة التي امتلأت بها ساحة المسجد فكان مشهداً عظيماً رائعاً، وبعد الصلاة وقفت أتلفت إلى هذه الوجوه الخاشعة في مختلف أرجاء المسجد ثم قمت متجولاً أجيل الطرف في أرجائه وأشاهد قبته وأبنيته المحيطة به كما شاهدت من خلال نوافذه مدينة القدس الجديدة كما يسمونها والألم يعصر القلب ثم أخذت أتنقل بين جنبات الحرم واتجهت إلى الصخرة وكانت مليئة بالناس وقد وصفها المؤرخ المقدسي بقوله:

«لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة» ولقد شاهدت قبة بجوارها تسمى «قبة المعراج» ونزلنا إلى المكان المحيط بصحن القبة ثم خرجنا لمشاهدة أسوار الحرم من الداخل والخارج وهي مجموعة أربطة لطلاب العلم والمدرسين بالمسجد بجوارها متحف بداخله بعض الآثار وانتهى بنا التجوال مع مختلف الآثار حتى عدنا إلى المسجد لأداء صلاة العصر فلما أنتهت الصلاة قمت لمشاهدة المنبر ومشاهدة ما يمتاز به من جمال الشكل ومتأملاً ما مر عليه من أمم وقرون وحوادث وعصور متعاقبة، ولقد قال ياقوت في وصفه: وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي أساسه من عمل داود عليه السلام وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه وهو على غاية الحسن والاحكام وطوله ألف ذراع وعرضه سبعمائة وفي سقفه من الخشب أربعة آلاف خشبه وسبعمائة عمود رخام وله ستة وعشرون باباً الخ، وما أكثر ما كتب المؤرخون عن هذا المسجد ووصفه الرحالة في كتبهم، ولبثت في القدس يوماً وليلة زرت خلالها الكثير من المعالم والآثار والأبنية التي شادها صلاح الدين وخلفاؤه وذهب بنا الدليل الدي كان يرشدنا إلى كنيسة القيامة وهي كنيسة أثرية قديمة وسمعنا من المرشد أقوالاً شتى عن تاريخها وعن المسيح، وفي زاوية منها مكان يسمونه المذبح وتركنا القدس حيث غدونا إلى البحر الميت وماؤه ملح جداً وبقينا على شاطئه بضع ساعات نتأمل أرض فلسطين وتاريخها الحافل المجيد وذكرياتها التاريخية وما مر بها من جيوش وأمم وحروب ما زالت باقية في صفحات التاريخ والذكريات أعاد الله فلسطين عربية مسلمة.

وذهبنا بعد ذلك إلى نابلس ورام الله والبيرة والخليل، واخترنا رام الله

للاستقرار والمبيت بها حيث بلغ منا التعب مبلغه وهي مدينة جميلة وهادئة وباردة وقد ذهبنا لتناول طعام العشاء في أحد مطاعمها ثم غدونا نسير في طرقها وشوارعها حتى أدركنا التعب وذهبنا للفندق، وفي الصباح ودعنا تلك الربوع الجميلة إلى عمان ومنها إلى دمشق فحلب بلد سيف الدولة الحمداني والتي يقول الشاعر فيها:

كلمـــا رجت بنا الروض قلنا حلب قـصـدنا وأنت الســبـيل

وفي حلب شاهدنا معالم كثيرة كقلعة حلب التي تقع على ربوة عالية يحيط بها خندق كان يملأ بالماء قديماً كما توجد بها نقوش وكتابات ترجع إلى العهود القديمة، كما يوجد بالقلعة سرداب مظلم يقول المرشد إنه كان سجنًا، وفيها مسجد إلى غير ذلك من المشاهد كالجامع الكبير والمكتبة الوطنية التي تحوي نفائس الكتب.. وفي اليوم الثاني قمنا برحلات إلى كل من حمص وهي مدينة زراعية ولها تاريخ مجيد وبها دفن خالد بن الوليد وابنه عبدالرحمن، وعلى نهر العاصي بقينا فترة من الوقت وشاهدنا الماء يتدفق من طواحينها ويقول الشاعر:

ومن حسنها في روضة سندسية تعلق في أطراف أذيالها العاصي

ثم قصدنا حماة ومعرة النعمان والتي يرقد بها شيخ المعرة ثم عدنا إلى دمشق الفيحاء والتي يقول شوقي فيها:

لولا دمـشق لما كـانت طليطلة ولا زهت ببني العـبـاس بغـداد

وكما قال الشاعر:

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها فـمـا أطيب اللذات فـيـهـا وأهناها

نزلنا بها واستوقفتنا محاسن يحن إليـهـا كل قلب ويهـواها

ومنها غادرنا بلاد الشام ونفوسنا مفعمة بتلك المشاهد وأفكارنا مليئة بالذكريات.

مردداً قول الشاعر:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغـوطتين شـجـون

في أرض الرافدين

يحرص المرء دائماً على زيارة بلدان العالم العربي والإسلامي وخاصة عندما يكون البلد ذا تاريخ حافل بالمعالم والآثار وعلى رأي القائل «ليس من سمع كمن رأى» وشاء الله أن تتحقق تلك الأمنية..

فقد تلقيت دعوة من رئيس مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة بحضور الدورة الثانية عشرة لمراكز الدراسات والوثائق والتي تستضيفها جامعة البصرة.. وقد تقرر أن يكون الاجتماع في يوم ١٤١٠/٥/٢٠هـ..

وغادرت الرياض يوم الأثنين الموافق ١٤١٠/٥/١٨هـ متوجهاً إلى الكويت وكان الوصول إليها الساعة السابعة مساء.. ولم تكن هذه الزيارة الأولى للكويت.. فقد سبق أن زرتها منذ عشر سنوات وبعد أن أمضيت ليلة في ربوعها والتقينا في ديوانية الشيخ عبدالعزيز بن سعود البابطين بمجموعة من الآدباء والشعراء والوجهاء من أبناء الكويت الشقيق وقد غمر الجميع أبو سعود ببشاشته ومكارم أخلاقه ووجدنا منه كل حفاوة وتقدير ثم توجهت صوب مدينة البصرة وسط طريق معبّد جميل ثم توقفنا عند الحدود الكويتية العراقية برهة قصيرة من الوقت واستأنفنا السير إلى مدينة البصرة مدينة التاريخ والتراث.. وكان الجو دافئاً والشمس مشرقة والسماء صحو خالية من الغيوم ومضيت نحو «فندق شيراتون البصرة» حيث كان مقرراً أن نسكن فيه ووجدنا في استقبالنا مجموعة من الإخوة من مركز الدراسات والجامعة..

وفي العشيّ ذهبنا إلى أسواق المدينة ورؤية شط العرب الذي وصفه الشعراء والكتاب والرحالون ثم مشاهدة بعض معالم البصرة وآثارها.. ولكم تذكرت وأنا أسير في طرقاتها وبين ميادينها وأسواقها تاريخ هذه المدينة، وكذلك أمجادها العلمية وإسهامات علمائها ومفكريها وشعرائها خلال حقب التاريخ كالقرن الأول الهجري أو في العهد الأموي أو في القرن الثالث الهجري أو غير ذلك..

كان للبصريين من نحاة وأدباء ومحدثين إسهامات جيدة في مجالات اللغة

والنحو والأدب وعلوم التفسير وغيرها.. فقد أنجبت مدينة البصرة العديد من العلماء الأفذاذ كالجاحظ وأبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي والمدائني والكندي وابن الهيثم.. كما سكنها الصحابي الجليل أنس بن مالك ومحمد بن سيرين والحسن البصري وغيرهم من العلماء الأجلاء..

لقد كنت أتذكر تاريخ أولئك العلماء والأعلام وأنا أطوف بميادين البصرة.. فقد تميزت البصرة على غيرها بتعدد المراكز الفكرية والعلمية إذ ذاك.. إن هذه المدينة تمثل تاريخًا عريقًا ومجدًا إسلاميًا رفيعًا..

وبعد جولة عدنا إلى الفندق وبعد تناول طعام العشاء كان لقاء تعارف بين أعضاء الوفود المشاركة في الدورة..

وفي صباح الأربعاء توجهنا نحو جامعة البصرة.. وقد غصّت قاعة الاحتفالات بالمدعوين من رجال العلم والمعرفة وأساتذة الجامعة، وقد أفتتح الدورة مدير الجامعة الذي رحّب بهذا اللقاء لمراكز الدراسات والوثائق في مدينة البصرة، مدينة التاريخ ثم رئيس مركز دراسات الخليج العربي حيث ألقى كلمة ترحيبية ثم ألقى معالي الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق ووزير العدل والشئون الإسلامية في البحرين كلمة بليغة حيّا فيها الحاضرين من العلماء وتمنى أن يكتب الله لأمة الإسلام النصر والتأييد وذكر أن البصرة كانت قديماً منارة تشع منها أنوار العلم والعرفان وتمنى للمؤتمرين النجاح والتوفيق..

ثم بدأت أعمال الدورة واستمرت يومين.. وخلال مقامنا في البصرة وجهت لنا دعوات وذهبنا لحضورها منها دعوة مدير الجامعة في فندق الخليج.. حيث الفينا جمعًا حافلاً من رجال العلم والأدب وكذلك حفل محافظ البصرة.. ثم توجهنا في اليوم الأخير إلى مدينة «الفاو» وهي على مقربة من البصرة وبلغناها بعد سير بالحافلات لمدة ساعة فقصدنا إلى زيارة آثارها ومعالمها.. ثم جولة في أرجائها وميادينها وغدونا نجول في أنحائها.. ثم سرنا نحو الجامع الكبير لأداء صلاة الظهر.. ولقد سألت الأخوة المرافقين لنا من أساتذة الجامعة عن أصل كلمة

الفاو وسبب تسميتها فقيل لي إن ذلك يعود إلى أن الفاو اسم لسفينه شراعية غرقت في نهر المهلبان نسبة إلى المهلب بن أبي صفرة وكانت تابعة للديلم فسميت المدينة باسمها وروى أحد الأخوة أن الفاو كانت تلفظ «فو» بالفاء المفتوحة والواو المشددة ثم بدأت بالتخفيف حتى أصبحت تلفظ الفاو وأردف احدهم بأن الفاو كانت من أرقى مناطق العالم المعروفة بكثرة وجود مادة الحناء..

ولقد ذكر صاحب المنجد أن الفاو: هو المضيق في الوادي والموضع الأملس وأنها من نواحي العراق..

وهكذا أمضينا أيامًا في مدينة البصرة.. حيث لبثنا فيها من يوم الثلاثاء إلى صبيحة يوم الجمعة في حفاوة إخوان وعلماء أجلاء و بزيارة مدينة العلم والتي اشتهرت بسوق المربد.. حيث كان سمة للبصرة، ولعب دورًا فكريًا وظلت ذكراه قائمة ترمز إلى شهرة المدينة في عالم الأدب والشعر.. حيث كان مركزًا التقت فيه البادية بجميع ما فيها من موروثات حضارية وفصاحة لغوية وأصالة حافلة بالقيم والتقاليد.. وكان سوقًا للعطاء الفكري وقد سألت الإخوة عن موقعه وحاله.. فذكر لي بأنه بمرور الزمن تحول إلى محلة كبيرة مشهورة كانت تسمى بمحلة المربد وقد وصفه ياقوت الحموي بأن هناك شارعًا من أصل شوارع البصرة وسمي أيضًا بشارع المربد..

وفي صباح يوم الجمعة ركبنا الطائرة نحو بغداد وكانت المسافة زهاء ساعة ونصف وكانت معي في الطائرة بعض الكتب فكانت خير زاد للمسافر ولما وقفت بنا الطائرة في مطار بغداد كان في استقبالنا الأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب والذي رحَّب بنا وتوجهنا صوب فندق المنصور ثم دعينا لزيارة مركز التوثيق وحضور ندوة تاريخية، وقد دعى لها أكثر من أربعمائة مؤرخ ومفكر من أنحاء العالم العربي وقد حضر عدد من أساتذة الجامعات السعودية وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور / عبدالله الشبل وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود والأمين العام المساعد لاتحاد المؤرّخين العرب والأستاذ الدكتور / عبدالله العثيمين الأستاذ في جامعة الملك سعود والأستاذ الدكتور / محمد الشعفي والدكتور عبدالعزيز الشبل وغيرهم وقد ضمت الندوة نخبة من علماء التاريخ في الوطن

العربي ودعى لها بعض المستشرقين وكان لقاءً حافلاً بالمناقشات العلمية والتاريخية والحضارة الإسلامية المجيدة والإضافات المفيدة.

وفي بغداد قمت بزيارة لمراكز الثقافة والمتاحف والوثائق والسفارة السعودية ومكتب الملحق الثقافي السعودي، ومركز التوثيق الإعلامي وسور بغداد وأبوابه والمدرسة المرجانية وسوق الشورجة ومسجد الإمام أبي حنيفة ومسجد الخلفاء والمتحف العراقي حيث مشاهدة آثار البابليين والأشوريين والسومريين والآثار الإسلامية ومما يحفل به من أمجاد هذه الديار التاريخية وجامعة بغداد والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله سنة ستمائة وثلاثين ومجموعة من آثار المدينة، ومكتباتها والمعالم الحضارية.. ثم ذهبت بصحبة أخي الأستاذ حمد الركبان الملحق الثقافي السعودي في العراق ورب الدار أدرى بما فيها كما يقال وتجولنا في المدينة وزرنا دكاكين الوراقين والأسواق القديمة كسوق الصفافير وسوق البزازين ومكتبة المثنى وقد شط بي الخيال حيث تذكرت بغداد وتاريخها العريق ومجالس أولئك الخلفاء والعلماء والفقهاء والشعراء وأين الكوخ والرصافة والجسر ودجلة والفرات فقد دوى ذكرها في المشرق والمغرب وأين المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم والبويهين والسلاجقة وغيرهم وكانت تسمى مدينة المنصور ومدينة السلام ومن أسمائها الزوراء وقد بناها أبو جعفر المنصور الخليفة الثاني للدولة العباسية سنة ١٤٥هـ وانتقلت إليها الدولة سنة ١٤٨هـ ومن يقرأ تاريخ الخطيب البغدادي سيجد الأخبار والأيام والتاريخ والشعر ولقد قيل الصناعة في البصرة والفصاحة بالكوفة والخير في بغداد.

وبعد تمضية يوم كامل في أرجاء المدينة عدت في العشي إلى الفندق حيث قضيت تلك الليلة هائمًا في ذكريات التاريخ والشعر والأدب والماضي السحيق وفي الصباح تهيأنا لجولة خارج بغداد حيث زرنا بعض المدن العراقية ذات الذكر التاريخي كبابل وهي من المدن القديمة ومن ذوات العجائب وغدونا نجول بين أرجائها ومعالمها وتذكرنا ما مرت به من دهور وقرون وأيام وحضارات كما زرنا «سامراء» ذات التاريخ والمجد العريض فتجولنا بين أطلالها وأسوارها وجوامعها.

وتركنا سأمراء مواصلين السير حيث عدنا إلى بغداد، ثم زرنا بعض الأحياء كحي الكاظمية الواقع قرب دجلة وبها مسجد الإمام الكاظم وحي الأعظمية والمنصور وغيرها من الأحياء، ثم غدونا نتجول في ربوعها ونتذكر أيامها وتاريخها وعلى جسر دجلة تذكرت قصيدة علي بن الجهم تلك القصيدة الرصافية التي فتن الأدباء بها إلى يومنا هذا وبمطلعها الجميل ونسجت حولها القصص والروايات.

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وهي تزيد على أربعين بيتًا وقد حفظناها صغارًا

ومررت بالكرخ فتذكرت قول الشاعر :

سقى الله باب الكرخ من متنزه إلى قصر وضاح فبركة زلزل

وخلال التجوال في أجاء بغداد سألت عن قصور الخلفاء التي ذكرها المؤرخون والشعراء كقصر الخلد الذي بناء المنصور وقصر القوارير وهو قصر زبيده بنت جعفر وقصر التاج لدار مشهورة من دور الخلافة في بغداد والقصر الجعفري الذي بناه جعفر بن يحيى البرمكي وقصر الثريا بناه الخليفة المعتضد بالله وصفه ابن المعتز في قصيدته :-

حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معمورًا وبورك من قصر

وعلمت أنه قد ذهب أثرها وانطمس بنيانها ولم يبق لها ذكر إلا في أسفار التواريخ وكتب البلدان.

ومررنا بنهر دجلة فقلت لصاحبي دعنا نملأ العين من مبأهجه فقد حفظنا من الأشعار فيه الشيء الكثير.

ولنرى دجلة الذي فاض بالخير عليها وماج بالإيناس

وبعد: فإن ذكريات التاريخ تترى أمام المرء وهو يتجول في تلك الأماكن وسرنا بين تلك الأحياء حتى بلغنا الفندق ولشد ما برّحت الذكريات قلب المرء حينما يستعرض التاريخ والأمجاد العربية الإسلامية.

وأصبحنا يوم الأحد نتجهز للسفر إلى الكوفة والنجف وكربلاء وعبرنا دجلة خارجين من بغداد والساعة تسع من الصباح وسرنا نحو الجنوب فمررنا بعشرات القرى والبلدان منها المحمودية واللطيفية والإسكندرية ثم توقفنا قليلاً في المسيب وعبرنا الفرات وسرنا حتى وصلنا كربلاء ثم النجف حتى بلغنا الكوفة مهد علوم العربية وملتقى العلم والعلماء.

فقد زخرت بالعلماء والشعراء والأدباء والخطباء وكان لها دور عظيم وشأن كبير ومدرسة نحوية، وزرنا جامعها الكبير وسرحنا الطرف في جنباته وفيما حوله من دور وآثار، وأخذ مرافقنا يشرح لنا تاريخه وقصر الإمارة ودور العلماء والمعالم الأثرية الباقية .

وتوجهنا إلى الحلة بلد الشاعر صفي الدين الحلي ثم رجعنا إلى بغداد وبلغناها والساعة تسع من المساء.

ولقد كانت رحلة ممتعة ويومًا أغرّ جميلا رغم السير المتواصل وقد كان بجواري، أحد الإخوة المغاربة من أساتذة التاريخ، فكان حديثنا عن تاريخ الكوفة وعلمائها وقادة الفتوحات الإسلامية، فكم شهدت من أيام زاهرة ومجالس علم ومعرفة ملأت كتب الأدب والتاريخ والتراث إشعاعًا ونورًا وتاريخًا مضيئًا.. ورحم الله أسلافنا الميامين الذين قادوا فتوحات الجيوش الإسلامية.. وهكذا أوحت لنا طبيعة المكان بهذا الإحساس التاريخي ولم يقطع ذلك الحديث إلا والإخوة الزملاء من مرافقي الرحلة يودعوننا.

وبعد تمضية أيام ممتعة مفيدة في ربوع بلاد الرافدين الحافل بالآثار والمعالم العربية الإسلامية ودعنا تلك الربوع.

في تركيـا

راودتني فكرة القيام برحلة استطلاعية إلى تركيا [1] حيث قرأت وسمعت عنها الشيء الكثير وعلى رأي المثل القائل: «ليس راء كمن سمع» فأزمعت السفر إليها واستحسنت أن تكون بطريق البر ليتسنى لي رؤية مختلف المعالم الأثرية والتاريخية والسياحية، والتمتع بالمناظر الطبيعية من سهول وهضاب وجبال وأودية والاطلاع عن كثب على العادات والتقاليد والمدن الأثرية، وكان خط الرحلة: الرياض بيروت - طرابلس - اللاذقية - انطاكية - الاسكندرونه - أضنة - أنقرة - استنانبول. وبعد أن أمضيت فترة في ربوع لبنان وتجولت بين روابيه الخضر وشاطئه البديع وهضابه وتلاله وجبله الأشم وما أودع الله فيه من جمال وروعة حيث المياه العذبة والمغارات الرائعة والنسيم العليل والشمس الدافئة والشلالات الهادئة في نبع الصفا والشاغور وغيرهما مما دفعني إلى تذكر أبيات شاعر العروبة الكبير معروف الرصافي وترديدها وأنا أتنقل بين ومرابعه ورياضه وأرزه الخالد حيث قال في لبنان:

أرى الحسن في لبنان أينع غرسه ... وقارب حتى أمكن الكف لمسه
لقد لبس الجو اللطيف فزانه ... فلان بكف العيش منه مجسه
ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه ... وفي الظهر لم تلفحك بالحر شمسه

وكم في هذا القول من موسيقى عذبة وتصوير رائع يعكس معالم الطبيعة ومفاتن جمالها...

تشغل تركيا كما هو معروف مكانًا استراتيجيًا يمتاز بأهمية الدولية وبالنسبة لموقعها فجزء منها في آسيا وآخر في أوروبا فهي بمثابة الجسر الذي يصل آسيا بأوروبا.

وقد كانت أراضيها سابقًا مجال نزاع وميدان خصومة بين الفرس واليونان

(١) كانت الرحلة ١٣٨٣هـ.

وموئل الصراع والقتال بين المسلمين والروم في العصور الوسطى وقد استوطنها في السابق عدد كبير من اليونانين والبيزنطين وغيرهم من الأمم السابقة. . .

واستوطنها الأتراك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي. ويحد تركيا من الغرب اليونان ومن الشرق ايران ومن الشمال البحر الأسود ومن الجنوب العراق وسوريا. ويقدر عدد سكانها بحوالي خمسين مليون نسمة معظمهم يعمل في الزراعة إلى جانب ممارسة الآخرين من السكان للأعمال التجارية والصناعية.

ولنعد إلى برنامج الرحلة فقد وصلنا الحدود التركية وبعد الإنتهاء من الإجراءات التي كانت تتسم بالسرعة وعدم التعقيد وصلنا إلى مدينة (أنطاكية) وهي مدينة تاريخية مشهورة وتجولنا في شوارعها وميادينها وأماكنها الأثرية، وأغلب سكانها يتحدثون اللغة العربية بطلاقة وقضينا في ربوعها ليلة هادئة جميلة تذكرت خلالها الشاعر العبقري أبا الطيب المتنبي حين هجر حلب وقت اشتداد الصراع فيها بين الإخشيديين والحمدانيين وجاء إلى هذه البلدة ليقيم في ربوعها ويعيش في جنباتها ويمدح سراتها واضطرته الظروف إلى مدح من لا يريد مدحه ولقد ورد له شعر كثير في هذه البلدة ومن ذلك قصيدته التي مدح فيها الأمير المغيث بن علي العجلي والتي مطلعها:

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا　　لأهله ما شفى أنى ولا كربا

إلى أن يقول:

لما أقمت بانطاكية اختلفت　　إليَ بالخبر الركبان في حلبا

فسرت نحوك لا ألوي على أحد　　أحث راحلتي الفقر والأدبا

ولقد مرت به في هذه البلدة ظروف عصيبة كانت حاجته فيها شديدة وملحة مما اضطره كما يروي إلى دينار علي بن منصور الحاجب الذي منحه إياه مقابل قصيدته الشهيرة والمعروفة برقة ألفاظها وجمال نسيبها ومطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا　　اللابسات من الحرير جلابيا

الملهبات قلوبنا - وعقولنا　　وجناتهن الناهبات الناهبا

الناعمات القاتلات المحييات　　المبديات من الدلال غرائبا

إلى أن يقول:

أضنتني الدنيا فلما جئتها مستسقيا مطرت علي مصائبا

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إليَّ فيها تائبا . .

ثم بارحناها إلى مدينة آضنة وهي مدينة آثرية قضينا في رحابها يومًا وليلة، بين تجوال في ميادينها، وزيارة لمعالمها السياحية واستأنفنا السير بعدها إلى مدينة أنقرة العاصمة التركية عن طريق جبل (طوروس) الشهير حيث المنعطفات والجبال المرتفعة ويوجد في الطريق عدة أماكن للاستراحة مجهزة بما يحتاجه السائح من المأكولات والمشروبات، وبعد المرور بمئات القرى والمزارع والمصانع ومجموعة من القرى وحقول الزيتون وصلنا مدينة أنقرة.

ودعنا أضنة:

ومع اطلالة الفجر وندى الصباح ودعنا «أضنة»: البلدة الوادعة الجميلة ذات المباني القديمة واستأنفنا السير صوب العاصمة: أنقره. وكان الطريق طويلاً إذ يزيد على ٦٠٠ كيلاً وسرنا عبر جبال «طوروس» الشهيرة ذات المنعطفات والمنعرجات والصعود والهبوط، وكنا نمر بعشرات القرى الجميلة المنتشرة هنا وهناك كانت الرحلة بين أضنة وأنقرة طويلة جدًا، ولكن جمال الطبيعة ومناظر الأشجار حيث الغابات ملتفة الأشجار من كل ناحية وحيث الأنهار الصغيرة ذات الجداول المتفرعة وكذا المقاهي العديدة المزدهرة بما لذ وطاب ثم هذه «الاستراحات» الواقعة على جوانب الطريق يوجد بها كل ما يطلبه المسافر من المأكولات والمشروبات.

ولقد توقفنا ونحن نمضي في الطريق عدة مرات رغبة في الاستمتاع بجمال الطبيعة وروعة المناظر الخلابة وظلت هذه الأشجار تعطينا رائحة عبقة ونكهة ممتازة، وكلما اختفت قرية ظهرت، على التو، قرية أخرى. . وهكذا دواليك حتى شارفنا العاصمة أنقرة والواقع أن طول الطريق جعل الملل والسأم يتسللان إلى نفوسنا، وحينما ظهرت لنا أنقرة حمدنا الله على سلامة الوصول وتوجهنا صوب فندق «أمبريال» السياحي. وبعد أن أخذنا قسطًا كافيًا من الراحة والنشاط

عرجنا للتجول في شوارع المدينة حيث أرتال السيارات وجموع الناس تمتليء بها الشوارع. وأعداد ضخمة من السياح.

أنقـــــرة:

ولقد وجدت أنقرة مدينة جميلة متطورة، حافلة بكل شيء يظهر عليها التصميم الحديث فشوارعها ممتدة واسعة، وميادينها ضخمة وحدائقها منتشرة.. وقد قمنا بزيارات استطلاعية لمختلف معالم أنقرة.

ومن ثم قمنا بزيارة لحديقة الحيوانات، حيث شاهدنا مختلف الأنواع فيها، ورأينا مجموعات من السائحين وهم يتجولون في جنباتها ويداعبون بعض الحيوانات والطيور فذكرت قول الشاعر:

والطير يصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان

ســـد أنقـــرة:

وبعد زيارات متتابعة لمختلف المعالم والأسواق في المدينة آثرت أن نخرج لنمضي وقتًا ممتعًا في سد أنقرة وهو سد تحيط به الجبال من جميع الجهات، وقد أمضينا فيه أصيلاً جميلاً، واستأجرنا زورقًا بخارياً كان عبابه بين مياهه العذبة الصافية، ونسماته العليلة. وشعرنا بجو شاعري جميل، فهنا الاستراحات المنظمة وهنا يتوافر كل ما يطلبه المرء من طعام وشراب وحدائق واسعة ومناظر جميلة.

وكم بهرنا منظر هذا السد وما يجثم على حفافيه من مناظر ساحرة ومشاهد بديعة، تعبق بالأريج والعطر والجمال.

وبعد أن أمضينا في ربوع مدينة «أنقرة» العاصمة الحديثة ثلاثة أيام. أزمعنا الرحيل صوب مدينة «اسطنبول» ذات المجد والتاريخ الحافل.. وطلبنا من صاحب الفندق أن يرشدنا إلى فندق نقيم فيه هناك. فلقد كان رجلا لطيفا أغرقنا في بحر من الاحترام والتقدير كلما رآنا. حيث كان يحفظ بعض الكلمات العربية وخاصة ما يتصل بعبارات التأهيل والترحيب ولعله حذق تلك العبارات من كثرة نزلائه من السياح العرب وكثرة معاشرته لهم. وكنا نتلقى منه هذه التحيات

ونردها بالشكر والامتنان.

ومع اشراقة الفجر، انطلقنا نعبر الطريق الممتد وننعم بالمناظر الرائعة حيث الأزهار والأشجار والحقول الممتدة مرددين مع الشاعر العربي قوله:

كست الطبيعة وجه أرضك سندسا وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا

بسط تظللها الغصون فأينما يممت خلت سرادقا منصوبا

وبعد قطع مسافة من الطريق آثرنا أن نرتاح قليلا في تلك الاستراحات الموجودة بكثرة على جنبات الطريق واحتسينا القهوة التركية التي يعملونها بجودة ودقة.. وتناولنا بعض الفواكه المختلفة المذاق والألوان. ثم واصلنا السير. وكنا نزداد شغفا بما نشاهده من جميل المناظر، من قرى، وبساتين، وغابات.. ومما يشيع في النفس المسرة والابتهاج..

وبينما الشمس تجنح للغروب أخذت تقرب منا اسطنبول وتدنو معالمها، ومآذنها وقبابها الماثلة في قلبها تلوح لنا وتنطلق منها مدوية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهو أمر يملأ العيون بهجة، والنفوس حبورًا.. إذ لم تستطع الأيام الطوال وما صاحبها من خطوب وما رافقها من أحداث ونوائب على هذه المدينة أن تطمس تلك الآثار الإسلامية.

ووصلنا اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك وبعد أن مررنا باسطنبول القديمة.. تابعنا السير نحو القسم الأوروبي بواسطة البواخر البحرية التي تتسع لعشرات السيارات. واتجهنا إلى فندق «ديروبالاس» السياحي وما كدنا نبلغه حتى أخذنا في استراحة نتخفف فيها من عناء السفر وثقله بعد احتساء أكواب الشاي والقهوة.. ولعل الطريف في هذا الفندق أن الغرفة التي كانت من نصيبي تطل على شارع يحفل بالهدير والزئير بعكس أحد زملائي الذي كان ينعم بالمنظر الرائع وينبسط البحر أمامه.. ثم تبين لي أنه أكثر تجربة وممارسة مني في عملية الاختيار لكثرة استضافته للفنادق وتردده عليها.

وفي الصباح الباكر قمنا بزيارات استطلاعية لمعالم المدينة وآثارها وهي مدينة

لها روعة وجاذبية.. كما أن الميادين التي تقع في قلبها.. شديدة الزحام والحركة. فهي مدينة مترامية الأطراف، دائبة النشاط ليلا ونهاراً.

وقمنا بزيارة لمتحف اسطنبول الحافل بمختلف الآثار والدخائر مما جمعه السلاطين وحرصوا على إقتنائه والمحافظة عليه، وكذا بعض المكتبات كالمكتبة السليمانية الحافلة بروائع التراث الإسلامي، وكذا الأرشيف العثماني.

ومما يبعث على الفخر والإعتزاز كثرة الجوامع والمساجد في مدينة اسطنبول، ولعل من أشهرها جامع السلطان أحمد، ومسجد «أيا صوفيا» الذي يزدحم بكثرة منتجعيه من السياح الأوربيين. وكذا مسجد السليمانية ومسجد بايزيد، ورستم باشا، وغير ذلك مما هو كثير. ولقد قمنا بجولة في قصر «ضولما بخشه» الفخم. وقصر «يلدز» ولقد بهرنا ما رأيناه فيهما من روعة ومجد وبهاء مما يجسد تاريخاً يحكي قصة تلك الأيام السوالف..

وكم فيه للأبصار من متنزه تنال به نفس الحليم الأمانيا

به البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا

وذهبنا لشاطئ البوسفور حيث أمضينا وقتًا جميلاً على جنباته. وكم تغنى الشعراء العرب به كالرصافي وغيره ممن كان يستهويهم تمضية الأمسيات بجواره..

ولعل من أشهر أسواق اسطنبول: «بي اغلو» وهو شارع فخم جميل يزدان بالمعارض والمتاجر والتنسيق الجميل. وكذا سوق «كابالي شرشي». ثم قمنا برحلة إلى جزر السلاطين كجزيرة «بيوك ادا» في بحر مرمرة بواسطة بواخر بحرية سياحية. ولقد كان لذيذا جدًا ذلك اليوم الذي أمضيناه في رحابها حيث المياه المعدنية الدافئة والبرك الممتازة والمعدة للاستحمام والبساتين والخمائل والمناظر التي ينطبق عليها قول الشاعر الأندلسي ابن سهل.

الأرض قد كسيت رداء أخضرا والطل ينثر في رباها جوهرا

وكل ما في الجزيرة محبب إلى النفس حيث الهدوء والفن والجمال فلا جلبة ولا ضوضاء.

وفي يوم آخر قمنا برحلة إلى شواطيء «كايولس البحرية» على شاطئ البحر الأسود شمالي اسطنبول على بعد (٢٥)كيلاً بوساطة البواخر السياحية. ولقد كان الضباب يجلل الجو مما زاده روعة، وجمالاً، وبهاء، كما قمنا بزيارة لترابيا وسرير وغيرها من المصايف. ولإزمير عروس بحر إيجه وثالث المدن التركية وتتميز بشواطئها ومنتجعاتها السياحية.

وهكذا بعد أن أمضينا أياماً حافلة بالمتعة والانطباعات الحلوة الباسمة ودعنا تركيا ونحن أكثر ما نكون شوقًا لها مرددين مع الشاعر العربي قوله:

بنفسي تلك الأرض ما أجمل الربى وما أحسن المصطاف والمتربعا

في مصر

بعد رحلة من الرياض دامت ساعتين وصلنا القاهرة والتي وصفها عبدالرحمن بن خلدون بأنها مدينة المدن. . وحينما استقر بي المقام في رحابها كانت ذاكرتي تمتليء بالإنطباعات الجمة عن تاريخ مصر ومعالمها وآثارها ومتاحفها وعلمائها وأدبائها ونيلها وأهراماتها وحضارتها وما كان لها من ماض حضاري عريق مقترنًا بحضارات قديمة في ميادين العلوم والآداب.

والزائر للقاهرة تقع عيناه على أشياء كثيرة ومناظر متعددة ومعالم مختلفة ومن أراد التعمق والدراسة فسيجد بغيته في متحف الآثار المصرية وما يحفل به من آثار تمتلئ بها خزائنه. وكذا دار الآثار العربية وما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخارف ودار الكتب المصرية وقلعة صلاح الدين وخان الخليلي والأزهر.

كان اسم القاهرة «الفسطاط» وقد أسسها عمرو بن العاص عام ٢٠هـ حيث أقام بها جامعه العتيق الذي كان ميدانًا لحلقات العلم والدراسة والوعظ والإشاد، وكم أسهب المؤرخون في وصف مدينة الفسطاط وشوارعها ومنازلها وحماماتها.

لقد وصف عمرو بن العاص مصر بأنها تربة غبراء وشجرة خضراء يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجري بالزيادة والنقصان.

إن القاهرة اليوم مدينة كبيرة واسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ونمت نموًا سريعًا، ولقد حرصت على زيارة معالمها وآثارها فقمت بزيارة الجامع الأزهر ولقد كان هذا الجامع من أوائل الأعمال التي أقامها الفاطميون في مصر، وزاد في بنائه كثير من الخلفاء وما يزال يحتفظ بنقوش وكتابات.

لقد أسهم الأزهر إسهامًا فعالا في الحفاظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية

وصيانة الدين الحنيف ونال شهرة واسعة ومركزاً مرموقاً في العالم العربي والإسلامي، وخرجت من الجامع لزيارة الجامعة الأزهرية حيث التقيت بعدد من الأساتذة والعلماء ممن تربطني بهم صلة العلم فقد التقيت خلال تجوالي بين الكليات بمجموعة من أساتذتي أولئك العلماء الأفاضل، وبعد أن جلست بين قاعاته وكلياته خرجت لزيارة القلعة التي اختارها البطل صلاح الدين لتكون مقراً له وسكناً وامتد الحكام من بعده حتى عصر الخديوي إسماعيل حينما نقل مقر الحكم إلى مقر عابدين ولقد طرأت على مباني القلعة تغييرات وإضافات، وبعد ذلك قمت بزيارة لأحياء القاهرة القديمة التي تحتفظ بطابعها التقليدي ومازال أكثرها يحتفظ باسمه القديم. وصعدت للقلعة التي كان قد أمر ببنائها السلطان صلاح الدين الأيوبي على أحد منحدرات المقطم.

وخلال إقامتي بالقاهرة قمت بزيارات لكل من دار الكتب ودار الآثار العربية والأحياء التاريخية القديمة والمتحف المصري وجامعة الدول العربية، والأهرام، وحديقة الحيوانات وقصر محمد علي والمتحف الإسلامي، والمتحف الحربي بالقلعة، وجامعة القاهرة ومكتبتها ومَجمع اللغة العربية ويضم بين جنباته مجموعة من أعلام اللغة العربية والأدباء البارزين، ويحرص المجمع على تنقية اللغة العربية وينشر ذخائرها، ووضع معاجم لغوية.. ومن اللافت للنظر كثرة المكتبات المنبثة في أحياء القاهرة إلى جانب المجلات الثقافية المتخصصة في مختلف مجالات الآداب والفنون. ويحظى الكتاب بأهمية المؤسسات الثقافية ودور النشر ولذا فهي تقدم مئات الكتب ذات المستويات المختلفة التي تشد حاجات المتخصصين والقراء العاديين في شتى نواحي الفكر والثقافة والعلوم.

وقمت بجولة في أحياء القاهرة وأسواقها الشهيرة بالتحف ذات التشكيلات والفن المتألق من حفر على الخشب والعاج والعظم وغير ذلك من الصناعات الدقيقة المتنوعة، ولعل من أبرز ملامح وجه القاهرة برجها العالي وقبابها ومآذنها ومبنى تلفازها ونيلها الجاري الجميل الذي عاشت على ضفافه أمم وحضارات. والقاهرة تجمع بين القديم والحديث والذكريات التاريخية والآثار العريقة فالزائر لها سيشاهد كل يوم أشياء قديمة وحديثة وسيجد نفسه في حاجة إلى الوقت ليرى

ويستطلع ويقرأ ويشاهد أماكنها ومعالمها التاريخية والأدبية وما أكثر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين أثروا المكتبة العربية بما دونوه وكتبوه عنها وعن نهرها الخالد الذي يجري طويلاً وتنساب مياهه في أرض مصر، ويعتبر من أكبر الأنهار التي تجري في القارة الأفريقية وتعتمد عليه مصر في تحقيق الكثير من الموارد الزراعية والاقتصادية، ومن القاهرة ذهبنا لزيارة الإسكندرية الثغر الجميل والتي أسسها الاسكندر الأكبر قديماً وهي ذات تاريخ عريق حيث عاصرت التاريخ قرونًا طويلة، وبعد زيارة لأهم معالمها السياحية وامتاع الذهن والعين بما تحويه من المناظر الرائعة والشاطئ الجميل والمكتبات الغنية بالكتب القديمة والحديثة والمعاجم الموسوعية واصلت الرحلة إلى الإسكندرية والسويس وبور سعيد حيث شاهدنا السفن تمر قادمة من أمريكا والشرق الأقصى ثم واصلت الرحلة إلى الأقصر وأسوان حيث الآثار التاريخية وقمت بجولة في ضفتي النيل الغربية والشرقية استغرقت يومًا كاملاً لزيارة العديد من المعالم الشهيرة مثل الكرنك والأقصر ووادي الملوك وجزيرة التمساح وغير ذلك من المكتبات والمعالم والمتاحف والأسواق والسد العالي في أسوان وآثار بلدة إدفو وجزيرة الفيلة وكان ذلك خلال جولة استغرقت بضعة أيام اشتملت على رحلة نهرية وزيارة الحدائق النباتية والأزهار من كل جنس ونوع وغير ذلك من روائع الآثار والتاريخ في الأقصر وأسوان وستبقى تلك المناظر والأثار في الذاكرة فترة طويلة حيث تنطوي على الكثير من الجمال والأصالة والتاريخ العريق.

في السـودان

في صباح يوم الأحد الموافق ١٣٩٥/٤/٢٠هـ حطت الطائرة في مطار الخرطوم بعد رحلة استغرقت ساعة من جدة، ولقد حرمنا الطيران في الليل من الاستمتاع بجمال البحر الأحمر ومشاهدة موانئه، وبعد استراحة من عناء السفر والسير حيث أصيبت الطائرة بعطب أخَّر سفرها خمس ساعات.. توجهنا صوب العاصمة التي كانت في منتهى الهدوء إذ لم تستيقظ بعد وأخترقنا شوارع العاصمة ذات الأشجار الكثيفة حتى وصلنا إلى فندق السودان.. ولعل مما يلفت النظر أن أغلب البيوت من طابق واحد مما أضفى على المدينة انفتاحًا واتساعًا وصفاء بعكس أغلب مدن اليوم الكبرى التي تعددت فيها ناطحات السحاب فحجبت الرؤية وتلوث جوها بالهواء الفاسد، وبعد استراحة في الفندق ودعنا مرافقنا المكلف من قبل وزارة التربية والتعليم باستقبالنا ومرافقتنا بعد أن ناولنا برنامج الزيارة وكان حافلاً بزيارة مختلف المؤسسات التعليمية والثقافية، كما تجولنا في مناطق متعددة وزرنا مجموعة من المدارس وجامعة الخرطوم والجامعة الإسلامية في أم درمان والمعهد الديني وحديقة الحيوان والمركز الإسلامي الإفريقي ومعهد تعليم اللغة العربية وبعض المكتبات، كما قمنا بجولة على المدن والقرى المجاورة للعاصمة.. بعد زيارة الخرطوم وأم درمان والوقوف على ضفة النيل ومشاهدة مياهه وكم يغري المرء السير في شارع النيل والتمتع بمنظر المياه التي أضفت على المكان روعة وجمالاً وقد غرست الأشجار على جانبيه.

على مائدة السفارة:

كرم سعادة السفير السعودي فدعانا إلى حفلة دعا إليها عددًا من العلماء والأدباء والمشايخ في السودان بالإضافة إلى أعضاء السفارة السعودية والمكتب الثقافي، وكانت فرصة طيبة تبادلنا خلالها الأحاديث.. والمعلومات عن السودان قديماً وحديثًا.

رحلة على ضفاف النيل:

قامت وزارة التربية والتعليم هناك مشكورة بتنظيم رحلة نيلية جميلة ومشاهدة النيلين حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض ويختلطان في روعة بالغة. وكان الجو ربيعًا جميلاً. ولقد شاهدنا ونحن على ظهر المركب العاصمة السودانية المثلثة وهي تتكون من أم درمان والخرطوم والخرطوم بحري. ومدينة الخرطوم مدينة حديثة جميلة التخطيط بديعة التنسيق. ولقد أضفت الجسور المقامة على جوانبها روعة وجمالا.. وهذه الجسور جعلت من المدن الثلاث حيث يلتقي أطراف بعضها ببعض كأنها مدينة واحدة.. ورغبة في تزجية الوقت كان الحديث عن هذه الثروة المائية الهائلة وعن الزراعة والماشية وامتداد الإسلام في القارة الإفريقية وما يملكه السودان من ثروة زراعية وحيوانية هائلة.

ولقد بقينا على ظهر المركب أكثر من أربع ساعات رغم سيره السريع.. ولقد راعتنا عظمة النيل واتساعه وضخامته وما يفيض به من مياه هائلة، ولقد لفت نظري وأنا أرنو ببصري يمينًا ويسارًا على جوانب النيل قلة المزارع والبساتين على ضفاف النيل المتدفق بالمياة الغزيرة وسألت الإخوة السودانيين الذين كانوا معنا في هذه الرحلة النيلية قائلاً: علام الأرض عارية من الخضرة بينما الماء كما نرى غزارة وعذوبة وامتدادًا..؟ فقال محدثي: إن ذلك يعود إلى قلة الإمكانات إذ أن المال والخبرة مهمان في عملية الاستثمار. وقال آخر: إن السودان يحوي أراضي خصبة لو استثمرت لكفت العالم العربي غذاء. فقلت: حمدًا لله وشكرًا الذي رزقنا هذه الموارد الطبيعية الهائلة... وبعد أربع ساعات أمضيناها على ظهر المركب وصلنا إلى جبل الأولياء وهو على شكل هضبة مرتفعة حيث توجد به خزانات المياه وتوجهنا إلى جامع البلدة لتأدية صلاة الجمعة.. ولقد غمرنا ممن وجدناهم بالسلام والتحية وكانت الكلمات تخرج من شفاههم مليئة بالحب والمودة.

ويمتاز هذا الجبل بوجود الأشجار والظل الوارف واصطياد الأسماك فهو من متنزهات العاصمة حيث يقضي الناس فيه عطلتهم الأسبوعية...

ولقد لاحظت خلال التجوال على شاطئ النيل وجود عدد من الصيادين في زوارقهم يبيعون الأسماك الطازجة بأسعار زهيدة.. وبعد أن أمضينا وقتًا بين قمة هذا الجبل وخزانات المياه وساحل النيل قفلنا راجعين إلى العاصمة..

ولكم يوحي النيل بالجمال فكم تغنى به الشعراء وأبدعوا في وصفه حيث ترك الشعراء قديمًا وحديثًا تراثًا غزيرًا من الشعر حول ذلك، ولكم تفنن شعراء مصر والسودان في وصف النيل فجاءت أشعارهم مفعمة بالرقة والعذوبة ومليئة بالجمال.. والجلال في وصف النيل ومرابعه.. ومباهجه.. لقد كان منظر النيل فاتنًا.. أوحى إليّ باستعراض شريط من ذكريات المؤرخين والرحالة والشعراء.. وما أثار فيهم من عاطفة وإحساسات جمالية ولقد طوى الزمن تلك الذكريات في جوف أمواجه.. حقيقة إن منظر النيل ليولد في النفس إحساسًا عميقًا بالجمال كما أن هذا الإحساس يطلق العنان لخيالات الشعراء والأدباء والفنانين.

وفق الله إخواننا السودانيين ويسر لهم الإمكانات لإستغلال هذه المياه العذبة الوافرة والأمطار الغزيرة والأراضي الواسعة الخصبة فيما يعود بالخير والنفع والفائدة والرفاهية.

في تونس

في صباح يوم الجمعة الموافق ١٤٠٠/١/١٠هـ غادرت مطار الرياض متوجهًا إلى تونس البلد العربي الإسلامي الشقيق وهبطنا في مطاري جدة وطرابلس وواصلنا السفر بعد ذلك إلى تونس، وكنت أشاهد من الجو الشواطئ الجميلة المترامية والمزارع الواسعة والمراعي الخضراء والغابات الكثيفة، ولا شك أن موقعها وسط حوض البحر الأبيض المتوسط أضفى عليها ذلك الجمال والمناخ الطيب والثروات الطبيعية والأثرية، فكم نشأت على شواطئ هذا البحر من مدنيات وحضارات وماض زاخر بالعطاء والإبداع فقد استوطنها الفينيقيون والرومان قبل الفتوحات الإسلامية.. ولقد كان بجواري في المقعد أحد الإخوان التونسيين فسألته عن تونس وعن جامع الزيتونة وجامع عقبة وغيرها من الأماكن الأثرية القديمة التي ارتفع عليها صرح اللغة العربية والثقافة الإسلامية في تونس فاسترسلنا في الحديث مرددًا قول الشاعر العربي:

هات الحديث فإنني أصبوا إلى أنباء تونس من صميم القلب جدا

وقول القائل:

دريت حقا وما أدراك أني من حر اشتياقي إلى الخضراء في ضجر

هناك ما شئت من علم ومن أدب ومن حدائق تؤتي أطيب الثمر

فلقد استمر هذان الجامعان يخرجان للناس أكابر العلماء والفقهاء والمؤلفين كالإمام سحنون واللخمي وموسى بن عمران، المارزي وغيرهم. وأخذت مع محدثي نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب حتى قطع علينا الحديث صوت مضيف الطائرة منبئا بالاستعداد للهبوط وشاهدت المدنية من عل غارقة في الخضرة وترصعها البيوت البيضاء المختلفة الأحجام والأشكال إلى جانب منظر البحر ثم هبطنا في مطار قرطاج.

وبعد الإنتهاء من إجراءات المطار المعتادة توجهت صوب فندق البحيرة، وبعد الاستراحة وتأدية صلاتي الظهر والعصر جمعًا، خرجت من الفندق أتجول في

شوارع المدينة ووصلت في سيري إلى شوارعها الرئيسية كشارع الحبيب بورقيبة وشارع محمد الخامس وشارع الحرية، وكان في جيبي خريطة المدينة وكانت كبيرة ومصورة مما سهل لي الإنتقال والوصول إلى بعض الأماكن والميادين، وكان الطقس لطيفًا يغري بالنزهة ولكنه في اليوم الثاني غائمًا ومنذرًا بالمطر والبرد. وحينما كنت أتجول في المدينة أعجبتني متاجرها ومعروضاتها الحسنة التنسيق وشوارعها الفسيحة وعماراتها الشاهقة المتألقة بهندستها العربية الأندلسية ومقاهيها المتناثرة على الأرصفة، ومضيت متجولاً في المدينة حتى وصلت إلى المدينة القديمة فسألت عن جامع الزيتونة ومشيت وسط دروب وبيوت قديمة تحكي الماضي فذكرت قول الشاعر:

عيني ترى الماضي فتبكي له ياليت ماضينا هو الحاضر

وفي الطريق إلى الجامع توجد المتاجر التي تعج بمختلف أنواع البضائع والتحف والصناعات الأندلسية والتونسية، إلى جانب المكتبات التي تحفل بكتب التراث والثقافة المعاصرة إلى جانب البيوت الصغيرة المتراصة وسط دروب ضيقة وكلها مطلية بالدهان الأبيض فهي ناصعة من الخارج.

ووصلت الجامع وله ستة أبواب وبه ٣٥٧ عمودًا، ولكم قرأت عنه وسمعت حديث من زاروه ورأوا روعته وفيما كنت في الطريق إليه كان الخيال يزوق لي صورًا شتى حتى وصلت إلى باب الجامع فأخذت صورة الخيال تتضاءل شيئًا فشيئًا ليحل محلها الواقع وبعد أن صليت مع جموع المصلين صلاة المغرب قمت بالتجول وسط الجامع، ويعتبر آية في الفن المعماري والزخرفة الإسلامية ومجهز بالثريات مما زاده نورا وتألقًا حيث حلقات الدرس مما يذكر بماضيه حيث كان محط رجال طلاب العلم وخرج منه رجال يشار إليهم بالبنان في سعة العلم وتحقيق البحث وأخذ اسم هذا الجامع يتردد على الألسنة والآذان، ولقد بنى هذا الجامع في سنة ١٤٤هـ وبناه حسان بن النعمان ثم جرت

توسعته على يد الكثير من الخلفاء وقد كانت أرضيته التي أقيم عليها مملوءة بأشجار الزيتون، وفي اواخر أيام الحفصيين احتل الأسبان تونس ودخلوا الجامع بخيولهم ونهبوا الكتب وأحرقوها.

وخرجت من الجامع متجولاً في حي القصبة وسط أسواقه الضيقة ويسمى بالحي العربي ولقد شاهدت مجموعة من السياح من شتى الأجناس يشترون مختلف الهدايا والتحف التونسية ولا غرو فتعتبر تونس من الأقطار السياحية الغنية بالآثار التاريخية ففيها يشاهد المرء نماذج من الحضارة الإسلامية والبيزنطية والفينيقية فضلاً عن جمال الطبيعة واعتدال المناخ..

ثم قمت بزيارة للسفارة السعودية وللمكتب التعليمي السعودي ولقد سررت كثيراً بمشاهدة أفواج من الطلاب يرتادون مكتبته ويطالعون الكتب الموجودة فيه ويستفيدون من ذلك خلال كتابة بحوثهم، وبها عدد من الكتب والمؤلفات السعودية وقد أهديت لأمين المكتبة مجموعة من المؤلفات والكتب السعودية كما التقيت بالصديق الأستاذ/ محمد الرشيد الماجد وقد مكث في تونس سنوات عديدة وله صلات وصداقات بالكثير من العلماء والأدباء فأتاح لي فرصة اللقاء بعدد من العلماء والأدباء والمشتغلين بالتربية والتعليم فكانت لقاءات طيبة ذكرتني بأدباء تونس القدامى من أمثال المعز بن باديس والحسن بن رشيق والحصري وابن عبدون وعلي الحصري صاحب قصيدة:

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

وإذا ألقينا نظرة على المكتبة التونسية وجدناها تحفل بكتب ومؤلفات في مختلف ميادين العلم والأدب والشعر مما يدل على نهضة أدبية واعية، كما أن الصحف والمجلات تجسد نشاطًا أدبيًا وتساير النهضة الحديثة شكلاً وموضوعًا.

كما قمت بزيارة للمتحف والمكتبة وبوابات المدينة وبعض الآثار القديمة وخرجت للنزهة والاستجمام لضواحي العاصمة فوجدت مشاهد خلابة ومناظر طبيعية جميلة هادئة ومن تلك الضواحي:

حمام الأنف – سيدي أبو سعيد – حلق الوادي – الزهراء – رادس – المرسي –

بابل – زغوان – وقمرت وغيرها من البلدان والمنتزهات وحمامات والمصايف والمرافق السياحية.

وكلها تطل على البحر وبها فنادق ومطاعم وشواطيء جملية، وكان المطر ينزل خفيفًا حينئذ والسماء متلبدة بالغيوم فمضينا وسط غابات رائعة من الأشجار، وتوجهت بعد ذلك لزيارة مدينة سوسة ذات الشواطئ الجميلة ومنها إلى القيروان وخلال الطريق كنت أردد قول شاعرها عبدالرحمن بن زياد وقد عزم على العودة إليها من بغداد حيث يقول:

ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق

مسيرة أشهر للعير نصا وللخيل المضمرة العتاق

وتبعد مدينة القيروان عن تونس ١٦٠كيلاً وعلى امتداد الطريق الخضرة والأشجار والمناظر الطبيعية الخلابة.

وبعد أن وصلت القيروان تذكرت تاريخ هذه المدينة حتى طارت شهرتها في كل مكان نظرًا لما كان فيها من أئمة العلم والثقافة الإسلامية منذ الفتح للمغرب العربي، ولكم تتلمذ الكثير من أبنائها على الإمام مالك رحمه الله وسمعوا منه الحديث ورووا عنه مذهبه في الفقه وكثر القاصدون إلى هذه المدينة والآخذون عن علمائها وأدبائها من أبناء الأندلس والمغرب وافريقية.. ومازال جامع عقبة بعد صلاة المغرب يموج بحلقات الدرس والعلم ويؤمه طلاب العلم من نواح مختلفة مما يذكر بماضي علماء هذه المدينة، ورغم ما مر بهذه المدينة من أحداث وغارات أجنبية فقد بقي أبناؤها محافظين على عقيدتهم ودينهم وتراثهم.

ومن جامع عقبة ذهبت إلى جامع أبي زمعة البلوي ثم إلى سور المدينة القديم وموضع آبار المدينة التي كانوا يجلبون الماء منها ثم طفت في أسواقها ومازالت على طابعها القديم وتمتليء بالتحف والصناعات الأندلسية إلى جانب صناعة السجاد والغزل والنسيج، ولا غرو فأرض تونس الخضراء خصبة جدًا حيث يزرع الزيتون بكميات كبيرة وكذلك الحبوب والفواكه وأشجار النخيل وبساتين

الزيتون والكروم والليمون وهي اليوم مقصد السواح من كل أنحاء المعمورة.

أما مدينة القيروان فهي مدينة تاريخية تحتفظ بطابعها القديم وبتراثها العريق، وقد أسسها البطل العربي المسلم عقبة بن نافع رحمه الله، ولكم رددت وأنا أتجول في ربوعها وبين أحيائها قول شاعرها القديم:

فهل للقيروان وساكنيها عديل حين يفتخر الفخور
بلاد حشوها علم وحلم وإسلام ومعروف وخير
عراق الشام بغداد وهذي عراق الغرب بينهما كثير
بلاد خطها أصحاب بدر وتلك اختط ساحتها أمير

وبعد ذلك ودعت هذه المدينة الخالدة وأنا أحمل أسمى المشاعر الإسلامية الاخوية ورجعت للعاصمة ومنها ودعت تلك الربوع مردداً هذا القول:

فتؤنس تونس من زارها ويدركه أنسها حيث سار

في الجزائـــر

ندبت ضمن من ندب بعد استقلال الجزائر للإسهام في عملية التعريب وتدريس اللغة العربية وآدابها والتربية الإسلامية فلبيت النداء سعيداً بأن أكون مدرساً في تلك الربوع التي بقيت فترة طويلة ترزح تحت نير الاستعمار وغطرسته وحربه الضروس القاسية، وقد كانت أفئدة المسلمين جميعًا تشارك الجزائر في محنتها وبلوائها وعسرها وشدتها وما اعتراها من آلام في ساحات الجهاد وميادين القتال مدة قرن ونصف، وقد كان دافعي أن أشارك إخواننا الذين حاربوا الاستعمار لتبقى الجزائر عربية مسلمة جهد طاقتي وسعة معرفتي بل رأيت ذلك واجبا لا مندوحة عنه فاستجبت لثقة المسؤولين ورحلت للجزائر في شهر رجب ١٣٨٤هـ مع نفر من الإخوان، أمتلأت نفوسنا حماساً لهذه المهمة ورغبة في تأدية هذا الواجب وغادرنا الوطن الحبيب فمررنا بالقاهرة وبنغازي وتونس حتى وصلنا مطار الجزائر وقدمنا لموظفي الجوازات الأوراق مكتوبة باللغة العربية فقيل لنا لابد أن تكون مكتوبة باللغة الفرنسية فأخبرناهم بأننا لا نعرف الفرنسية ونحن قادمون إلى بلد عربي مسلم ضرب -أمثلة- في الكفاح للتخلص من الاستعمار ورفع لواء العربية وراية الإسلام وقد أعزكم الله بالنصر، وأخيراً أخذوا الأوراق وترجموها وكانت لغتهم العربية ركيكة وضعيفة ولعل هذا هو السبب في ذلك، وقد أبدوا أسفهم لذلك وكانوا على جانب من اللطف وحسن المجاملة، ثم توجهنا صوب مدينة الجزائر العاصمة وقد كنا أول بعثة عربية تصل إلى الجزائر من المشرق العربي بعد الاستقلال، وقد كان الحصول على فندق يضم أماكن لنا جميعًا معادلة صعبة فما من فندق يممنا إليه وجوهنا إلا وجدناه قد علق على بابه لافتة تقول بالفرنسية مشغول بالكامل غير أنّا لم نيأس فحاولنا أن نطرق شتى الأبواب وانتهت المحاولات بالحصول على فندق اتسع لنا جميعًا وهو ما كنا نتمناه وكان عددنا ستة أشخاص.

كانت الرحلة في عام ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م بعد استقلال الجزائر مباشرة.

ومدينة الجزائر مدينة كبيرة وتقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وعلى تل جبلي يطل بهامته الشامخة على البحر مما أضفى على المدينة روعة إلى جانب الغابات المحيطة بها والأسواق تمتلئ بالحركة والنشاط حيث المعارض التجارية. . ولقد أفاض الكثير من المؤرخين عن التاريخ القديم للجزائر كابن بطوطة وابن خلدون الذي كتب مقدمته المعروفة في الجزائر في مدينة تلمسان عام ٧٧٩هـ، وحسبي أن أذكر طرفًا مما شهدته فيها فمن أعظم أحيائها حي القصبة معقل المجاهدين فتذكرت خلال طوافي بين أرجائه جلادهم وصمودهم لطرد المستعمر عن ديارهم وتضحيتهم، والجامع الكبير الذي التقينا فيه بمجموعة من العلماء الذين فرحوا بنا وقالوا نحن لا نعتبركم أجانب في بلادنا بل إخوان كرام فقلت: وما عددنا أنفسنا غرباء في هذه الديار الإسلامية، ولكم سررت حينما رأيت الجامع يموج بالمصلين ثم توجهنا بعد ذلك لزيارة السفارة السعودية ووزارة التربية والتعليم حيث ألتقينا بالمسؤولين فيها فوجدنا منهم كل ترحيب ومودة وسرور بمجيئنا للمشاركة في عملية التعريب واعتبروا ذلك تقديرًا وشعورًا أخويًا رفيعًا وعرضوا علينا العمل في عدة مدن فاخترنا وهران المدينة الثانية والثغر الباسم الجميل، فتوجهنا إلى هناك بواسطة القطار بين الوهاد والنجاد والمناظر والمياه والأشجار حتى بلغنا وهران على شاطيء البحر، ولقد أنسانا التعب والمشقة تجدد المناظر ومرأى المزارع والأودية والبساتين وأشجار العنب والغابات على سفوح الجبال ومررنا بقرى ومدن كثيرة ورددت هذا البيت:

وردت وهران ملتاعا ومغتبطا تطغى بنفسي آمال وأفكار

ولقد أمضيت في الجزائر عامين دراسيين أسعداني بالتعرف على الكثير من مدنها وآثارها ومعالمها وتاريخها وعلمائها ومخالطة الطلاب والأساتذة مخالطة اخوة ومودة وتقدير، وطوفت في الكثير من القرى والبلدان وما أحسسنا بالاغتراب ومازلت أحتفظ بذهني بالذكريات المتنوعة التي بقيت عالقة في النفس، ولله تلك الأيام وما تخللها من رحلات وجولات وجلسات على شاطئ البحر والبحيرات ووسط الأشجار والأعشاب، ورغم ما مر بهم من المحن والشدائد من قبل الاستعمار فمازالت الروح الإسلامية والأخلاق العربية الكريمة تغلب عليهم،

وبعد فللجزائر من موقعها وثروتها وخيراتها ما يضمن لها المستقبل الكريم الزاهر بتوفيق الله وما أصدق قول الشاعر:

إذا أردت مـــــلأت العين من بلد مـستـحسن وزمـان يشبـه البلدا

يمسى السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا

ولقد سعدت كثيراً حينما كنت أسير في شوارع الجزائر ووهران وتلمسان وعنابه وغيرها من البلدان فرأيت الأسماء العربية الإسلامية وأسماء الشخصيات الجزائرية المجاهدة ممن كان لهم دور إيجابي في تاريخ الجزائر مثل عبدالحميد بن باديس والأمير عبدالقادر الجزائري والإبراهيمي وغيرهم، وهكذا زالت أسماء الاستعمار واختفى الحرف اللاتيني حيث كانت اللغة واسماء الشوارع والميادين فرنسية وظهرت الاسماء الإسلامية والعربية في ثوبها الجديد وبخط عربي أنيق وبذلك تغير الكثير من المعالم والقوالب واستعادت الكثير من مقوماتها العربية والإسلامية فقد كنا نقرأ ونسمع على الدوام بتعريب نواحي الحياة العامة في البلاد وتثبيت اللغة العربية في مختلف القطاعات ورحم الله ابن باديس القائل:

شـــعب الجـــزائر مـــسلم وإلى العـــروبة ينتـــسب

من قـــال حـــاد عن أصله فـقـد افـتـرى ولـقـد كـذب

حقق الله الآمال ووفق الجميع..

في المغـــرب

في يوم الإثنين الوافق ١٣/١٢/١٤٠٠هـ، توجهت للمغرب بعد زيارة لتونس على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية التونسية وقد أقلعت بنا الطائرة في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات، ولقد كنا نشاهد من عل جبال الأطلس حيث تكسوها الثلوج ثم هبطنا في مطار الدار البيضاء العاصمة الاقتصادية للمغرب وهي أكبر مدن المغرب قاطبة.. ولم تكن هذه هي الزيارة الأولى للمغرب فقد زرته منذ سنوات حينما كنت مدرسًا في الجزائر وكانت رحلاتي للمغرب في فصل الشتاء ونزول الأمطار وهبوب الرياح الباردة..

ووصلنا إلى مطار محمد الخامس بعد الظهر وخرجت من المطار وإذا بأحد السائقين يأخذ حقيبتي والتفت إليّ سائلاً: أين تحب أن تنزل؟ فقلت له: لا تسألني اذهب بي إلى أي فندق في قلب المدينة فإن طاب لي المقام به مكثت فيه وإذا لم يكن أنتقل إلى غيره خاصة أن ليس معي من الأمتعة أو الحقائب ما يثقلني أو يعوق تحركي، فانطلق بسيارته حتى وقف بي عند فندقين أحدهما يدعى المنصور والآخر مرحبًا فقلت له: فلنذهب إلى هذا الذي يرحب بنا وعسى أن يكون الاسم مطابقًا للواقع.

وبعد استراحة قليلة في الفندق خرجت متجولاً في قلب المدينة وكانت الشوارع مكتظة بالمشاة والسيارات كما أن المقاهي مليئة بالرواد ودلفت إلى إحدى المقاهي الواقعة في شارع محمد الخامس فاحتسيت شايًا أخضرًا مغربيًا وتعرفت خلال تلك الجلسة على أحد الأساتذة المغاربة وكان على جانب من العلم والأدب فتجاذبنا أطراف الحديث عن المغرب والأندلس وإيراد الشواهد العربية من الشعر والأمثال وعن العادات والتقاليد في المغرب حتى أنساني متاعب السفر والإغتراب، فالأحاديث الأدبية واللغوية العذبة الجميلة جعلتني أسترد الذكريات فتحدثنا عن تاريخ قرطبة وغرناطة والقيروان وفاس ومراكش وعلمائها وأدبائها فمضى الوقت ودعاني لزيارة دارته في ضواحي المدينة ولكني اعتذرت حيث سأذهب غدًا إلى الرباط وفاس وعدت إلى الفندق فوجدت بعض الإخوان السعوديين

وبقيت معهم في بهو الفندق حيث دارت الأحاديث الشيقة وطاب السمر، ولم نتمكن من الخروج حيث بدأ المطر يهطل والسحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع في الجو.

وفي الصباح قمت بجولة على ضواحي المدينة وعلى شاطئ البحر حيث المناظر والدارات الجميلة تتناثر على جانبي الطريق، وأينما سرحت النظر يقع على مناظر طبيعية خلابه وقد طليت أغلب البيوت والفنادق بالدهان الأبيض مما يصدق عليها هذا القول:

صدق الذي سماك بالبيضاء ... من أجل مالك من يد بيضاء

إن البياض لنصف حسن ذوي البهاء ... وبياض حسنك حاز كل بهاء

وحينما كنت أطوف في شوارع وميادين الدار البيضاء كان المطر يهطل والبرق يلمع فذكرت قول الأعرابي:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو ذرى البيضاء ذكرتني نجدا

ألم تر أن الليل يقصر طوله ... بنجد وتزداد الرياح به بردا

حقًا إن الصلات بين المشرق والمغرب دينية وتاريخية قديمة وثيقة على الدوام وتزداد مع الأيام تبلورًا وتفاعلاً ورسوخًا.

وفي المغرب الشقيق ووسط أجواء الأمطار المتواصلة تذكرت بلادنا ومرابعها وسألت الله أن ينعم بالغيث والمطر، فغزارة الأمطار تجعل من تلك الربوع أرضًا خضراء مزدانة بأنواع الزهور الطبيعية المختلفة الألوان.

جولة في الأحياء القديمة:

قمت بجولة في الأحياء القديمة في المدينة وبها حركة ونشاط تجاري كما زرت المتحف الوطني وتجولت في الأسواق الخاصة بالتحف والتراث الشعبي، وحينما كنت أتجول في تلك الأسواق رجعت بذاكرتي إلى الأيام التي زرت فيها هذه الأماكن منذ خمسة عشر عامًا حيث طافت بذهني بعض الصور والذكريات.

وفي المساء قمت بجولة على بعض المكتبات الموجودة في قلب المدينة فوجدت اهتماماً وإقبالاً على نشر كتب التراث والتاريخ الإسلامي.

وفي الصباح توجهت للرباط على سيارة خاصة وكان الجو بديعاً إذ كان غائماً والمطر يهطل رذاذا، وكانت المناظر رائعة حقًا فالأشجار والمزارع والبساتين منتشرة في كل مكان والأرض كأنها بساط سندسي، وقد استمرت الرحلة ساعة ونصفا وصلت بعدها إلى العاصمة وعلى الرغم من حاجتى إلى الراحة فلم استطع مقاومة الرغبة في التجول في المدينة فخرجت بعد استراحة قصيرة في فندق حسان إلى التجول على قدميّ ومشاهدة شوارعها وميادينها ومتاجرها وعدت للفندق بعد ذلك، وقبيل غروب الشمس بقليل استأجرت سيارة تجولت فيها على نواح متفرقة من الرباط الحديثة والقديمة، ولكم رددت قول أحد شعرائها حينما كنت أطوف بين ميادينها ومعالمها كقول الشاعر:

رباط الفتح مأوى الفاتحينا بدارته يطوف الناس حينا

إلى المنصور نسبته وأعظم به نسبا يزكي الناسبينا

وفي اليوم الثاني قمت بزيارة لبعض المؤسسات العلمية ومكتب تنسيق التعريب، ومكتب الملحق الثقافي ثم خرجت قاصداً مدينة فاس عاصمة المغرب العلمية وهي من أهم المدن التاريخية القديمة وتعتبر مركزًا إسلاميًا وثقافيًا هامًا حيث كانت مركزًا لدراسة العلوم الشرعية وقد تخرج فيها كثير من علماء المسلمين وكانت ذات مكانة رفيعة، وما إن قاربنا فاس حتى شاهدت البساتين والمزارع وكأنها روابي خضراء..

وبعد جولة في المدينة القديمة ذهبت لجامع القرويين وأديت صلاة الظهر وقد امتلأ الجامع بالمصلين وكان مفروشًا بالحصر الجميلة، وفي الجامع التقيت ببعض الإخوان المغاربة من رجال العلم الذين أخذوا يضفون علينا من كرمهم بالدعوة إلى تناول القهوة في منازلهم فاعتذرت لهم شاكرًا حيث كان الوقت ضيقا وكنت حريصًا على أن أرى شيئًا من معالم المدينة وزيارة بعض المكتبات والاطلاع على بعض المخطوطات في إحدى مكتبات المدينة القديمة.. ولقد تأثرت من قوة

الرابطة الروحية الاخوية التي تجعل أولئك الإخوة يشعرون نحونا على بعد الدار بالمحبة والمودة ولا غرو فوشائج الدين واللغة والتاريخ المشترك لها تأثيرها وفعاليتها، فمنذ سطع النور على هذه الأرض وأشرق ضوء الإسلام تحرر المغرب العربي من ربقة وسلطة الرومان الذين بسطوا نفوذهم عليه طويلا فانتظم في أمة واحدة دينها الإسلام ولسانها العربية وحاكمها القرآن وبقى شامخًا شموخ المنارة الرفيعة منذ الخلافة الإسلامية التي أنقذته من سلطان الرومان، ولكم قلت للكثيرين ممن أتيح لي اللقاء بهم حينما جمعني مجلس في دور بعض الإخوان التونسيين والمغاربة وفي أحاديثنا انجر الكلام إلى أن استحضارنا دائمًا لما صنعه أسلافنا من تاريخ مشرف وأمجاد عظيمة وتراث عريق يجعلنا نستحضر تلك المعاني ونتمثلها ونستوعب مضامينها بحيث تحفزنا دائمًا إلى أن ننهج منهج الأسلاف ونكون في مستوى ما كانوا من سمو المكانة وعلو المنزلة وعظم المجد وكريم التعاون والوعي لطبيعة التحديات التي تواجهنا وترمي إلى إعاقة مسيرتنا.. كما تناقشت مع بعض الإخوة عن اللهجات العامية المغربية التي سمعتها والتي تختلف من منطقة إلى أخرى وتأثرها ببعض اللغات المجاورة كالفرنسية والاسبانية فضلاً عن البربرية حيث انتقلت إليها مفردات كثيرة من هذه اللغات والواقع أن اللهجات العامية في المغرب العربي ليس من السهل على العربي المشرقي أن يفهمها ويعرفها. ولذا فإن هذه اللهجات هي خطر يتهدد اللغة العربية الفصحى فهل يدرك ذلك دعاة العامية الذين تارة يدعون إلى الكتابة بالحروف اللاتينية وتارة إلى العامية، ويدعون إلى إسقاط الإعراب والفصحى؟. حقا إن الحديث عن موضوع الفصحى والعامية حديث ذو شجون بله يهيج الشجون على حد تعبير الشاعر العربي القديم:

وحدّثني يا سعد عنهم فهجت لي شجوني فزدني من حديثك يا سعد

ولا أريد أن استطرد في هذا الموضوع فقد كتبت فيه مرارا وتحدثت عنه في أكثر من مناسبة. وما أصدق قول الشاعر:

من يعرف الشمس لم ينكر مطالعها أو يبصر الخيل لا يستكرم الرمكا

وقول الآخر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويـنكـر الفـم طـعـم المـاء من ســـقـم

وإنكار الفصحى بمثابة إنكار الأمر المحس المشاهد:

ولـيـس يـصـح فـي الأذهـان شـيء إذا احـــتـــاج الـنـهـــار إلـى دلـيـل

إن حفظة اللغة أفرادًا ومجمعيين قد أبلوا بلاء حسنا في ميدان مقاومة العامي والدخيل من كلمات الحياة العامة وابتداع ألفاظ فصاح تحل محل الألفاظ العامية والأعجمية بما في ذلك مسميات ومصطلحات الحضارة وأدواتها ومعانيها.

ومن فاس توجهت صوب مكناس لإلقاء نظرة عجلى عليها ولعل خير وصف لهذه المدينة الجميلة هذه الأبيات:

يـا رائـدًا لـلـروض والإيـنـاس عـــرج لـشـم الـزهـر فـي مـكـنـاس

بلد حـــبـــاه الـلـه كـل لـطـافـــة وحـــمـــاه من كـــدر ومـن أدنـاس

وذهبت إلى مـراكش عـروس الجنوب ذات التـاريخ وعـاصمـة المرابطين وكـان لها إمـتـداد ومكانة واستقر بها الـقائد يوسف بن تـاشفين الذي كـان له دور كبير في هزيمة الأسبان ولقبه أهل وطنه بأمير المؤمنين وسماه أعداؤه قائد الملثمين عندما فتح غرناطة وقرطبة فهو الذي أسس مـراكش في القرن الخامس الهجري، لقد كانت واحدة من أعظم مدن المغرب الإسلامي وما زالت باقية إلى اليوم مدينة جميلة حافلة بالأثار والمعالم والميادين والمساجد والمكتبات الـتي تحكي تاريخ المرابطين والموحدين والسعديين، إنها مدينة زاخرة بالحيوية والنشاط والعمل وأسواقها عامرة بالتحف والمقتنيات والصناعات الجلدية والخشبية والمعدنية والحريرية والمشاهد المتنوعة الجميلة وواحات النخيل التي تحف بالمدينة وجبال أطلس الشامخة التي تطل عليها من الجنوب وقمت بجولة في حدائقها ومعالمها التاريخية والحديثة وهي اليوم مدينة سياحية.

خلال وجودي في المغرب وزيارة بعض المكتبات اطلعت على مجموعة من

الكتب والدواوين الشعرية لبعض أدباء وشعراء المغرب فوجدت أدبًا يجمع بين القديم والحديث في المعاني والمقاصد والأهداف ومعايشة الواقع الحضاري إلى جانب ما قرأته لبعض الشعراء من شعر رصين يضاهي شعراء المشرق، ويمتاز بصفاء القول وسمو الخيال وعراقة الماضي وابتكار الحاضر.. ولقد تحدثت مع أحد المسؤولين عن دور النشر والمكتبات عن عدم تسويق هذه الدواوين والكتب إلى المشرق ليتيسر للقارئين والباحثين الاطلاع على هذه الآثار ودراستها وفهم أدب المغرب فذكر لي عدة ظروف كعدم وجود موزعين وقلة الإمكانات وما إلى ذلك وقدم لي أكثر من قائمة تضم مجموعة من الكتب والدواوين مما يدل على أن الأدب يحظى باهتمام ويتبوأ مكانة طيبة، ولقد اطلعت على مجموعة من الصحف والمجلات فوجدتها تحفل بنشاط أدبي وتساير التطور الحديث شكلاً وموضوعًا.

وبعد تمضية بضعة أيام في ربوع المغرب الحافل بالآثار والأمجاد العربية الإسلامية حيث مر تاريخه بحقب وعصور وأسهم في نشر الإسلام في القارة الإفريقية وجنوب أوروبا وعني علماؤه بإثراء اللغة العربية بروائع البيان وحافظوا على شخصيته التاريخية المتميّزة وتقاليده العريقة والجمع بين جمال وعراقة الماضي وبهاء الحاضر.

وبعد تمضية أيام حافلة بالفائدة والمتعة، ودعت تلك الربوع والديار.

في لنـــدن

في يوم ١٣٩٤/٧/١٥هـ، غادرت مطار شيكاغو إلى لندن وبعد رحلة استمرت أكثر من تسع ساعات من الطيران هبطت الطائرة في مطار لندن وبعد الانتهاء من إجراءات الدخول المعتادة قصدت مدينة لندن وأويت إلى أحد الفنادق في قلب المدينة.. ولقد كان الطقس في لندن لطيفًا يغري بالنزهة رغم أنه غائم وينذر بالمطر، وبعد استراحة قصيرة خرجت من الفندق أتجول في شوارع المدينة وبين جنباتها ومتاجرها، ومدينة لندن من أكبر العراصم الأوروبية وأكثرها ازدحامًا بحركة السير والسياحة ومتاجرها غاصة بالسلع المختلفة، ولعل شارع اكسفورد هو أشهر منطقة للتسوق في لندن وكذلك البيكاديلي وريجنت وباكر وغيرها من المناطق والشوارع ذات الحركة والنشاط والأزدهار والعمارات الشاهقة والقصور البراقة. ولكم كتب الرحالة والمؤرخون عن هذه المدينة فقد كانت عاصمة الدنيا وتوالت عليها صور من الأمجاد والماضي العريق وبقيت الآن حروفاً في سطور.

وفي اليوم الثاني توجهت لحديقة هايدبارك أشهر المتنزهات حيث زانها الربيع نضرة وزينة وجمالاً، وكانت مليئة بأفواج من الناس من مختلف الجنسيات.. والأوروبيون بصفة عامة يستمتعون بالربيع ويبتهجون به لأن الشتاء في أوروبا هم ثقيل وبرد قارس وغيوم وأمطار وثلوج كما أن الغمام المتراكم يسد الآفاق والثلج المتراكم يملأ الطرقات فهم في شوق دائم وحنين متواصل إلى الربيع فهو حيوية وحياة وحركة بعد انقباض وكآبة، فالربيع تجديد في حياتهم ونشاط لهم فالربيع والشمس والدفء أمور حيوية في حياة أوربا وغيرها من البلدان التي هي شبيهة بمناخها بعكس بلادنا التي أنعم الله عليها بالشمس المشرقة طوال العام حتى ألفتها النفوس لأنها لا تنقطع وفي ذلك حكمة.. ولذا فلم يحفل الأدب العربي بروائع قصائد الشعر في الشمس والدفء.

وفي هذه الحديقة شاهدت ألوانا شتى من الأجناس واللغات وغرائب العادات وطرائف التصرفات وطبائع الشعوب المختلفة والأصوات المتعددة حيث ترتفع

الأصوات المتعددة في النقاش ويغلظ القول ويزداد صلابة وقوة وخشونة، ولقد تذكرت قول إمام البيان الجاحظ حينما قال في الأعراب: إنما خشنت أصواتهم لمخاطبتهم الأبل، ولكن القوم الذين شاهدتهم لا أتصور أن أحدًا منهم قد خالط الإبل بل وحتى شاهدها، ولقد شاهدت شابا عربيًا يتحدث عن قضية فلسطين ولم يكن ينصت إليه إلا بضعة رجال فتذكرت قول شاعرنا العربي:

قد طال نظمي للأشعار مقتدرًا والقوم في غفلة عني وعن شأني

هذي المعاني تناجيهم فمالهم لا ينصتون بأفهام وأذهان

وإن لندن لمدينة كبيرة وهي ذات تاريخ قديم فهي قد أسست قبل الميلاد بـ ٤٣ عامًا عندما شيد الرومان قلعة صغيرة على ضفاف نهر التايمز، والتاريخ يسجل أحداثًا درامية ورهيبة مرت بها هذه المدينة. وفي هذا العصر تغيرت واتسعت وأصبحت اليوم مدينة سياحية ومركزًا للمال والتجارة ورجال الأعمال نظرًا لضخامتها واتساعها وموقعها، وحديقة «هايد بارك» تعتبر من أجمل المتنزهات التي تقع غرب لندن ولقد كانت في الماضي حديقة صيد تابعة للملك هنري الثامن والمعروف بسفاح النساء، ويرتاد هذا المتنزه مئات بل آلاف من الناس حيث يمضي الجميع وقتًا ممتعًا وبهيجًا حيث المناظر المتعددة والمشاهد المتنوعة والخطباء من مختلف الأشكال والأجناس وحيث الحلقات التي تتجمع فيها أعداد من الناس وذلك من العلامات البارزة في هذا المكان.. وفي هذه الحديقة يلتقي المرء بأعداد كبيرة من السياح وإلى جانب ذلك توجد الكتب المعروضة والصحف والمجلات وألعاب الأطفال إلى جانب البحيرة الجميلة بزوارقها اللطيفة حيث تؤجر للراغبين.. وبعد التجوال في جنبات هذه الحديقة التقيت بمجموعات كبيرة من الإخوان العرب واقترح أحد الأخوة أن نبتعد قليلا عن قلب لندن وضوضائها وأن نذهب في رحلة نهرية نروّح بها عن نفوسنا ونشاهد خلالها الكثير من معالم لندن من على ظهر قارب آلي في نهر التايمز، فاستغرقت رحلتنا بضع ساعات تمكنا خلالها من مشاهدة بعض المناظر العامة لمدينة لندن وسهولها وهضابها ومرتفعاتها وقصورها التاريخية وعماراتها العالية وفنادقها الفخمة وساعتها الشهيرة ومتاجرها الأنيقة. وفي يوم آخر قمت بزيارة لبعض متاحفها إذ أنها تحوي

أصنافًا شتى من المتاحف العلمية والجيولوجية والزراعية والبحرية والتاريخية.

وخلال زيارتنا لمتحف لندن شاهدت ألوانًا شتى من المعروضات فهو يطلع الزائر على تاريخ لندن منذ القدم إلى عصرنا الحاضر وقد كان المبنى من القصور الملكية القديمة كما قمت بجولة سياحية ليلية ومشاهدة الحي التجاري النابض بالحياة وكذا المرافق السياحية وجمال الطبيعة.

وذهبت بعد ذلك لحديقة لندن للحيوانات وهي حديقة واسعة الأرجاء وتحتوي على أصناف الحيوانات المشهورة في العالم، وقد أخبرنا المرشد إلى أنه يوجد بها أكثر من ٨٠٠٠ حيوان من شتى أرجاء العالم، وبعد التجوال الطويل قصدنا المطعم للاستراحة به وتناول طعام الغداء. حقًا إن لندن لمدينة ساحرة صاخبة تضم شتى الأجناس والبشر.

ثم خرجت في رحلة إلى الريف الإنجليزي حيث الهدوء والجمال والمناظر الخلابة والنسيم العليل والمناخ الجميل والشاطئ البديع والرياض الغناء والسفوح الخضر الجميلة، والهضاب والمزارع وا القرى المتناثرة والحدائق الجميلة.

وبعد تمضية عدة أيام في لندن غادرتها والنفس مفعمة بشتى الانطباعات والذكريات الجميلة.

في مكتبة المتحف البريطاني

المكتبات في كل أمة عنوان وعيها ودليل رقيها وتطورها، كما أنها مقياس لتقدم تلك البلاد ونهوضها إذ هي من أهم ركائز المعرفة ودعامات العلم، فهي زاد لا ينضب تتحف القارئ والباحث والطالب والمعلم ورواد العلم والآداب والفنون بروافد ثرة وينابيع متدفقة من الفوائد والمعارف والعلوم.. ولقد أتيح لي خلال وجودي في لندن زيارة مكتبة المتحف البريطاني في لندن، وهي من أكبر المكتبات في العالم وأحفلها ولها من الشهرة والمكانة مما هو معروف لدى الباحثين والدارسين، وعند الباب الداخلي وجدت خارطة توضح أقسام المتحف المتعددة وعند الدخول للمكتبة يحتاج الإنسان إلى المرور بمكتب الأمين العام لتعبئة بعض النماذج والأوراق وذلك للحصول على بطاقة تعطيك حق الدخول إلى المكتبة مع تحديد الأيام التي تحتاج إليها في ارتياد المكتبة. ولقد رأيت العديد من رجال العلم والمعرفة والباحثين والدارسين قد جاءوا من مختلف البلدان وشتى الجامعات ومراكز البحوث وغيرهم من الطلاب الذين يحضرون الرسائل العلمية..

وفي هذه المكتبة تشاهد أصنافا شتى من الناس، وبعد استكمال إجراءات الدخول وزعوا علينا مجموعة من النشرات تحمل بعض الملاحظات للقراء والزائرين عن كيفية استخدام غرفة القراءة وقاعة المكتبة والتنظيمات التي تحكم السلوك العام داخل الغرف وكيفية الحصول على الكتب وطريقة إعادتها في نهاية اليوم. وفي حالة الرغبة في الاحتفاظ بالكتاب في اليوم الثاني فلابد من كتابة الاسم على ورقة صغيرة موجودة مع الكتاب حتى تتمكن من الحصول عليه غدا بيسر وسهولة، ومتى أراد القارئ حجز كتاب لليوم التالي فلابد من إعطاء الاسم ورقم المقعد حتى يصل إليه الكتاب.. أما الوثائق والخرائط فيوجد لها دليل خاص وللحصول على ما يريد الباحث فلابد من الاستعانة بأحد المرشدين في المكتبة. أما المراجع العلمية فهي موجودة بجوار المقصورات المعزولة صوتيًا في داخل المكتبة..

أما القراء الذين يرغبون في استخدام المايكروفيلم أو المايكروميشات أو المياكرو كارد فإن عليهم أن يتقدموا بطلباتهم إلى الموظف المختص بقاعة المكتبة ومن ثم تقديم ما يطلبه القارئ بسرعة وسهولة..

وفي هذه المكتبة تتم الخدمات الإعلامية باستخدام الحاسب الآلي فيمكن للقارئ

الحصول على المعلومات التي يحتاجها من معرفة بقوائم الكتب أو الحصول على مقالات وبحوث حول موضوعات معينة..

كل ذلك يتم بطريقة معينة عن طريق الحاسب الاليكتروني وفي مقابل بعض الرسوم لتلك الخدمات.

وفي قاعة المطالعة شاهدت مئات المجلدات التي تشتمل على قوائم الكتب المقيدة لدى المكتبة وهي مرتبة ترتيباً أبجدياً تحت رؤوس موضوعات، ولقد لاحظت أن أغلبها منذ عام ١٨٨١م إلى ١٩٦٠م أما الكتب الأخرى فهي مدونة على شريط في الفترة من عام ١٩٦١م إلى ١٩٧٥م كما يوجد شريط يحتوي على جميع الكتب والمراجع التي اقتنتها المكتبة منذ عام ١٩٧١م إلى ١٩٧٥م.

وخلال زيارتي للمتحف توجهت لزيارة القسم الشرقي من مكتبة المتحف وهناك التقيت بمدير القسم العربي الدكتور ياسين الصفدي فأخبرته برغبتي بالاطلاع على قوائم الكتب العربية المطبوعة الموجودة لديهم وكذا المخطوطات العربية فيسر لي الاطلاع على بعض الكتب والمخطوطات العربية ولقد اطلعت على فهرس الكتب العربية الموجودة في المتحف.. ثم تحدثنا عن الكتب العربية والمؤلفات والمخطوطات وعن الاستشراق والمستشرقين ودورهم في نشر التراث واطلعت على بعض المخطوطات ومن ذلك كتاب لأحد المستشرقين بعنوان «يوميات من ينبع إلى القطيف» وهذا الكتاب في طريقه لأحد الناشرين في الكويت وأبي كرم الأستاذ الصفدي إلا أن نتناول معه الغداء فكان لقاء في أحد المطاعم المجاورة للمكتبة الشرقية فكانت فرصة أخرى للحديث عن المكتبة العربية والمخطوطات وعن جهود الناشرين لكتب التراث وعن المكتبة الشرقية وما تقدمه من تسهيلات للباحثين وتحدثت عن أهمية العناية بهذه المخطوطات ووضع فهارس شاملة لها وتوزيعها على المهتمين بذلك ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات.. وغير ذلك من الأمور العلمية مما يتصل بالوثائق والمخطوطات.

إن القسم العربي في المكتبة يحتوي على أكثر من مائتي ألف مطبوع وحوالي عشرة آلاف مخطوطة وغير ذلك من الوثائق.

ورغم الساعات الطويلة التي أمضيتها في رحاب المتحف البريطاني وقاعاته المختلفة التي تحتوي على بعض الآثار والمقتنيات الشرقية والرومانية وكذا بعض الرسوم الفنية فلم أتمكن من مشاهدة ورؤية الكثير مما يشتمل على المتحف.. وخرجت وأنا أحمل شتى الانطباعات وأجمل الذكريات وهي جديرة أن تذكر في سجل أوائل المكتبات..

في فرنســـــا

منذ سنوات والنفس تحدثني بزيارة فرنسا والتعرف على معالمها والوقوف على آثارها ومدنها، إذ هي بلاد حضارة وتاريخ وفن واعلام وآثار كلها تستحق من زائرها الوقوف والتأمل والعبرة والاستنتاج. ومن مطار الرياض أقلعت بنا الطائرة مساء اليوم الموافق ١٤٠٣/١٢/١٧هـ حيث انطلقت بنا طائرة البوينج السعودية من الرياض إلى باريس في الساعة الواحدة والنصف ليلا بالتوقيت الزوالي، وقد أعلن المضيف وهو شاب سعودي لطيف أن الرحلة سوف تستغرق خمس ساعات ونصفًا وسنطير على ارتفاع ٣٢ ألف قدم، ثم انطلقت الطائرة في يسر وسهولة وتجاوزنا عتبة مدينة الرياض وكنا نشاهد الأنوار المتلألئة ولم نتمكن من رؤية سواها حيث نحن في سواد الليل. لقد كنت أحرص دائمًا على أن يكون مقعدي بقرب النافذة حتى أرى الأرض ومعالم الطريق والسحب والبرق والمطر والهضاب والجبال ولكن هذه المرة لم أجد مكانًا مناسبًا وعندما سألت المضيفة قالت: إن هذا المكان الذي تجلس فيه خير مكان، وبعد أن جلست في مكاني صافحت الجالس بجواري وإذا به السفير السعودي في الدنمارك حيث عرفني بنفسه وبعد التحية والترحيب قال لي: آمل ألا تكون متضايقًا من هذا المقعد لأني رأيتك في حوار مع المضيفين والمضيفات فهذا المكان خير مكان وأحرص على حجزه باستمرار، فكانت فرصة طيبة للحديث مع الأخ الأستاذ عبدالله بن عبدالرحمن الطبيشي والسفر بطبيعته يفرض على المسافرين التعارف ويذيب الحواجز.

وبدأنا الحديث بالسؤال عن ذكريات والده باعتباره أحد رجال الملك عبدالعزيز ومعاصريه ثم تشعب الحديث وجرى في أمور كثيرة على حد قول الشاعر كثير عزة:

أخـــذنا بأطراف الأحـــاديث بيننا ... وســـألت بأعناق المطي الأباطح

وشدت على دهم «البونج» رحالنا ... ولم ينظر الغـــادي الذي هو رائح

ولكن الرفقة لم تدم طويلاً حيث افترقنا في مطار باريس حيث واصل سفره

إلى مقر عمله، نزلنا في مطار باريس بعد ساعات من الطيران وتوجهت صوب مقصورة الجوازات حيث أن موظف الجوازات داخل مقصورته الزجاجية وفي دقائق أنهينا الإجراءات وأخذ كل منا حقيبته دون تفتيش أو سؤال عن محتويات الحقيبة والعملة وغيرها مما نواجهه في بعض المطارات حيث جرى ذلك في يسر وسهولة وقد رأيت المطار في غاية الضخامة والروعة والتنظيم.

لم أتمكن من الحجز قبل قدومي إلى باريس في أحد الفنادق، وكان معي دليل الفنادق في باريس ومن مكتب الخطوط السعودية في المطار اتصلت بعشرات الفنادق وكانت الإجابة لا يوجد مكان خال ثم توجهت لمكتب الاستعلامات في المطار فأخذ يتصل بعدد من الفنادق فلم يجدوا مكانا خاليا، وكانت الساعة الثامنة صباحاً وسألتهم: وما السبب في ذلك؟ فقالوا: إن هذا الشهر بالذات يندر أن تجد مكانًا دون حجز مسبق فشهر سبتمبر بالذات تكثر فيه الاجازات وهو شهر السياحة وكما أن المعارض التي تقام هذه الأيام ساعدت على هذا الأزدحام، وشعرت بالصدفة وبأني وقعت فيما لم أكترث به ثم قلت: الصبر مفتاح الفرج. عجبا مدينة سكانها عشرة ملايين تضيق بي اليوم ولم يخفف من شعوري بالصدمة ولا من عتبي على نفسي بعدم الحجز المسبق حيث أقبل علي شابان سعوديان كانا من ضمن الرحلة فقالا: تفضل معنا فلدينا حجز في فندق «المريديان» وما يسعنا يسعك والكثير يتعرض لمثل ما تعرضت له ولكن عندما يذهب الإنسان إلى الفندق يجد به مكانًا، فامتطينا إحدى سيارات الأجرة وقد كان المطار بعيداً عن المدينة وقد كانت الخضرة والأشجار تضفي على الطريق جمالاً مردداً قول القائل:

نزلنا بها واستوقفتنا محاسن. فنحن في عاصمة الفنون والآداب والعطور والموضات.

وكان سائق السيارة شابًا عربيًا مغربيًا وقد كان الجو باردًا والسماء مكسوة بالسحب والمطر يتساقط رذاذًا، ثم لاحت لنا مدينة باريس بجمالها وروعتها ومناظرها ورأينا نهر السين الذي يخترق المدينة واجتزنا العديد من الجسور حتى وصلنا إلى فندق «المريديان» وقبيل الوصول إلى موظف الاستعلامات قال لنا أحد الواقفين: لا يوجد مكان خال، وكان الفندق يغص بالناس عصبة من الأمم

من شتى الأجناس، فاتجهنا صوب المسؤول عن الحجز وناوله أحد الإخوان ورقة الحجز فقال: نأسف حيث لا يوجد مكان وعليكم مراجعتنا غداً فربما يوجد مكان.. فوضعنا حقائبنا وخرجنا نبحث عن فندق آخر. وكانت المدينة نائمة فلم نجد في الشوارع سوى العاملين في تنظيف الشوارع حيث يغسلونها صباحاً، وقد كنا في حاجة شديدة إلى الراحة حيث لم ننم طوال الليل ولكن أين الفندق الذي نجد فيه سكناً؟ فتجولنا في عشرات الفنادق من ذوات النجوم الكثيرة والصغيرة فلم نعثر على مكان إلا بعد أسبوع فرجعنا إلى الفندق الذي تركنا فيه أمتعتنا وإذا بقسم الحجز يخبرنا بأن هناك بعض القاطنين في الفندق أبلغوه بسفرهم فناولنا بطاقات لتعبئتها وطلب منا الانتظار حتى تهيأ المكان.

لقد كان هذا الفندق على درجة ممتازة من الضخامة والجمال، وكان العاملون به على حالة حسنة من المجاملة، وبعد الاستقرار ووضع الحقيبة في الغرفة وقد كان التعب قد أخذ مني كل مأخذ فأخذت قسطاً من الراحة ونظرت للساعة فوجدتها قد قاربت الثانية عشرة، وبعد استراحة قصيرة وقراءة بعض النشرات السياحية المتنوعة عن باريس اتصلت بالصديق الدكتور عبدالرحمن الشبيلي حيث كان موجوداً في باريس لتمضية العطلة الصيفية وهو بهذه المدينة خبير وعارف وكما يقول المثل «يا زائر الهند أسأل عمن يعرفها» وقد رد على الفور كأننا على موعد وقد سعدت بزيارته في الفندق حيث أرشدنا إلى ما نريد زيارته وأطلعنا على الكثير من معالم باريس ومظاهر الحياة واختار لنا رفيقاً عارفاً بها فتوجهت لزيارة بعض المعالم الحضارية فيها.

وفي اليوم التالي زارنا في الفندق ودعانا معه فخرجنا سويا إلى غابة بولونيا الشهيرة قرب ميدان السباق وهي غابة تمتاز بالمناظر الخلابة، وبها مطعم فخم - ومقهى جميل وقضينا وقتاً ممتعاً وحدثنا عن باريس وعما ينبغي مشاهدته فشوقنا كثيراً إلى زيارة بعض الأماكن وكما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى مشوق حين يلقى العاشقينا

فكانت سويعات جميلة عدنا بعدها إلى الفندق...

إن ما يجعل باريس بلداً سياحياً جميلاً هو روعتها وجمالها واثار حضارتها

العريقة ومعالمها وميادينها ومتاجرها، فهي تمثل أحد مراكز الحضارة الغربية وابتدأت بأهم مناطقها التي هي محل اهتمام الزائر الحي اللاتيني وجامعة السوربون، وعند الوصول إلى ذلك رغبت في القيام بجولة في هذا الحي سيراً على الأقدام فشاهدت «حديقة لكسمبرج» وهي من أجمل الحدائق ومشيت في شوارع الحي اللاتيني وبعد جولة في شوارعه المكتظة بالناس والسائحين من مختلف الأجناس أعقبت ذلك باستراحة في إحدى مقاهي الحي المنتشرة بشكل كثير وخلال الاستراحة في المقهى تصورت الأدباء والعلماء الذين درسوا في جامعة السوربون وعاشوا في هذا الحي والروايات الأدبية التي كتبت فيه، وبعد استراحة في المقهى قلت لصاحبي: فلنذهب إلى جامعة السوربون ولا داعي للتفكير في أغوار التاريخ والإنغماس في ذكريات الأمس وحياة السابقين، ووسط صخب وضجيج الحي اللاتيني لاحت لنا جامعة السوربون وعلى مقربة من الجامعة كان الطلاب يجلسون جماعات بقرب من المقهى المجاور للجامعة وآخرون يجلسون على كراسي مهيأة للاستراحة.

وعدت إلى الفندق بعد جولة في هذه المدينة العريقة الجميلة البالغة من العمر أكثر من ألفي عام والتي تتسع البهجة فيها للملايين حيث كانت عاصمة الفنون والمواهب والرسامين والكتاب وغيرهم ممن أتوا من كل أرجاء الأرض:

أما الفنون فحدث عن عجائبها فقد غدت متعة الأقوام في السمر

حقًا إنها مدينة فيها كل شيء.. كل الألوان.. كل الطبقات.. كل الأجناس واللغات الأغنياء، الفقراء المهاجرون من شتى الأمم، تقاليد مختلفة، مطاعم متنوعة وفي المساء خرجت مع بعض الأصدقاء للتجول في شوارع العاصمة وبعد استراحة قصيرة في أحد مقاهي شارعها الكبير «الشانزليزيه» ذهبنا إلى برج «مونبرناس TOURMONTPARNASSE».

حيث كان الجو صافيًا كما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالاً وبهاء فصعدنا إلى أعلاه إذ يحتوي على تسعة وخمسين طابقًا وفي أعلى البرج شاهدنا باريس عن كثب من خلال ناظور مخصص لذلك في أعلى البرج وقد ازدحم بأعداد كبيرة من السواح حيث تجمعوا حلقا يشاهدون المدينة من عل،

ولعل هذا البرج هو أبرز مكان لرؤية المدينة وقل أن يأتي سائح إلا ويذهب لهذا المكان، وبعد قضاء وقت ممتع واستراحة في أحد مقاهي البرج الذي يعج بالمئات والأشكال والتقاليع والغرائب والمتناقضات، حقًا ما أجمل بلادنا وأروع صحراءها ومناظرها ولقد صدق أبو العلاء المعري حين قال:

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وفقد العز في الحضر

وما أبلغ قوله حينما يشاهد المرء فتيات باريس:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ودخلنا مبنى الجامعة التي تعتبر أشهر وأقدم جامعات أوروبا ولها دور في الحضارة الأوروبية. وقد كانت في الأصل كلية صغيرة بناها روجردي سوربون SARBONNE في عام ١٢٥٣م للدراسات الدينية وقد ألحق بها مكتبة كانت تضم العديد من المراجع والمخطوطات كما أنها كانت تتمتع بأساتذة مختارين.. وقد أعاد رويشيلو بناءها إذ هو مؤسسها الثاني في عام ١٦٢٤م وقد أغلقت السوربون خلال الثورة الفرنسية وفي عام ١٨٢١م أصبحت مقرًا لجامعة باريس التي أعيد تنظيمها فيما بين ١٨٨٥ و ١٩٠١ حيث أعيد بناؤها تمامًا، وقد أمضيت زهاء ساعتين متنقلاً بين أقسامها ومكتبتها، وما كان الوقت متسعًا لزيارة جميع القاعات والأقسام وقد أعيانا المشي، فاسترحت مع أحد الأصدقاء في المقهى المواجه لمدخل الجامعة لمشاهدة جو الطلاب في الجامعة وبعد قضاء برهة من الوقت توجهنا لبرج مونبرناس وركبنا سيارة أجرة وقطعنا الطريق خلال دقائق رغم الأزدحام الهائل حيث كان الجو صافيًا كما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالاً.

الحياة في باريس غالية لأن الدخل مرتفع وحالة الناس فيها يبدو المادية والإجتماعية ممتازة والفرنسيون يتحدثون دائمًا عن بلادهم بشئ من الفخر والاعتزاز، ويرون أنهم قد وصلوا إلى أوج الحضارة والمدنية، ونسبة التعليم مرتفعة. ولاحظت أن أكثر الفرنسيين يكرهون الملونين من السود والصفر والسمر.. ورغم ذلك فلديهم أعداد كبيرة من المهاجرين من كل افريقيا ممن

أقاموا مدة طويلة. ، وذهب إلى بلدة «دوفيل» وهي ذات شوارع واسعة وميادين كثيرة وحدائق غاية في الجمال وبها شاطئ بديع.

ولنعد إلى باريس ومعالمها حيث ذهبت إلى متحف اللوفر أحد كبار المتاحف في العالم وهو قصر ضخم واسع وبه معروضات شتى ترجع في تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر الميلادي وتغطي مساحات ثقافية وجغرافية شاسعة، لقد كان هذا المتحف في بدايته قلعة ثم تحولت إلى واحد من أكبر قصور العالم ويضم متحف اللوفر بين جوانبه العديد من المكاتب الإدارية والقاعات ومتحف الفنون الزخرفية وبه كنوز شتى وأعمال فنية مبدعة كما تتميز واجهاته بأهمية معمارية خاصة، وقد عمر في القرن الثالث عشر واكتمل بناؤه في القرن السابع عشر.

ثم قمت بجولة شاهدت خلالها برج ايفل وقصر رئاسة الجمهورية وشارع الشانزليزيه. والمسلة المصرية والتي نقلت من مصر رغم طولها.. وبقيت بارزة شامخة في نهاية شارع الشانزليزيه وعلى ضفاف نهر السين وكذا محكمة العدل وسجن الباستيل الذي يقول فيه الشاعر:

وما الباستيل إلا نبت أمس وكم أكل الحديد بها سجينا

ومررنا ونحن في السيارة بقبر نابليون ومررنا بعشرات الشوارع الرئيسية مثل سانت جرمان وسان ميشيل وكنيسة نوتردام وقوس النصر والأوبرا، ووقفت مع صحبي عند نهر السين الذي يخترق المدينة ويقف الناس على ضفافه حيث باعة الصحف والمجلات والكتب والرسامين بلوحاتهم وبعد ذلك توجهنا للاستراحة في أحد مقاهي الشارع الجميل «الشانزليزيه» وهو من أجمل وأروع الشوارع في أوروبا كلها وعلى جوانبه المحلات التجارية الضخمة ومكاتب البنوك وشركات الطيران والمطاعم الفخمة والمقاهي الجميلة كل شيء موجود ولكن بأسعار مرتفعة، وفي هذا الشارع يشاهد المرء أصنافًا شتى من البشر حيث يوجد سائحون كثيرون من عرب وعجم وأشكال وألوان متباينة نشاهدهم في هذا الميدان رائحين جماعات ووحدانا منهم من يمشي الهوينا ومنهم من يسير على عجل.

خلال تجولي في هذا الشارع الجميل وفي مقاهيه الأنيقة التقيت بعدد من الإخوان والأصدقاء من سعوديين وكويتيين وقطريين ممن أعرفهم سابقًا ومنهم من جرى التعارف معه ولعل الفضل في تعارفنا في هذه الديار كما يقول الشاعر: **وكل غريب للغريب نسيب**.

وخلال هذا اللقاء أنست بلقاء الإحوة حيث أمضينا وقتًا جميلاً تحدثنا فيه عن هذه المدينة الصاخبة ومظاهر الحياة فيها...

وفي هذا الشارع دخلت العديد من المكتبات التي تحفل بالكتب المتنوعة ولعل جهلي باللغة الفرنسية من الأسباب التي لم تمكني من معرفة قيمة هذه الكتب وفائدتها، ثم ذهبت لزيارة متحف الشمع وقصر شيو وساحة الكونكورد والجندي المجهول والباستيل والأحياء القديمة.

ومع مجموعة من الأصدقاء توجهنا صوب برج إيفل ذلك البرج الحديدي الذي أقامه جوستاف ايفل والذي بناه ليكون مركزًا للمعرض الفني عام ١٨٨٩م وقد عارضه في ذلك الوقت مجموعة من الشخصيات الفرنسية بحجة أنه غير مأمون ومعرض للسقوط، وقد حكى لنا أحد الفرنسيين الواقفين بجواره قصصًا شتى عنه منها: أن الألمان حينما احتلوا فرنسا حاولوا تفكيكه وأخذ حديده وغير ذلك من الأحاديث التاريخية.. وقد شاهدت الناس يتفرجون على البرج وتعرضت لأسئلة كثيرة من قبل سائحين آخرين عن هذا البرج بلغات شتى وكنت أكتفي بهز رأسي.. وتركنا البرج للذهاب في رحلة لجبل السان ميشيل وهو يبعد عن باريس ثلاث ساعات إلا أن زيارته متعة للسائح حيث مشاهدة الريف الفرنسي حيث المدن والقرى الجميلة والمزارع الخضراء البديعة وهو يقع بين منطقتي البريتانية والنورماندي اللتين تلتقيان مع بحري المانش والأطلنطي وهاتان المنطقتان غنيتان بالجمال الطبيعي مما يشد السائح ويجذبه للتجول ورؤية هذه الأماكن والصخرة التي يجثم عليها هذا الجبل بتعرضها للمد والجزر. وهذا الجبل يعود لفترة طويلة من الزمن يعود إلى القرن الثامن الميلادي كما حكى لنا المرشد الفرنسي أساطير وحكايات متعددة حول هذا المكان مما هو قابل للصدق والكذب، ولعل منظر المدينة وأسواقها ومنازلها التي تطل من جهات متنوعة على البحر مما يلفت نظر

السائح ويجعله ينعم بجو من الهدوء والانسجام والتأمل..

وبعد فترة من التجوال جلسنا في أحد المقاهي للاستراحة وإذا بشيخ طاعن في السن من أبناء المنطقة يقبل علينا مرحبًا فرددنا عليه التحية وجلس بجوارنا فسألنا: من أي البلاد أنتم؟ فأخبرناه فتحدث لنا عن بلاده وحضارتها القديمة وجعلها كل شيء فقلت له: كما هو معروف تاريخيًا أن العصور الحضارية التي تشير إليها كانت بلادكم وغيرها من البلدان الأوروبية تعيش عصر ركود وتخلف فكري فقد رأيتك قد ضربت صفحًا عما زخرت به بلاد الأندلس من حضارة مستفيضة كان لها الأثر الكبير في أوروبا فإن كنت ترى أن بلادك وحدها أم الحضارات فان أرضنا الطيبة هي منبع الوحي والعرفان، فأدرك أنه مجحف في حق الآخرين فارتد قائلاً: نحن في مقام التحية والترحيب بكم فجهلي بتاريخ بلادكم ليس معناه إنكار ذلك التاريخ أو نقده أو التقليل من شأنه فقلت له: عندما ظهر عصر النهضة في أوروبا أقبل العلماء الأوروبيون على ترجمة مؤلفات المسلمين كما استعان ملوك أوروبا بعلماء من العرب المسلمين على تدعيم مدارسهم ومؤسساتهم العلمية وظل الأوروبيون يعتمدون كلية وخلال ستمائة سنة على ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوروبية بل كانت النقود المتداولة في بعض البلاد الأوروبية، منقوشة باللغة العربية كما أن شارلمان ملك فرنسا حينما أرسل له هارون الرشيد الخليفة العباسي ساعة دقاقة اخترعها العرب فتعجب شارلمان وظنها رجاله سحرًا ولكن شارلمان أقنعهم بأنها من اختراع العرب..

ومن حديث إلى حديث سرعان ما امتلأت السماء بالغيوم الكثيفة وقبل أن يتساقط المطر عدنا إلى باريس استعدادًا لرحلة يوم آخر إلى قصر فرساي الشهير، مرددًا قول الشاعر:

ارحل وشاهد به ماقد سمعت به شتان عندي بين الخبر والخبر

في قصر فرساي

وفي الصباح توجهت بصحبة بعض الإخوان إلى قصر فرساي وقد كان الجو صافيًا جميلاً وكان الطريق ممتعًا - فقد حبا الله هذه البلاد بجمال طبيعي أخّاذ يسُر الناظر وينشرح له القلب مردداً قول الشاعر:

الأرض قد كسيت رداء أخضرا والطل ينثر في رُباها جوهرا

ولأهميته التاريخية سوف أعطيك أيها القارئ لمحة تاريخية عنه.. قصر فرساي - يشمل القلعة والحدائق وبهو الأعمدة - ويصور المدى الذي وصل إليه الفن الفرنسي. فزوار هذا المكان منذ القدم يبهرهم فن المعمار، والديكورات، وروعة الحدائق، فهو من أعظم قصور ملوك فرنسا.

وقد كان هذا القصر في البداية جناحًا متواضعًا خُصِّص لرحلات الصيد جرى تحويله أولاً إلى مقر ريفي ثم اتسع كي يصبح قلعة حقيقية تحيط بها الحدائق.

وجرى استكمال القصر بعد ذلك ببناء مدينة حتى تم اختياره في النهاية كمقر رسمي للملك وبلاطه لإدارة شؤون البلاد.

وقد قام الملوك الأربعة الذين حكموا فرنسا منذ عام ١٦١٠ إلى ١٧٨٩ بإحداث تغييرات كبيرة على القلعة وما يُحيط بها من بيوت كل بما يتفق مع ذوقه ومفهومه لمعنى القلعة، وفي هذا القصر وقعت فيه معاهدة فرساي المشهورة في أعقاب الحرب العالمية الأولى بين الألمان والحلفاء وذلك عام ١٩١٩م.

لكن الموقع كان من الجمال بحيث دفع لويس الثالث عشر عام ١٦٣١م لأن يطلب من فلبرت لي روي PHILIBERT LE RAY أن يبني به قلعة من الطوب والحجارة وتكون سقوفها من الألواح الأردواز واستمر هذا القصر في أداء دوره التاريخي واليوم يستمر قصر فرساي في القيام بدور المتحف التاريخي.

ففي الجناح الشمالي تمثل غرف القرن السابع عشر مقدمة إلى جولة بين الحجرات الرسمية يمكن الاستمرار بعدها إلى قاعة المعارك. أما الحجرات في الجناح الجنوبي فقد خصصت لعصر نابليون. ومع تجديد حجرات القرنين الثامن

عشر والتاسع عشر تكتمل هذه البانوراما الضخمة لتاريخ فرنسا.

لقد ترك كل من ملوك فرنسا بصماته على قصر فرساي الذي أصبح يضم كنوزاً لا تُحصى بالنسبة لكل من الزائر المتلهف للمعرفة ومؤرخ الفن.

فالرائي يحس في قلعة لويس الثالث عشر بروح الفن في أواخر القرن السادس عشر والفن الكلاسيكي في القرن السابع عشر حيث تلمس التطور الرائع في الفن الفرنسي. ورغم تنوع الآثار التي خلفها سكان القصر بأذواقهم المتباينة فإن القصر يُطي انطباعًا متكاملاً شاملاً في الانسجام والتوافق الفني.

وسط هذا الجو عاش ملوك فرساي، وفي حدائق القصر ترى البساط الأخضر تتناثر عليه أحواض الزهور ذات الألوان والنافورات المزخرفة وبرزت أهمية فرساي حيث أصبح مقرًا دائمًا للمعارض والمؤتمرات، وبعد أن حكى لنا المرشد أشياء كثيرة عن هذا القصر وتاريخه وأخيرًا أنه تاريخ مضى ولن يرجع مهما حاول المسؤولون عن هذا القصر على إعادة الحياة إليه.

وبعد أن انتهينا من التجوال في القصر وحدائقه قمنا بالسير في البلدة التي تمتاز بمناظرها الساحرة ومتاجرها الأنيقة وشوارعها الفسيحة حيث تزخر بالحركة والنشاط السياحي. ثم عدنا بعد ذلك إلى العاصمة وخلال الطريق كنا نشاهد الريف الجميل وننعم بالمناظر الرائعة حيث الأزهار والأشجار والحدائق والحقول الممتدة مرددين قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندسًا وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا

بسط تظللها الغصون فأينما يممت خلت سرادقًا منصوبا

وفي صباح يوم الأثنين كنت قد قررت السفر إلى لندن واتصلت بالخطوط الفرنسية لتأكيد الحجز وأخذت منهم مواعيد السفر فكان موعد الحضور إلى المطار صباحًا الساعة الثامنة والنصف، وقد أسرعت في الصباح في الذهاب إلى المطار وفي الموعد المحدد كنت هناك وبعد انهاء الإجراءات أخذت رقم بوابة الخروج والتفت يمينًا وإذا برجل مغربي يربت على كتفي قائلاً: الأخ عربي؟ فقلت نعم وقد

فرحت بوجوده حيث كان يتقن اللغة الفرنسية فتعارفنا وأخذنا مقعدنا بين الجالسين في قاعة السفر، ونظراً لسعة الوقت فقد أشرت عليه أن نتجول ونشاهد ما بقربنا من أمكنة كالسوق الحرة والمقهى والمكتبة والمصرف لاستبدال النقود الفرنسية التي بقيت معي – وكان أخونا المغربي متحدثًا بارعًا باللغة الفرنسية فتحدثت إليه مما انطبع في ذهني من ذكريات عن باريس وعن فرنسا عمومًا فزادني معرفة بأمور كثيرة بحيث تمنيت أن يطول أمر الجلوس والانتظار ولكنا افترقنا وقد كانت وجهته روما بينما أنا مسافر إلى لندن، وهكذا ستبقى الأسفار رغم متاعبها فيها الذكريات والتعارف إلى جانب فوائدها المعروفة.

في الأندلس

كانت زيارة الأندلس بالنسبة لي من أعز الأماني وأغلاها فطالما هفت نفسي وتطلعت إلى مشاهدة تلك المعالم والوقوف على المفاخر العربية الإسلامية والمجد العربي المؤثل، وشاء الله أن تتحقق تلك الأمنية، ففي عطلة الربيع[1] اغتنمتها فرصة سيما أن جو الربيع الدافئ وما يحفل به من متعة وبهجة يشجع على ذلك، فاتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على تمضية العطلة في أسبانيا، وبعد تهيئة الاستعدادات الواجبة للرحلة من الحصول على تأشيرة الدخول وغيرها من مستلزمات الرحلة غادرنا مدينة وهران المدينة الجزائرية الجميلة والثغر الباسم المطل على شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

وتوجهنا منها بطريق السيارات إلى الحدود الجزائرية المغربية فوصلنا بعد مسافة قطعناها وهي ١٧٠ كيلاً وبعد الإجراءات المعتادة دخلنا الحدود المغربية وتوجهنا إلى مدينة (وجده) إحدى المدن المغربية الكبيرة، ومنها استأنفنا مواصلة السير متوجهين إلى الأندلس، وبعد المرور بعشرات البلدان والقرى المغربية حيث المناظر الطبيعية الخلابة وصلنا إلى مدينة (الناظور) على الحدود المغربية، وبعد إجتياز المراكز الأسبانية التي لم يدم انتظارنا أمامها سوى بضع دقائق توجهنا إلى مدينة (مليلية) أولى المدن الأندلسية، وهذه المدينة تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بها نشاط تجاري واسع وبها عدد من العرب المغاربة، وبعد زيارة لأهم معالمها التاريخية والحديثة ركبنا البحر قاصدين مدينة (ملقة) مدينة المجد العربي والتي كانت في الماضي عاصمة هامة من عواصم الخلافة ووصلناها بعد رحلة بحرية استغرقت أربع عشرة ساعة استمتعنا خلالها بجمال البحر ومشاهدة أمواجه ومناظره البديعة «وملقة» حالياً مدينة تجارية ضخمة ذات جمال وبهاء، تتوسطها الحدائق الفخمة وتضفي عليها المناظر الطبيعية التي تحيط بها من كل جانب جلالاً وروعة، وفي ملقة اندثرت كل المعالم العربية ولم يبق بها شيء يوحي بما كان للعرب والمسلمين من مجد ومعالم سوى القليل ومنها توجهنا إلى مدينة (غرناطة)

---

(١) كانت الرحلة في عام ١٣٨٤هـ.

لقد كنت وقتها منتدباً للتدريس آنذاك بمدينة وهران بالجزائر في عام ١٣٨٤هـ.

ولقد كان الطريق متعباً حيث المنحنيات المتعددة بداخل الجبال فلا تستطيع السيارة أن تزيد سرعتها أكثر من ٣٠ كيلاً، أما جوانب الطريق فهي جميلة وممتعة لدرجة تنسي الإنسان متاعب الطريق، وعند وصولنا غرناطة صادفنا عشرات المرشدين، هذا يعرض عليك فندقًا وآخر يتعهد بمرافقتنا في زيارة المعالم والمناطق السياحية ولكم رددت قول الشاعر:

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعري ما الذي أبلاك

وتوجهنا إلى فندق في داخل المدينة قريبًا من قصر الحمراء، وسكان غرناطة طيبون جدًا يمتازون باللطف وحسن المعاملة والإبتسامة ترتسم على وجوههم ويحبون العرب كما أن ملامح أهلها غالبا أقرب ما تكون إلى السمات والملامح العربية، وتذكرت وأنا أطوف في شوارع غرناطة وفي أحيائها ما كانت تحفل به هذه المدينة من ندوات الأدب ومجالس الشعر، وأعلام البيان وأساطين الفلسفة ورواد المعرفة وما خلفه أولئك العرب من مذاهب فكرية وتراث غزير ونظريات علمية، ولازال الأثر العربي قويًا واضحًا في حياة الناس وفي صناعاتهم مما يبعث على الاعتزاز بتاريخنا الذي بقى حيا إلى اليوم.

فكم شهدت غرناطة وغيرها من نهضة فكرية متوثبة ونشاط ذهني لامع. ووقفت لحظات وأنا أطوف بالأحياء العربية الباقية حتى الآن وأنتقل بفكري إلى تلك الأيام الزاهرة المجيدة وما بلغه العرب إذ ذاك من شأو رفيع وما كان لذلك من أثر وفعالية في دفع الحضارة التي ملأت الدنيا إشعاعًا ونورًا. وابتدأنا بزيارة (قصر الحمراء)[1] ووجدنا الزحام عليه شديدًا لكثرة الوافدين من مختلف الجنسيات الأوروبية والأمريكية، وعند مداخل القصر لا تستطيع الدخول إلا بعد إنتظار حيث أن مئات السياح يلتقطون الصور لدرجة أنك تفرك عينك كل لحظة لكثرة ما يصيبها من تسليط عدسات التصوير، أكثر السياح يتأبط بين ذراعيه عدة كتب إلى جانب قصاصات الصحف والمجلات التي كتبت عن هذا القصر وتاريخه.

(١) هذا القصر العجيب كان يومًا مصدر القوة في الشرق والغرب وكتبت عنه الكتب والمؤلفات والحكايات مما حمل العدد الكبير من السياح من أوروبا وأمريكا يأتون إلى زيارة غرناطة وآثارها.

ودخلنا القصر وهو قصر شامخ عالي البنيان يقع على ربوة مرتفعة بحيث يطل على مدينة غرناطة وضواحيها وبعد قطع تذكرة الدخول وهي تباع بما يعادل ستة ريالات أخذنا في الطواف بداخل القصر وشاهدنا بوابة القصر الفخمة بأبوابها القديمة ثم غرف القصر وممراته وحدائقه الفخمة ونافورات المياه وقاعات الاستقبال ومجالس الخليفة، ولا تزال النقوش والكتابات والزخارف باقية مثل (لا غالب إلا الله) وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة والحكم الدينية والأبيات الشعرية، واستمر طوافنا في القصر أكثر من ثلاث ساعات ونحن نخرج من قاعة إلى قاعة ومن حديقة إلى حديقة مما يعطي صورة حية للفن المعماري الإسلامي الذي يدل على المهارة والدقة والبراعة، وفي داخل القصر يوجد العشرات من باعة الصور المتعددة للقصر والتي تنفد بسرعة من جانب المئات من السياح، وفي القصر اقترب منا شاب أسباني عندما سمعنا نتحدث بالعربية ومد يده لمصافحتنا ودار بيننا وبينه حديث عن القصر وتاريخه ولقد كان على جانب من الثقافة وأخذنا متنقلا بنا بين طوابق القصر ومشاهده الفخمة وقام يقرأ لنا بعض النقوش والكتابات التي بدأت تندثر لدرجة أننا لم نستطع فك حروفها لامحاء الخطوط، وفي القصر أدخلت المصابيح الكهربائية لإضاءته، وكم رددت مع شوقي وأنا أرنو إلى القصر قوله:

ياقصورا نظرتها وهي تقضى فسكبت الدموع والحق يقضى

ومن القصر خرجنا إلى (جنة العريف) وهي حدائق جميلة مجاورة للقصر تعتبر غاية في الروعة والجمال والتنسيق، ومما يدل على الذوق العربي الأصيل ومما يزيد العربي فخراً أن هؤلاء المئات من السائحين الأجانب تسمعهم وهم يشيدون بالمجد العربي الإسلامي ويبدون دهشتهم لدقة ما في هذا القصر من نقوش وفنون وزخارف، فصدفة التقينا بمجموعة من السياح الفرنسيين فقاموا يتحدثون عن عظمة الفن المعماري عند العرب وأن المسلمين في ذلك العصر يعتبرون ممن أسهموا بنصيب كبير في قافلة الفكر - ولا شك أن التقدم العلمي الذي أحرزه أسلافنا العرب المسلمون في هذه البلاد وفي ظروفهم يستحق الكثير من التقدير والعناية.

وما أكثر ما تغنى الشعراء بالأندلس وأفتنوا في ذلك فوصفوا جمال طبيعتها وحياتها وبطاحها، فهذا ابن هانيء الأندلسي يقول:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأشجار وأنهار

وما أشد ما زخرت به أشعارهم من رقة وأخيلة وعذوبة وما فاضت به من جمال وجلال ومتعه إلى جانب ما تحفل به من ناحية فنية وجمالية، ولا زالت الأجيال تردد تلك الأشعار التي تعكس بجلاء تلك الحياة التي تصف الأندلس وتتغنى به وتشدو بمباهجه ومفاتنه.. وتصف حياتهم التي كانت مفعمة بالبهجة والرضى في تلك الربوع، وفي أشعارهم تلك عرض واف لما كانت عليه حياتهم ومعارفهم وعلومهم وتقاليدهم وما اتصفوا به من كريم الصفات وجميل العادات وما أثر عنهم من لطائف وطرائف ومساجلات.. وما نقله الرواة عن أحوالهم وشمائلهم وذكريات ولاتهم وقضائهم وأيامهم..

لقد خلفوا لنا تراثًا ضخماً كان بمثابة صور ناطقة حية بما كانوا يتميزون به من صفات وخلال وسجايا. إنها ذكريات متى تذكرها المرء أرقت حنايا قلبه وأثارت له الأسى وجعلته يغرق في في لجج من الحسرة واللوعة، ولا أريد أيها القارئ أن أطيل وأترك لخيالي أن يستبد بشيء من وقتك فيجعلني هائماً في بحر من الذكريات التي أوحتها طبيعة المكان، فمن الخير أن نتناسي ذلك ونستمر في متابعة الرحلة، ولكنه الإحساس الذاتي والتأمل النفسي فإلى متابعة الرحلة..

ففي مدينة غرناطة قام صديقنا الشاب الأسباني بمرافقتنا لزيارة الأحياء العربية القديمة ومشاهدة بعض البيوت والمعالم الأثرية فتجولنا بعد العصر في تلك الشوارع سائرين بين ممراتها الضيقة ورأينا آبار المياه القديمة، ودار بيننا وبين بعض سكان هذه الأحياء محاورات لطيفة حيث وجدنا منهم استقبالاً جميلاً وترحيباً لطيفًا، ولقد دهشت لمظاهر هذه الحفاوة وحبهم للعرب وحفظهم لبعض الكلمات العربية التي قاموا بترديدها أمامنا وقام بعضهم بفتح بيوتهم لمشاهدتها للتدليل على أنها باقية على التصميم العربي القديم وهي أشبه ما تكون ببعض أحياء مدينة الطائف القديمة..

والعجيب أن أغلب البيوت حتى الحديثة منها في مدينتي قرطبة وغرناطة لا تزال على النمط العربي، فأبواب البيوت توجد على جوانبها مسامير صفر ويتوسط الباب حلقة كبيرة إلى جانب (فتحة) تتوسط الباب تشبه إلى حد ما الأبواب القديمة في مدينة الرياض..

واستأجرنا عربة يجرها حصان انطلق يجري بنا بسرعة إلى بعض الأماكن القديمة حتى شاهدنا بيوتًا مهدمة قديمة قيل لنا أنها كانت دورًا للقضاء ومدارس للتعليم وغير ذلك، ولقد أوحت إليَّ هذه المناظر القديمة بترديد قول ابن خفاجة الأندلسي:

فـــــإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار منك واستعبار

أرض تقاذفت النوى بفطينها وتمخضت بخرابها الأقدار

وفي المساء شاهدنا في غرناطة احتفالاً دينيًا أقيم ليلاً واستمر حتى آخر الليل ولقد زينت المدينة بأحلى حلة وامتلأت شوارعها بالجماهير.. ونصبت الكراسي في كافة الميادين والطرقات ليجلس عليها المشاهدون، وابتدأ الحفل بعزف قامت به فرقة موسيقية ثم تلاها حملة الطبول، ثم الخيالة تبع ذلك عشرات من الفتيات يحملن المشاعل والورود وأغصان الشجر والأعلام، ثم جاءت عربة ضخمة بها نموذج لصورة السيد المسيح من الذهب يحف بها رجال الدين والرهبان ورجال الجيش، ثم صفوف أخرى من الشباب تجللوا لباسا تنكريًا لا يبدو منه سوى عيونهم فقط وعلى رؤوسهم لفائف تشبه الطاووس واتجهوا إلى الكنيسة لأداء الصلوات.. وسهر الناس تلك الليلة حتى الصباح، وفي الصباح ودعنا مدينة غرناطة الجميلة ونحن نحمل أجمل الذكريات قاصدين مدينة قرطبة..

وقبل مغادرتنا مدينة غرناطة أخر ما كان يحتفظ به العرب إبان حكمهم والتي سقطت عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م عرجنا على متحفها الأثري لزيارته والإطلاع على ما يحتويه من آثار ولوحات وقطع، ومن ثم توجهنا إلى مدينة (قرطبة) قاعدة الحضارة الإسلامية الزاهرة ومركز العلم والمعرفة إذ ذاك.

وفي الطريق شاهدنا عشرات القرى التي ذكرتنا بماضيها وذلك بما كنا نلمحه

من آثار عربية وأطلال دارسة مما يوحي بمجد قديم، وقد مررنا في الطريق بعشرات المزارع والمناظر الخضراء الجميلة من كروم وزيتون، وبينما نحن نتأمل هذه المناظر بدت لنا معالم قرطبة، وبعد وصولنا ذهبنا للبحث عن الفندق الذي كنا نحمل اسمه، وبعد استراحة قصيرة خرجنا نطوف في شوارعها، وكم لهذه المدينة العريقة من ذكريات تاريخية رائعة فقد كانت من أعظم المدن الأندلسية وأجملها وكانت حافلة بالمعاهد ودور العلم ومقصد العلماء والشعراء والأدباء.

ومدينة قرطبة أصبحت حالياً مدينة أوروبية ذات شوارع أنيقة وتمتلئ بالمباني الحديثة إلى جانب الأحياء القديمة ذات الدروب الضيقة وهي المجاورة للمسجد الجامع - ولعل من أهم آثارها (جامع قرطبة الشهير) وذهبنا لزيارته وسط ممرات ضيقة ووصلنا (الجامع) الذي عاصر الأيام الذهبية والسنين الزاهرة، وبعد وصولي الجامع أحسست بشيء من الأسى والكآبة وخاصة حينما سرح بي الخيال وتأملت تاريخ هذا الجامع العظيم يوم كان ملتقى العلماء ووجدت آثار الإهمال وتحويله إلى كنائس حالياً، وحينما اجتزنا إلى داخل الجامع بهرنا مما يحويه من روعة البناء وعظيم التصميم ودقة الزخرفة - وتاريخ هذا الجامع يعود إلى عام ١٧٠هـ حينما قام بإنشائه عبدالرحمن الداخل الأموي، وقد أراد عبدالرحمن الداخل أن يكون هذا الجامع من أروع جوامع الأندلس، وقد توفى قبل أن يكمله فأتمه أبنه هشام، ثم قام الخلفاء من بعدهم بتوسعته وإدخال مزيد من الاضافات عليه، ويقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في وصفه لهذا الجامع (يشغل مسجد قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً وعرضه مائة وخمسة وثلاثين متراً وهو أندلسي الطراز والمظهر بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره).

وللمسجد من قبل تسعة عشر بابا فخمة وقد زين بزخارف عربية جميلة، وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة ويحار البصر في تأمل عقوده وأعمدته العديدة المتقاطعة التي لا تدرك العين نهايتها وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر متراً، ولأول وهلة يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي ولكنه متى دقق البصر

قليلاً أدرك في الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة بل إلى كنائس، فقد عدلت أسقفه على الطراز الكنسي وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى وحلت محل قبابه نقوش نصرانية وأنشئت على طول جوانب الجامع الأربعة من الداخل هياكل لا نهاية لها ونصبت فوقها الصلبان وتماثيل القديسين وصورهم، ولم يترك من جوانبه سوى المحرابين واحدهما قديم مخرب، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة ورسمت صور القديسين بين الزخارف، وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم إلى أوائل القرن السادس عشر ذلك أنه لما سقطت قرطبة في يد النصارى ودخلها فاتحها ملك قشتالة أقيم في الجامع قداس شكر واستمر الملوك الأسبان في إدخال تغييرات جزئية في أوضاع الجامع، وقد كان إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من أسبان وغيرهم، وقد وصفه بعضهم بأنه أشنع عمل همجي ارتكب لتشويهه، وفي عام ١٩٥٣م أزيلت منارة الجامع القديمة وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالي، ولقد حمل العلماء الأثريون وفي مقدمتهم العلماء الأسبان على هذا التشويه لأثر من أجل الآثار الإسلامية ووصفه بعضهم بأنه تدنيس للفن.

وبعد أن أمضينا وقتًا طويلاً في جامع قرطبة وشاهدنا ما فيه من روعة وعظمة خرجنا لزيارة القصر المجاور له وهو قصر ضخم بني على الطراز العربي الأندلسي كان مقراً للخلافة – وأتجهنا للدخول في مدخله الرئيسي ولا يزال بابه الضخم الكبير محتفظًا بقدمه وطابعه الشرقي، وعند مدخل الباب يوجد حراس ومرشدون، وبعد قطع تذكرة الدخول دلفنا إلى ساحة القصر وتجولنا في غرفه وقاعاته التي تبعث رؤيتها على شيء من الحزن والكآبة، فكم شهد من أيام زاهرة وسيادة وعظمة مجد، وشاهدنا في داخل القاعات ومجالس السفراء والأروقة بعض النقوش العربية إلى جانب التحف التي كان يحتفظ بها الخلفاء، وفي جانب من القصر توجد حديقة كبرى تزينها البرك الواسعة والأشجار المتعددة، والخمائل الجميلة.

ولا تزال المياه جارية بين جنباتها، وصدفة التقينا بسائح لبناني فقام يحدثنا عن القصر وعن مياهه فروى على حد تعبيره قائلاً: بأن هذه المياه التي تجري هنا لا تزال على مجراها الطبيعي يوم بني هذا القصر وأن المهندسين الأسبان يعترفون بالمهارة للمهندسين العرب القدامى الذين قاموا بجلب هذه المياه واستمرارها إلى اليوم - وهو أمر يدعو إلى الفخر والاعتزاز، وبداخل الحديقة توجد أشجار البرتقال بوفرة ووجدنا عشرات السائحين يلتقطون الصور ويستمتعون بجو حديقة القصر الساحرة ونسماتها العليلة.

ومن ثم ذهبنا لمشاهدة القنطرة المجاورة للمسجد الجامع، وهي كما يروى بناها الرومان وقام بتحسينها وتجديد بنائها حكام الأندلس المسلمون، وقمنا بعد ذلك بجولة سريعة في داخل قرطبة لمشاهدة الأحياء القديمة التي لا تزال محتفظة بالطابع الأندلسي ورؤية بعض المساجد التي حولت إلى كنائس، ولكم تذكرت بهذه المناسبة قول أبي البقاء الرندي حين بكى هذه المواطن ورثى هذه الربوع بمرثيته الشهيرة التي كنا نحفظها قديمًا:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن

أما مدينة الزهراء ذات المجد والصيت الواسع التي قام بإنشائها الخليفة عبدالرحمن الناصر فقد امحت ولم يبق لها إلا بعض أطلال دراسة، وقد كنا نقرأ عنها في التاريخ أنها من أروع المدن وأزهاها وأنه أنفقت الأموال في تشييدها واستمر بناؤها ما يقرب من أربعين عامًا ونيفا وأنه جلب لها من الأثاث وأدوات الزينة ما يبهر العقل. وسمعت وأنا في قرطبة أن هناك حفريات للبحث عن آثار هذه المدينة ومعالمها التي ابتلعها الدهر وغمرها النسيان.

ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء ورائع ذكرياتها:

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقًا كما أضحى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا

معاهد لذات وأوطان صبوة أجلت المعاني في الأماني بها قدحًا

ألا هل إلى الزهراء أو بة نازح تقضت معانيها مدامعه نزحا

وفي المساء ذهبنا لزيارة بعض الحدائق والمتنزهات الحديثة ورؤية ما تبقى من السور القديم لقرطبة، والتجوال في أهم شوارعها الرئيسية الكبرى ومتاجرها الفخمة وميادينها الأنيقة.

وبعد إنتهاء زيارتنا لقرطبة قلب الأندلس والتي قيل قديماً في وصفها: قرارة أولي الفضل والتقي، ووطن أولي العلم والنهي، وقلب الإقليم وينبوع متفجر العلوم، وبستان وقبة الإسلام، وودعناها بعد أن أمضينا في ربوعها وقتًا حافلاً بالمتعة الفكرية والعلمية، ومليئا بالفائدة التاريخية، وذهبنا لمحطة القطار للتوجه إلى مدينة مدريد العاصمة.

وبعد أن ودعنا قرطبة عروس الأندلس ومدينة المجد والمعرفة والتي كانوا يقولون عنها قديماً إنها كانت من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، توجهنا صوب العاصمة «مدريد»- وأمضينا الليل كله في السير ولم نصل مدريد إلا في الصباح، وقد كنا نلمح في الطريق المدن والقرى المتناثرة ويبدو في تصميم أغلب بيوتها الطابع الأندلسي، وعلى جوانب الطريق كانت المناظر الخضر، الجميلة والغابات والمزارع وأشجار الزيتون المنسقة.

ومدريد من أجمل المدن الأوروبية تمتاز بروعة التنسيق وجمال التصميم في مبانيها وبراعة التخطيط الهندسي وتزخر بالحركة والحيوية والنشاط وتكتظ بالسكان وإلى جانب ما تضفيه ميادينها الفخمة وحدائقها الغن التي تبهرك بحسنها الفتان وتنسيقها البديع من بهاء وفخامة ورواء.

ومن أجمل ما في مدريد شارعها الضخم الفسيح الذي يمر بوسط العاصمة وعلى جوانبه المتنزهات والمحلات التجارية والميادين التي تجملها النافورات. وخلال إقامتنا بمدريد تمكنا من زيارة - لأغلب الأماكن السياحية والمشاهد الأثرية وبعض المتاحف التي تحوي بعض الآثار والزخارف العربية الإسلامية.. وأخيراً فإن الديار الأندلسية والبلاد الأسبانية كلها مثار ذكريات للزائر العربي فكلها حضارة ومجد وفن وعمران.

مصارعة الثيران:

ولعل من الظواهر التي تلفت نظر السائح في أسبانيا هي مشاهدة مصارعة الثيران، وبعد قطع تذكرة الدخول التي تباع في كل مكان ذهبنا إلى ميدان المصارعة ووجدناه مزدحماً بالجماهير ومصوري السينما والتلفزيون والصحافة، ومليئًا بأفواج من السائحين الذين جاؤا لمشاهدة هذه اللعبة – وبعد صعوبة تمكنا من الدخول – ولقد كان مشهداً مثيراً – ويبتديء الدور الأول بأن يفتح الباب ويدخل الثور التعيس إلى مكان المصارعة ويأخذ يصول ويجول بقرونه الطويلة ومن ثم يدخل أحد الشبان ممتطيًا جواداً وفي يده آلة حادة طويلة ويظل في صراع ومبارزة مع الثور إلى أن يتمكن منه ويغرس في جوفه الآلة التي في يده إلى أن ينزف دمه ومن ثم يعود مرة أخرى، وبعد تسديد الضربتين يخرج الشاب بجواده من الحلبة بحيث يأتي مجموعة من الشبان يأخذون في مصارعة الثور بعد أن يكون قد فقد شيئًا من حيويته ونشاطه وضعفت مقاومته، ويستمرون في التلويح له وإثارته – بشارة حمراء وكلما رفعت للثور استشاط غضبًا وهياجًا واندفاعًا ويزداد هجومه وتقوى مقاومته يتصدى له أحد الشبان فيغرس في جوفه سكينا إلى أن تخور قواه وتتضائل مقاومته فيخر صريعًا ويسقط على الأرض، وبعد سحبه من حلبة المصارعة يدخل ثور آخر وهكذا دواليك تستمر عملية التزال والطعان وقد شهدنا مصرع سبعة من الثيران تمكن بعضها من جرح خمسة من المصارعين واستمر وقت المصارعة ساعة ونصفًا.

والواقع أنه مشهد مؤلم يثير الأمتعاض والأسى إذ كيف يهضم هؤلاء تعذيب الحيوان بهذه الصورة البشعة التي تتنافى مع الدين والخلق والذوق؟

ومهما قيل في تبرير ذلك أنها مورد سياحي هام ومصدر دخل كبير فإن أسلوب المصارعة بهذه الآلات الحادة غير لائق أبدًا إذ هو تعذيب للحيوان المسكين الذي نادت التعاليم الدينية بالرأفة والرفق به، وخرجت من ميدان المصارعة وأنا أحمل أسوأ الذكريات وأقسى الانطباعات.

وبعد زيارة لأهم معالم مدريد السياحية ذهبنا إلى مدينة «الحسيراس» متوجهين

صوب «مضيق جبل طارق» ومشاهدة ما يحويه من معالم وآثار ومرافق سياحية ومن جبل طارق ركبنا البحر قاصدين مدينة «طنجة» الثغر المغربي الباسم حيث تمكنا من زيارة أهم، المدن المغربية كالرباط والدار البيضاء ومراكش وفاس.

حقًا إن كل ما في الأندلس يملأ قلب العربي إعتزازًا بتاريخ أمته كما يملأها إعجابًا بتلك الحضارة التي خلفتها أمته هناك في ربوع الأندلس، فإن ما يشاهده المرء مع ملايين السياح من كل شعوب الأرض في قصر الحمراء وفي جامع قرطبة وفي جنة العريف وقصر اشبيلية وطليطلة وملقة وبلنسية وسرقسطة ورنده وطريف وجبل طارق والجزيرة وقادس.. الخ. كل ذلك يوحي بالفخر والأعتزاز، والمجد التاريخي العريق.

وكانت تلك المدن تزخر بالعديد من الشعراء والعلماء والأدباء والمؤرخين وكانت الثقافة الإسلامية الواسعة الغنية التي فرضت نفسها على الدنيا أجيالاً طويلة، وكان العلماء والشعراء والفلاسفة يرحلون إليها من كل قطر للتزود من العلم والثقافة والمعرفة، والحديث عن تاريخ الأندلس وآثاره طويل ولكم تأثرت وأنا أقف في مكان خارج غرناطة ذهب بنا المرشد إليه وقال إنه يدعى «زفرة العربي» وهو المكان الذي وقف فيه أبو عبدالله آخر ملوك غرناطة حيث ألقى نظرة الوداع على الملك المضاع وهناك قالت له أمه البيت المشهور:

إبك مثل النساء ملكًا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولكم رددت هذا البيت وكانت الدموع تنهمر من عيني:

أمامي الأمجاد منثورة قصائدًا ما صاغها شاعر

في مكتبة الأسكوريال بمدريد

ان الحديث عن الثقافة في الأندلس متشعب الأطراف متنوع العناصر ويحرص المرء على استنباط العبرة منه. وبعد زيارة للمناطق الأندلسية ذهبت إلى مدريد وهي مدينة حافلة بالمعالم السياحية والمشاهد الأثرية. ومكتبة الأسكوريال... والمكتبات في كل أمة عنوان رقيها ودليل تطورها.. فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلّها وتسهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل ونتحف عشاق المعرفة ورواد العلم والآداب.. بينابيع ثرة من المعارف والفنون والعلوم. ومكتبة الأسكوريال من المكتبات التي تستأثر باهتمام الزائرين إذ يحرص كل فرد مهتم بالمعرفة على زيارتها.. حيث أن شهرتها تجذب الناس إليها خاصةً وأنها تمتليء بتراث ضخم من الكتب النادرة والمخطوطات القيمة التي تعد ينبوعًا دائمًا للحضارة الإنسانية والثقافية الفكرية..

وبعد زيارة لمدريد ومعالمها.. خرجت نحو مدريد القديمة ومراكزها الأثرية.. كما قمت بزيارة لبعض الأمكنة والميادين القديمة فيها، ذات القيمة التاريخية وجولة في ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة والمركز الإسلامي الثقافي الذي له نشاط ثقافي ومجلة دورية تعني بالبحوث التاريخية والمخطوطات باللغتين الأسبانية والعربية..

وفي صباح يوم جميل توجهت نحو الأسكوريال وقطعنا حوالي خمسين كيلاً فوصلنا إلى تلك المنطقة التاريخية والتي يعتبرها الأسبان إحدى عجائب العالم، حيث تضم الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير والمدرسة الملحقة بها، وبها أمكنة مختلفة.. وبعد تجوال في المنطقة، توجهنا نحو مكتبة الأسكوريال الشهيرة والتي يوجد بها بقايا التراث الأندلسي الفكري.. وهي تقع في الجهة اليمنى من القصر وتضم بهواً واسعًا تعرض فيه مجموعة من المخطوطات التي تحتويها المكتبة ومنها مصحف كان لأحد سلاطين المغرب..

ومكتبة الأسكوريال ليست غنية من الناحية الكمية ، فهي تحوي أكثر من سبعين

ألف مجلد ولكنها غنية بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط. ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفي مجلد على حد تعبير أمين المكتبة.

وهذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها، جمهرة الباحثين من سائر العالم كانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك فيليب من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جُمِعَتْ من غرناطة بعد سقوطها.. ومن سائر المدن الأندلسية، ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث حينما استولت السفن الأسبانية في مياه المغرب سنة ١٦١٢م.. على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة سلطان مراكش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الأسكوريال في أوائل القرن السابع عشر، نحو عشرة آلاف مجلد.. ثم في عام ١٦٧١ شب حريق في القصر قضى على جُلّها من الكتب فلم يبق سوى ألفي مجلد هي التي توجد اليوم في المكتبة..

بعد تمضية بضع ساعات في داخل القصر ومشاهدة المتحف واللوحات والمكتبة توجهنا بعد ذلك إلى وادي الشهداء الذي لا يبعد إلا قليلاً من الأسكوريال وقد بنى الجنرال (فرانسيسكو فرنكو) كنيسة داخل جبل، وأقام في قمة الجبل صليبًا هائلاً تخليدًا لشهداء الحرب الأهلية الأسبانية، وعمق الكنيسة داخل الجبل حوالي ٣٥٠ متراً، وعرضها ٢٥ متراً، تزين الكنيسة لوحات من الداخل وفي نهاية الكنيسة في القبة الرئيسية لوحة تحتوي على رسوم من قطع المزايكو الصغير، ويقال إن عدد القطع ثمانية ملايين قطعة، وعلى جوانب الكنيسة، تقع مدافن بعض ضحايا الحرب وقد قُبِر الجنرال فرنكو في نهاية الكنيسة ثم غادرنا المنطقة وأخذنا طريقنا نحو العاصمة مدريد بين جبال خضراء، وكنت أقوم انطباعاتي عن الأندلس ماضيها وحاضرها في ضوء ما شاهدته في الأسكوريال، وتذكرت ما سبق أن قرأته عن حرص الأسبان على إخفاء الآثار الإسلامية عن نظر كل باحث حيث كانوا يخشون أن يتسرب الإسلام إلى تفكير وروح أبنائهم فدفنوا الكتب في هذا القصر والذي صار اليوم مزاراً للسائحين والمهتمين بالتاريخ والكتب والآثار.

رؤية حول المركز الثقافي الإسلامي في مدريد

في يوم الإثنين الموافق ١٤١٣/٣/٢٤هـ، افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض المركز الثقافي الإسلامي في مدريد بحضور جلالة الملك خوان كارولوس ملك أسبانيا، ولا شك أن هذا المركز الإسلامي في مدريد مشروع رائد وإنجاز تاريخي ضخم وصرح حضاري ووجه مشرق للثقافة العربية الإسلامية ورسالتها الخالدة وشعلة إشعاع فكري ومنارة عرفان وتجسيد حقيقي لعمق الصداقة العربية الأسبانية وما تحظى به الثقافة والحضارة الإسلامية من مكانه مرموقه في أفئدة الشعب الأسباني ولا غرو فهي تجسد شطراً من تاريخه وحقبة من ثقافته حيث كانت نوراً وضياء خلال ثمانية قرون وبرز خلالها أعلام وعلماء وأدباء ومؤرخون كان لهم تاريخ حافل وعمل لامع في تاريخ الأمم والشعوب بأبعاده الواسعة ويطوف التفكير بالنفس في عوالم من التاريخ والعبر والتأمل، فنجد أن هذا المركز الذي قامت المملكة العربية السعودية ببنائه وشيد على نفقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله يتعانق فيه مجد الماضي وواقع الحاضر وأمل المستقبل ويتواكب هذا الحدث الثقافي مع دور المملكة ومكانتها الرفيعة والتي تزداد اليوم سمواً ورفعة وخدمة مبادئ العدل والحق والسلام في ظل شريعة الإسلام. إن افتتاح هذا المركز سيظل صرحًا ثقافيًا رفيعًا وشاهدًا حضاريًا ساميًا على عمق التواصل الثقافي والحضاري والتاريخي بين الثقافة الإسلامية والأسبانية وسيظل المركز منبراً للحوار والكلمة الطيبة والدعوة إلى الله وتأكيد أصالة الثقافة الإسلامية ومد جسورها وما تحفل به من قيم كريمة ومثل سامية وأهداف نبيلة.

إن الحديث عن الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس حديث مشرق الصفحات وضاء المعالم متنوع العناصر يحفل بصفحات مشرقة ناصعة ودور حيوي جليل ورسالة حضارية خالدة وموروث ثقافي عظيم.

إن أسبانيا حافلة بالأمجاد التي صنعها التاريخ وهي مثار ذكريات للمسلمين كلها مجد وكلها حضارة وآداب وعمران ولقد صورها أحد الشعراء حين مشاهدته لتلك

الأمجاد والاثار قائلاً:

أمـــامي الأمـــجـــاد منثـــورة قـــصـــائداً صـاغـــهـــا شـاعـــر
كـــأنـهـــا أسطورة حـــيـــة يعـــجـز عن تصـــديقـهـــا النـاظر

ولقد كانت قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وملقة، وطليطلة، ومرسية، ورندة، وسرقسطة، وبلنسية دوراً للعلم والمعرفة ذكرها أبو البقاء الرندي في نونيته الشهيرة:

فـاسأل بلنسـية مـاشأن مـرسـية وأين شـــاطبـــة أم أين جـــيـــان
وأين قـــرطبـــة دار العلوم فكم ممن عالم قد سمـا فيهـا له شأن
وأين حـمص وما تحـتـويه من نزه ونهـرها العـذب فـيـاض ومـلآن
قـواعـد كن أركـان العلوم فـمـا عـسى البـقـاء إذا لم تبق أركـان

وكان المسجد الجامع في قرطبة وقصر الحمراء وجنة العريف في غرناطة والزهراء وقصورها وغيرها من معجزات الفن والحضارة قد حملت النور والحضارة وهي أجل من أن تحصر وأكثر من أن تستعرض في هذه العجالة.

وما زال الأسبان يباهون بذلك العصر الذهبي فهو جزء من أهم أجزاء تاريخهم القديم يحتفون بالأعلام كصقر قريش عبدالرحمن بن معاوية وأبنائه وبالفلاسفة والعلماء والأدباء كابن رشد وابن عباد وابن زيدون وابن طفيل والرازي وابن حزم ولسان الدين بن الخطيب وابن عبدربه وعباس بن فرناس وغيرهم من عمالقة الفكر وأعلام الأدب وأئمة الفقه وعباقرة الفن من الأندلسيين فقد أقاموا لهم الاحتفالات وأطلقوا اسماءهم على الميادين العامة واهتموا بدراسة آثارهم وترجمتها وألفت مئات الكتب عن الإسلام والعرب في الأندلس وتعداد مناقبهم وفضائلهم وصيانة التراث العربي الإسلامي على أرضهم.

إن هذا المركز يملأ القلوب اعتزازاً كما يملأها إعجاباً ليتعرف الشعب الأسباني على الإسلام وسماحته وآدابه وتعاليمه ومخاطبته للعقل والقلب والفكر والوجدان وجوانب الحياة المختلفة والتأكيد على سمو الأخلاق حيث قال رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فتحية لهذا المركز ومزيداً من التوفيق والنجاح بإذن الله ليكون واحة خير وسلام ومنارة إشعاع ثقافي وتأصيل المعاني الثقافية التاريخية ونشر الإسلام.

في اليونـــان

استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من الأدباء والمثقفين وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ قديمًا وحديثًا لما للرحلات من فائدة ومتعه بل هي نافذة رحبة يطل منها القارئ على أنماط متنوعة ومعرفة بالآمم والعادات والتقاليد والتاريخ والآداب. كما أنها مصدر للمؤرخ وللجغرافي وللاجتماعي.

هذه الرحلة قمت بها إلى اليونان بلاد الإغريق ذات الحضارة والتاريخ.

وفي فجر يوم الجمعة الموافق ١٤٠٣/٤/١٤هـ أقلعت بنا طائرة اليوينج السعودية، وقد أعلن قائد الطائرة عن الأماكن التي ستطير فوقها في طريقنا إلى اليونان، وأنه يمكننا أن نرى بعض تلك الأماكن وسنطير على ارتفاع ٣١ ألف قدم.

وخلال الطيران لمحنا الكثير من الوديان والجبال والرياض والمزارع الخضراء الواسعة والتي ينطبق عليها قول الشاعر:

الأرض قد كسيت رداء أخضرًا والطل ينثر في رباها جوهرًا

وبعد أن أجتزنا تلك المرابع وجاست الطائرة بين السحاب، ألقيت برأسي فوق مساندها الوثيرة وأرخيت أهدابي، ورحت أسترجع شريط الذاكرة وما وعته من تاريخ تلك الديار العريقة التي عرفناها عبر ترجمات العرب الأوائل.

ففي عصر ما قبل التاريخ انتشرت حضارة بلاد الأغريق، وخاصة حضارة كريت، وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد قضت ميكيني على كريت واحتلت مكانها، ومن ثم عرفت الحضارة في شبه جزيرة البلقان باسم الحضارة الميكينية.

وقد قرأنا أن الظروف الجغرافية في بلاد الإغريق قد فرضت ظهور تكتلات اقتصادية صغيرة، ودويلات اغريقية تطاحنت فيما بينها، وكان أهمها اثينا وأسبرطة، وإن كان هذا الإنقسام، وهذه المنافسة، قد ساعدا على قيام الحضارة الإغريقية، وتقدمها، ونضوج التفكير بين الإغريق.

وتذكرت أن اليونان لم يعرف وحدته الكاملة إلا بعد أن فقد الإغريق حريتهم وخضعوا للرومان (١٤٦ ق.م).

اهتزت الطائرة هزة خفيفة أوقفت لدى شريط الذكريات، فنظرت من النافذة، فإذا البحر الأحمر، فتأملته وغاصت عيناى في زرقته الداكنة، ومع تلاطم السحب مع تلك الزرقة الداكنة تناثرت في خيالي ذكريات الماضي المجيد حيث كانت الفتوحات الإسلامية والحملات البحرية قد وصلت إلى البحر الأبيض بقيادة الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

ثم طاف بي الخيال نحو تطلع الإغريق إلى البحر لاستكمال ما كان يعز عليهم الحصول عليه في بلادهم، ولذلك ترك البحر في نفوسهم أثرًا.

وشهدت القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد انتشار الإغريق في البحار وأنشأوا على شواطئ البحر الأسود والبسفور وبحر مرمرة والدردنيل وترافيا وصقلية وجنوب فرنسا وشمال افريقيا، عددا كبيرا من المستعمرات، كانت مدنا حرة لا تربطها عادة بأمهاتها إلا روابط الدين والحضارة.

وعبرت ثقافة الإغريق مع قوافلهم، فمدرسة بلاد الإغريق قد ازدهر فيها عدد كبير من أبرز الشعراء والكتاب، ومن منا لا يذكر أيسخولوس وسوفوكليس وبوربيدس دعائم الدراما الإغريقية التي نقلها إلى العربية طه حسين وصقر خفاجة وغيرهم، وعندما أخذت قوة أثينا تضمحل احتفظ بمجدها الأدبي كل من أرسطوا وأديستوفان، وأيقظني صوت المضيفة وهي تعلن اقترابنا من مطار أثينا.

وهبطنا في مطارها بعد أن دارت بنا الطائرة عدة مرات فوق المدنية ولبثنا فيه ثلاثين دقيقة ومطار أثينا مطار متواضع ويبدو على العاملين فيه الحرص على سمعه بلادهم؛ فقد كانت معاملتهم لبقة وحسنة وتعلوشفاهم البسمة، وفي ردهة الاستقبال وضعت لوحة كبيرة معلقة لتعرف القادمين بأهم المعلومات عن الأنظمة الخاصة بالنقد وما ينبغي ويسمح به في الدخول والخروج.

وكان بجواري مجموعة من الإخوة السعوديين، فقلت تعقيبا على ما قرأنا :

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه وثالثة في اجتناب الريب

وتوجهنا نحو العاصمة وبدأت السيارة تجوب شوارعها نحو الفندق، وكان جو العاصمة سماء مشرقة صافية الأديم، وكأن السائق قد أراد بطريق غير مباشر أن يرينا عظمة أجداده، فمر بنا في العديد من الشوارع والميادين التي تريك الطابع القديم الحديث؛ فقد بنيت على أحدث النظم المعمارية مع المحافظة على الطابع الإغريقي القديم، رغم إعادة تخطيطها منذ ١٥٠ سنة بعد أن حصلت اليونان على استقلالها، وكنت اليونان قد وقعت كلها في يد الأتراك سنة ١٤٥٦م.

وفي مطلع القرن التاسع عشر ساورت اليونان، أحلام الاستقلال، وبدأت ثورتها سنة ١٨٢١، وساندها أدعياء الحرية في أوربا، فحالفها التوفيق، وحصلت على استقلالها وضمت إلها كريت سنة ١٩١٣م... وتوقفت أحداث التاريخ في خاطري عندما توقف السائق أمام مدخل الفندق المسمى «برزدنت».

وخلال وجودي هنالك تمكنت من زيارة العديد من المعالم والمتاحف والآثار ولعل أهمها وأشهرها هو الأكروبول. وهو عبارة عن مرتفع جبلي تقوم عليه بعض المعابد القديمة، ويقع في الجنوب من مدينة أثينا، يعلو على مستوى السهل حوالي خمسين أو ستين مترا طوله يتجاوز الثلاثمائه متر وعرضه حوالي مائه وخمسين مترا تقريبا، وينحسر جانباه الشمالي والشرقي عن هوة سحيقة، وينحدر جانبه الجنوبي بميل شديد، ولكن يمكن ارتقاؤه من الجانب الغربي، خصص منذ عهد بعيد لإقامة الهياكل لآلهة المدينة ويكتسب أكروبول أثينا مظهراً رائعًا، ببوابته الفخمة وحرسه التقليدي الذي يرتدي الزي الإغريقي القديم.

ووسط اليونان وعلى صخرة اكروكورنثوس التي يبلغ ارتفاعها حوالي ٥٧٥ متراً تقع أطلال معبد أفروديت رمز الحب والجمال والإخصاب في الأساطير اليونانية القديمة، ويقال إنها هي المعبودة الشرقية «عشتروت» وقد لقبها الرومان بـ «فينوس».

ولعل أهم ما تتميز به هذه البلاد هو موقعها في مفترق الطرق بين قارات ثلاث «أوربا وآسيا وافريقيا» - وأجمل ما في الموقع هو بحارها الممتدة وجزائرها المتعددة ومناظرها الطبيعية...

تزدان مدينة أثينا الحديثة رغم تاريخها القديم بالعديد من المتاحف التي يعود بعضها إلى القرن السادس قبل الميلاد، وكان المرشدون يركزون في أحاديثهم معنا على الأساطير اليونانية القديمة التي تحتاج إلى بحث وتدقيق وكذا رووا لنا قصصا عن فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وعن الأماكن التي كانوا يجلسون فيها للدراسة والتعليم. . .

كما قمت بزيارة لبعض المتاحف إذ أن المتاحف في هذا العصر تقدم معارف متنوعة، بل هي مصدر للباحث والمؤرخ. وزيارة المتاحف تختصر على المرء الكثير من الجهد والوقت، ففي مكان واحد يستطيع الزائر أن يتعرف على فترة تاريخية كاملة. ولعل المتحف الوطني أقرب المتاحف لنا، وهو مفتوح من التاسعة صباحًا، يحتوي على أهم الآثار اليونانية وقد عرض معظمها في عرض علمي بديع موزع على قاعاته التي بلغت ستا وخمسين قاعة.

كما قمت بزيارة للمتحف البيزنطي وكذا متحف اثينا الذي يحكي قصة أثينا ويقدم لها صورا خلال تاريخها الطويل.

أما المتحف البحري فتوجد به مخلفات وآثار المعارك البحرية التي خاضها اليونان بحرًا – ولما كانت اليونان تتمتع بميزة لا يضاهيها فيها بلد آخر، ألا وهي كثرة الجزر، فلذلك حرص المشرفون على السياحة بها على أن يتضمن برامجهم رحلات بحرية ممتعة، وقد شاركت ومجموعة من الإخوان السعوديين في رحلات متجهة إلى كل من جزر هيدرا، وبوروس، وايجبينيا . . . ولعل أجمل ما في هذه الجزر هو الهدوء إلى جانب الطبيعة الغناء.

ووجود المركبات التي تجرها الخيول «فايطون» والتي تستخدم للنزهة والاستجمام إلى جانب توفر كافة الخدمات السياحية، هذا ما جعل هذه الجزر تستقطب السياح الذين كنا نصادف أفواجهم الوافدة من كل بقاع العالم، ولم يفت الجهات المسؤولة أن تقيم في هذه الجزر المتاحف التي رغم بساطتها تنمي الشعور الوطني لدى المواطنين إلى جانبها الثقافي للسائح، فكانت كل هذه الأشياء إلى جانب ما تزدان به هذه الجزر من أشجار مختلفة، وزهور متناسقة، وطيور

متناغمة مما يبعث في النفس روعة مشاهد الجمال.

ولم تستأثر الجزر وحدها بكل الرحلات، بل جرى تنظيم رحلات برية إلى بعض الأماكن الشهيرة بواسطة حافلة، حيث ذهبنا إلى دلفي عبر سهول بوتبيا الخضراء، وعندما اقتربنا من بلدة بوتبيا استرحنا قليلا ليشرح لنا المرشد علاقة هذه البلدة بالمسرحية المعروفة «عقدة أوديب».

كما مررنا بمدينتي ليفاديا وآرخوما الشهيرتين بصناعة السجاد والبساط الملون، حتى وصلنا إلى مدينة دلفي مركز العالم القديم كما يطلقون عليها، ولم يفتنا فيها زيارة متحفها الظريف الأنيق إلى جانب أطلالها العريقة ومشاهدة جبل بارناسوس المطل على مناظر جميلة خلابة.

والمواطن اليوناني بشوش الوجه، رغم ما يبدو على مظهره من البساطة، فهو سعيد بيومه مستمتع بوقته ولذلك تجد المطاعم والمقاهي والمكتبات والمعارض والمتاحف مكتظة بمن فيها تبدو عليهم - كما في مدنهم - الأناقة والنظافة وعدم كراهية الغريب وبعد تمضية بضعة أيام في ربوع اليونان الحافلة بالمتعة الفكرية والفوائد التاريخية غادرتها والنفس مفعمة بجميل الذكريات.

في قبـــــرص

في يوم الأثنين من غرة شهر صفر ١٤١٢هـ حزمت حقيبتي في عجلة وحملتها إلى المطار وامتطيت الطائرة إلى الظهران ثم إلى قبرص ولم تزد اقامتي على اربعة أيام ولكنها كانت اياما حافلة على قلتها حيث حرصت على الاستفادة من كل ساعة فيها حيث شاهدت الكثير من مناظرها ومعالمها التاريخية خاصة وأنها قد شهدت حضارة متقدمة تأثرت كثيرًا بالإتصال مع المشرق وطاف بخاطري وأنا اتجول في ربوعها تاريخها الإغريقي والإسلامي فقد كانت قديما إحدى المستعمرات اليونانية ثم تداول السيطرة عليها الفرس ثم الرومان ثم البيزنطيون وبعد ذلك فتحها العرب على يد معاوية بن أبي سفيان زمن الخليفة عثمان بن عفان نظرًا لأهمية موقعها ولتأمين فتوحات المسلمين في الشام وافريقية وظلت كذلك قاعدة للمسلمين إلى أن استولى عليها الأتراك العثمانيون ١٥٧١م وبقيت في حوزتهم نحو ثلاثة قرون إلى أن تنازلت عنها لبريطانيا عام ١٣٣٢هـ / ١٩٥٩م على أن يكون لكل من الطائفتين التركية واليونانية حق الإشتراك في إدارة شئون البلاد دون تحيز بينهما وبعد استراحة في الفندق خرجت مع أحد الأخوة السعوديين للتمشية والتفرج وماكدنا نستقر في أحد الأماكن في نيقوسيا حتى وافانا مجموعة من الأخوة السعوديين ومعهم أحد أبناء هذه الجزيرة فقلت هذه فرصة اتعرف من صاحبكم على هذه البلاد ولكن تبين أنه لا يحسن من العربية إلا مقدارًا قليلاً وكذلك الإنجليزية ولكنه يحسن التركية التي لا نحسن منها شيئًا وصحبنا الأخوة في التجوال على بعض معالم الجزيرة كما قمنا بجولة في ارجاء لفقوشة وقضينا ذلك اليوم ومساءه فيما بين لفقوشه وجرنه – حيث شاهدنا المجتمعات السياحية حيث تجمع بين الجبل والشاطئ كما قمنا بجولة في الشطر الإسلامي من الجزيرة.

وما أن رأنا الأخوة الأتراك حتى انبسطت اسارير وجوههم واستقبلونا بتحية الإسلام خاصة بعد أن عرفوا أننا من السعودية مهوى أفئدة المسلمين كما صلينا

ظهر ذلك اليوم في مسجد«أيا صوفيا» وهو أقدم مسجد معروف في قبرص وقد كان كنيسة قبل ذلك وقد دخل في ملك المسلمين منذ أكثر من اربعة قرون منذ الفتح العثماني للجزيرة وهو على الأسم نفسه الذي بنيت له كنيسة «ايا صوفيا » في استانبول كما شهدنا مجموعة من المساجد وأخبرنا المرشد بأنها كانت أغلبها كنائس قبل التقسيم الأخير فصارت مساجد.

كما قمنا بزيارة لبعض القرى مثل «كوزيل بورط» وبها مسجد كتب عليه اسم الفاتح أدينا فيه صلاة العصر وكان إمامه تركيا ولكم يتأثر المرء حينما يرى أغلب المساجد مهجورة إلا من عدد ضئيل جداً حيث أغلبهم لا يفهمون الإسلام الذي كان تاجا ونوراً لهذه الجزيرة منذ أربعة عشر قرناً على يد الأفواج الأولى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم الأنصاري «عبادة بن الصامت والصحابية الجليلة «أم حرام» وغيرهم التي لا يزال قبرها معروفاً في القسم اليوناني وشاهداً على انتشار الإسلام فيها ولقد دمر الكثير من المساجد والآثار الإسلامية... إنه لأحد مواطن الإسلام الجديرة بالإهتمام من المسلمين وتوعية أبنائهم بمفاهيم الإسلام وحقائقه ومساعدتهم على الوعي بأهميته وإدراك رسالته.

إن قبرص جزيرة تبلغ مساحتها عشرة ألاف كيلاً وعد سكانها حوالي مليون نسمة منهم نحو الثلثين من اليونانيين المسيحيين والباقي من الأتراك المسلمين أما اللغة السائدة فهي الإنجليزية والجزء الأكبر من هذه الجزيرة جبال عالية كما أن هناك مناطق زراعية ممتدة في ارجائها وتقع في نطاق مناخ البحر الأبيض المتوسط وهي مركز لتجارة الحاصلات الزراعية.

وفي ضحى اليوم الثالث قمنا بزيارة إلى كل من «فأما حوستا وليماسول» وهما ميناءان على السواحل الجنوبية وبعد جولة في تلك المناطق امتطينا السيارة إلى نيقوسيا العاصمة وتقع في وسط الجزيرة والتمتع بمشاهدة الطبيعة مرددا قول الشاعر :

وبعض الجمال يثير الشجون وفي بعضه نشوة وشكر
وأبلغه ما أمات اللسان وراح الشعور به يزخر

وعلى وجه العموم فهذه الجزيرة تمتاز بمناظرها الطبيعية الجميلة فكلها ترتدي حلة سندسية خضراء وجؤها معتدل جميلٌ والبحر يداعبها من ناحية الجبل ويضفي عليها رونقًا وجمالاً.

وهكذا امضينا اياما جميلة بين مدنها نيقوسيا وهي مركز قبرص الإداري والثقافي والتجاري.

وليماسول ثاني أكبر مدينة في قبرص وتمتاز هذه المدينة بمناظرها الخلابة ولارنكا والتي أصبحت مرفأ هامًا ومركزًا سياحيًا جميلاً.

وناقوص في أقصى غرب قبرص حيث تقع في إحدى الجزر ويفد إليها أعداد كبيرة من السياح من عشاق الهدوء والراحة.

وايانابا منتجع صغير تحيط به الحدائق والنخيل والمناظر البديعة وبلاترس وترودس الواقعان على منحدر جبل مرتفع على سطح البحر وغير ذلك من المعالم والبلدان والجزر الجميلة.

وكانت الساعة الثالثة ظهرًا موعدًا للخروج إلى المطار حيث انطلقت بنا السيارة ولبثت اكثر الطريق اتأمل في تلك المناظر والمعالم الخلابة بروح الاعجاب حيث نفارقها ولا نستطيع ان ننساها فكنت أردد قول القائل.

تمتع من نسيم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

حتى وصلنا المطار ومضيت خلف حقيبتي لانهاء معاملة السفر ثم توجهت لقاعة المسافرين وودعت صحبي من الأخوة الذين تعرفت عليهم في هذه الجزيرة وقد أبوا أن يفارقوني إلا حين ركوب الطائرة وصعدنا الطائرة التي حلقت بنا في أجواز الفضاء وفوق متن الغمام في جو هادئ وسماء صافية استعرض في ذهني زيارة هذه الجزيرة وتاريخها وما شهدته من نور شع بين أرجائها غير وجه التاريخ حيث امتدت الفتوحات الإسلامية وبلغت الشرق والغرب من جهاد أبطال الإسلام الذين وهبوا لله نفوسهم في نصرة الحق وإعلاء كلمة الله ونظرت إلى من حولي من ركاب الطائرة فرأيتهم يغطون في نوم عميق حتى صاحبي الذي كان

في جواري أتحدث معه لم يلبث أن شاركهم . . أما أنا فلم تجر العادة أن يجد النوم سبيلا إلى عيني في الطائرة فظللت أشاهد الفضاء الواسع .

وكما قال أبو الطيب ، إذا مضى علم فيها بدا علم .

وبعد ساعات من الطيران هبطنا برعاية الله في مطار الظهران الدولي ومنه إلى الرياض حيث حططنا الرحال والتقطنا الأنفاس بعد سفر طويل وما أجمل الوطن بعد الأغتراب ، وكما قال ابن الرومي في حب الوطن:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ... وألا غيري له الدهر مالكا
وحبب أوطان الرجال إليهموا ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهموا ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وقول الآخر:

يابلادي أنت عندي ... جنة الله الهنية
فيك بيت الله تهفو ... نحوه النفس الزكية

رحلة إلى ألمانيا

إن أدب الرحلات أدب شهي لذيذ بما يقصه من ذكريات وأخبار ومعلومات عن أحوال الأمم وما تتميز به من عادات وتقاليد. . ولقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات العالم قديمًا وحديثًا وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ فتركوا لنا فيه ثروة تعتبر من أهم روافد الثقافة على إختلاف مناهج الرُحَل من أجناس العالم.

وفي صباح يوم ١٤٠٦/١١/٢٣هـ بعد زيارة للنمسا غادرناها صباحًا وبدأت رحلتنا لألمانيا. . وعلى متن إحدى العربات السياحية وضعنا أمتعتنا وتهيأنا للسفر مرددًا قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

ولما قضينا من مِنًى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الاباطح

وشدت على «دهم المرسيدس» رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

ولقد اخترنا الرحلة بالسيارة لنتمكن من الرؤية والإحاطة والإطلاع بشكل أوسع.

وجمعتنا الرحلة مع مجموعات شتى من مختلف البلدان وبالطبع فلابد من الاندماج والتعرف على هؤلاء، وذلك بالبدء بتحيتهم والتعارف معهم كما قال شاعرنا العربي:

قد يمكث الناس حينًا ليس بينهم ود فيزرعه التسليم واللطف

وقد أخبرنا المرشد أننا سوف نصل الحدود النمساوية الألمانية بعد سير نصف ساعة. وبعد أن وصلنا الحدود كان الوقوف بضع دقائق. . لم نهبط من سيارتنا أو يُطلب منا فتح الحقائب وهكذا في جميع البلدان الأوروبية التي مررنا بها.

ثم واصلنا المسيرة في داخل الأرض الألمانية وكانت الساعة التاسعة صباحًا والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار رغم أننا في شهر أيلول.

فالأرض قد كسيت رداء أخضرا والطل ينثر في رباها جوهرا

ووصلنا إلى بلدة «قوقن» الألمانية حيث تناولنا الإفطار في أحد مطاعمها ودفعنا لهم الثمن بالشلن النمساوي، إذ لم نكن بعد قد استبدلنا الدولار بالمارك الألماني. وقد أخبرونا بأن الشلن مقبول الدفع في الكثير من المدن الألمانية ثم توجهنا إلى قلعتها السياحية فوجدناها مليئة بالسواح من مختلف الأمم، ثم واصلنا الصعود في سيارات سياحية خاصة بالصعود إلى تلك المناطق التي تقوم الجبال العالية على جوانبها وكان الطريق ضيقًا ومرتفعًا بشكل لا يسمح بمرور سيارتين حتى وصلنا إلى جبل شاهق أخبرونا أنه كان مقرًا للقائد الألماني «هتلر».. ثم صعدنا بواسطة مصعد وسط الجبل لمشاهدة استراحة هتلر وموسوليني والمقر الذي كانا يلتقيان فيه وقد حُوِّل إلى منطقة سياحية تحف به المطاعم والمقاهي وأماكن لبيع التحف.

ثم عدنا مع ذلك الطريق المرعب وصادف أن التقت العربة التي نستقلها بعربة أخرى فأخذ كل منهما يدنو إلى حافة الجبل الشاهق، وقال المرشد: ان هذا الموضع يسمى مكمن الخطر فكم من سيارة تدحرجت في أرجائه، فقلنا: وما دمتم تعرفون صعوبة اجتيازه وخطورته وضيق ممراته فلماذا تذهبون بنا إليه؟ وليس هناك ما يدعو إلى هذه الرحلة التي تشد الأعصاب.. ولكنكم أيها الأوربيون مفتونون بالبحث وركوب الخطر لأمور ليست ذات بال. وبعد أداء الامتحان المروري الرهيب لسائق عربتنا صفق الجميع لمهارته وقدرته على السير على حافة الجبل.. ثم توجهنا بعد ذلك إلى مدينة «قوقن» التي تركنا فيها سيارتنا وصعدنا فيها شاكرين الله على السلامة والعافية.. وواصلنا السير صوب مدينة «انسبرك» في جوٍّ بهيج جميل حيث طاف بي الخيال في أغوار التاريخ فنحن في ألمانيا بلد الصناعات العملاقة وضجة التاريخ، وتذكرت بسمارك وهتلر وما عانته هذه البلاد من ويلات الحروب والشقاء حيث خرجت من الحرب بأسوأ نصيب وفقدت الملايين من أبنائها ودمرت حضارتها وعمرانها فقد أثخنتها الحرب العالمية الثانية بالتدمير والتخريب.. وهكذا كنت أستعرض في ذهني ذكريات شتى عن هذه البلاد ماضيًا وحاضرًا حتى صحوت من تخيلاتي وأفكاري على صوت الدليل السياحي الذي أخذ يحدثنا عن ألمانيا وتاريخها ومصانعها والهزيمة الألمانية في سنة

١٩٤٥م، حيث اصبحت أمة مجزأة مقسمة وانتصار الحلفاء وما عانته برلين من تخريب جسيم وتقسيمها وضياع دورها كعاصمة مزدهرة بالأمس.. حقًا إن انتصار المعارك والدماء والدمار لم يخلد هولاكو ولا الاسكندر المقدوني ولا نيرون أو هتلر أو غيرهم لأن نهايتهم تعيسه.. وما أكثر ندم من غلطوا في حق أممهم وأوطانهم وأثاروا الفتن والدمار لبلادهم. وألمانيا اليوم مؤلفة من إحدى عشرة مقاطعة وهذه المقاطعات متفاوتة في نشاطها وثرائها واقتصادها ومعاملها ومصانعها.

وخلال سيرنا كنا نشاهد الطرق الواسعة والغابات بأشجارها الكثيفة.. ووصلنا مدينة «انسبرك» حيث توجهنا صوب فندق «بيلفير» في وسط المدينة وبعد استراحة استغرقت ساعة.. ذهبنا في جولة لأطراف المدينة لزيارة ما أمكن رويته من معالمها، كمتحفها القومي وحدائقها والمدينة القديمة وأهم شوارعها.. ثم عدنا للفندق حيث أمضينا تلك الليلة بها. وفي الصباح شددنا الرحلة لزيارة المزيد من المدن الألمانية والتعرف على هذه البلاد التي تبلغ مساحتها ٩٥,٧٩١ ميلاً مربعًا، أما السكان حسب آخر إحصاء (٦٢,٧٥٠,٠٠٠)، وعاصمتها بون ولغتها الألمانية.. ولقد انتعشت ألمانيا اليوم اقتصاديًا انتعاشًا مرتفعًا وتبوأت مكانتها بين الدول الغربية.. فهي عضو بارز في المجموعة الاقتصادية الأوربية. ولقد لا حظنا قوة المارك الألماني في مختلف أسواق النقد العالمي فهو عمله صعبة.. والدخل لدى الفرد الألماني مرتفع كما أن حالتهم المادية والإجتماعية جيدة. ولقد لاحظت غلاء الحياة وارتفاع الأسعار بالنسبة للسلع والكماليات وأسعار الفنادق والمطاعم.

وخلال فترة تجوالنا في العديد من المدن مثل «هامبورغ وكولون وميونيخ وراين كوز ورثمبورغ وفرانكفورت ومنايم وهايد لبرج هلون ديسبورج» وغير ذلك لاحظت ما تزدان به من طبيعة خلابة ومشاهد مثيرة.. ومعالم تاريخية وصناعات قوية.

وفي ألمانيا الغابات الكثيفة الموجودة في المرتفعات وهي من أشجار الصنوبر والزان وغيره كما أنها في جبال الألب.. وكل ما شاهدناه يوحي بعضه ببعض

من المدن والقرى والأرياف.

وفي ألمانيا أكثر من خمسين جامعة أقدمها جامعة هايدلبيرج التي أنشئت سنة ١٣٨٦م.

في كثير من المدن كنا نحرص على أن نمشي على الأقدام لمشاهدة ما وصلت إليه هذه البلاد من رقي وعمران وصناعة وحضارة والتعرف على المعالم والآثار والقلاع والحصون . . . وهذه المدن تبرز في مستوى واحد من النهضة والعمران وطراز موحد في البناء وأسلوب الحياة.

ولقد حققت ألمانيا نهضة صناعية ونشاطًا اقتصاديًا. والشعب الألماني شعب قوي . . . يحب العمل والإنتاج والكفاح نساء ورجالاً.

إن حركة التعمير التي أعقبت الحرب كما حدثنا أحد الإخوة الألمان أضفت على الكثير من المدن أحياء عصرية الطراز وخطط إسكان واسعة . . . وفي هامبورغ الواقعة على نهر الألب يوجد أهم الموانئ الألمانية وفيها صناعات هامة لا تقل عن ميونيخ . . . كما أن كولون الواقعة على نهر الراين التي دمرتها الحرب وأعيد بناؤها من جديد تعتبر من المدن الهامة . . . أما فرانكفورت فهي العاصمة التجارية . . . إذ تحتوي على المراكز الرئيسية لجميع بنوك ألمانيا الغربية وبيوتاتها المالية بالإضافة إلى العديد من الشركات والمؤسسات الصناعية.

حرصت خلال زيارتي لمدينة فرانكفورت على زيارة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية . . . ولكن إقامتنا كانت قصيرة . . . وصادف المرور بها في نهاية الأسبوع . . وهذا المعهد كما قرأت عنه يعمل على نشر المخطوطات وعلى توسيع نطاق المعرفة عن إنجازات العلماء العرب والمسلمين ليبين مكانتهم الخاصة في تاريخ العلوم . . . كما أن له مجلة علمية هي «مجلة تاريخ العلوم العربية الإسلامية» . . . وقد صدر المجلد الأول لها في عام ١٤٠٥ - ١٩٨٤م وهي تحتوي على ٣٣٥ صفحة من الأبحاث باللغات الأوربية مع تخصيص ٨١ صفحة باللغة العربية.

وبالطبع فألمانيا الغربية اليوم ثاني أكبر دولة منتجة في أوروبا . . . كما أنها

الدولة الثانية في العالم بعد أمريكا في صناعة السيارات... كما أن الغابات الموجودة بها تمثل مصدراً تجارياً كبيراً. وتزداد مساحة الغابات في المناطق الجنوبية... كما أن نهر الراين وروافده يشكل ثروة هائلة... لذا فكم يستمتع المرء برحلته بالسيارة رغم طول المسافات... إذ تمر الساعات كلمح البصر... حيث يتنقل بين الاستراحات الغابات والتلال والأودية والمروج الخضراء التي تزدان بالمياه في أغوارها... وكذا البساتين والحقول المنسقة البديعة والتي هي متعة لعين الناظر وبهجة لنفس المتأمل وتسلية للقلب والوجدان... وكذا القرى والبلدان المنتشرة بمبانيها الجميلة في أعالي الجبال وسفوح التلال فما أطيب الربى وأحسن المصطاف، وأجمل المرابع والمناظر والنتزهات.

وفي ألمانيا الخطوط الحديدية التي تصل كل بلدة وقرية... وتجد فيها الحركة الهائلة حيث تموج بالبشر المسافرين والعائدين من مختلف النواحي ومنها ما يسير في جوف الأرض وآخر فوق الأرض... كما أن هناك شبكة ممتازة للطرق تواجه هذا التقدم في حركة المرور وكثافة السيارات... وهكذا كل شيء يعمل ويتحرك بسرعة... الرجال والنساء والصغار والكبار والكهول... فالحياة عمل متواصل وجري سريع فمن لم يعمل ويكدح فلا مكان له... كما أنهم أمة تحترم النظام وتحرص على المحافظة عليه.

ومع ما في هذه البلاد من جمال ومناظر رائعة ورقى وحضارة... غير أن هناك سقوطًا أخلاقيًا في كل ديار الغرب واختفت فيها المثل والقيم... فقد ضاقوا اليوم بهذه الرذائل وصاروا يبحثون عن النجاة لشبابهم وشاباتهم من شرورها... فأكثر شباب الغرب اليوم كما لاحظت تائه لا يجد له ملاذًا غير المجون والمخدرات والتسكع في الشوارع والمحطات... فلا المدرسة قادرة على توجيهه، كما أن البيت غير قادر على إصلاحه والحنو عليه نتيجة التفكك الأسري والخواء الروحي، ولكم تذكرت وأنا أشاهد المزارع والحقول والأشجار والمباني في هذه البلاد قول القائل:

إن مرآى القيصوم والشيح والحو ذان أشهى من زخرفات المباني
وتصورت بلدتي ورباها وهواها وطيب تلك المغاني

في إيطاليـــــا

غادرت ألمانيا متوجهًا إلى إيطاليا في صبيحة يوم حافل بالحركة والنشاط ٢٩-١٤٠٦/١١هـ واتجهنا صوب الحدود الإيطالية وبعد أن توقفنا قليلاً عند بوابة الدخول وقدمنا جوازتنا للموظف الذي أعادها في الحال عبرنا الحدود ودخلنا إيطاليا واجتزنا طريقًا تكثر فيه المرتفعات والتعاريج والالتواءات الجبلية، لقد اجتهد الإيطاليون كثيرًا في شق الطرق وسط الجبال حيث مررنا بأكثر من ١٧٠ نفقًا ومثلها جسور معلقة تضج بالحركة والنشاط ومررنا بعشرات القرى والبلدان التي تزدان بالحدائق النضرة والتي لا تفتر الحركة فيها والمصانع تنفث دخانها... وألوان من الناس وأشكال شتى من البشر وزحام شديد في محطات الاستراحة من السائحين من مختلف الجنسيات وتسمع مختلف اللغات وتشاهد شتى الملامح.

وكانت السماء صافية والشمس طالعة وواصلنا السير في أرض مستوية تتخللها بعض التلال والأودية.

وتنقسم إيطاليا إلى مجموعتين فإيطاليا القارية عبارة عن سهل فسيح يحيط به جبال الألب أما إيطاليا الممتدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط فهي تتكون من شبه جزيرة طويلة تشكل سلسلة جبال، وكنا نشاهد جبال الألب الإيطالية والمياه الغزيرة التي تصل منها.. كما أن شبه الجزيرة الإيطالية كانت عرضة للزلازل.

وتجمع هذه البلاد بين مناخات متعددة وفصول متباينة في الشمال والجنوب... وسكانها أكثر من ستين مليونًا ومساحتها ٣٠٠.٠٠٠ كيلا.. زرنا خلال جولتنا في هذه المناطق كلا من (جنوا التي تجولنا في ربوعها) ثم (نابولي) وهي مدينة جميلة وميناء هام لأنها على مقربة من روما وبها المصانع والمعامل والشركات وبها البيوت المختلفة الأحجام والأشكال... وكان الجو يغري بالنزهة تجولنا في متاجرها ومعروضاتها وشوارعها الفسيحة ثم توجهنا إلى مدينة (بيزا) الثغر الجميل حيث التاريخ والمناظر القديمة وجمال منظر النهر الذي يخترقها والحركة السياحية النشيطة الدائبة في المدينة القديمة بمطاعمها المتناثرة على الأرصفة.

كما قمنا بزيارة إلى برج بيزا الشهير وقد عد من عجائب الدنيا السبع.. وقد كان العالم (جاليلو) يلعب بالحصى من أعلى البرج حتى اكتشف قانون الجاذبية... ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى مدينة (فلورنسا) وهي مدينة مفعمة بتاريخها المعماري والفني وفي فندق «الأسكندر» وهو فندق سياحي جميل كان مقامنا وكان المطر ينزل خفيفًا حينئذ والسماء متلبدة بالغيوم وكان مثل هذا الجو لا يسمح لنا بالتجول براحة فبقينا في الفندق وأمضينا تلك الليلة... وفي الصباح رحنا نتجول في بعض أحياء المدينة ونشاهد المعالم والصناعات اليدوية المحلية والأسواق القديمة... وكانت المدينة تعج بالسياح والزوار وبعد تمضية يوم في ربوعها توجهنا نحو الريف الإيطالي ومررنا بعشرات القرى وسط السهول الفساح المترامیات والحقول والمروج ثم يأخذ الطريق نحو الجبال والمرتفعات حيث الأنفاق والجسور المعلقة بحيث يطل المرء على المدن من علٍ وبشكل رائع وجميل وكنا نشاهد القلاع والجبال وبجانبها مصانع الرخام.

وفي مدينة «جيتو» توقفنا بها لتناول طعام الغداء ثم قمنا بجولة في ربوعها وأطرافها وكم يستمتع المرء بالرحلات البرية حيث يتمكن من مشاهدة الطبيعة الساحرة الخلابة... وفي إحدى الإستراحات السياحية التقينا بأحد الإيطاليين فحدثنا عن مدينة بيزا وقال إنه من أبنائها فأخبرناه أننا كنا بالأمس في زيارتها.

فقال : وهل أكلتم «البتزا» الإيطالية التي اشتهرت بها تلك المدينة ومنها شاعت في العالم... ثم سألته عن برج بيزا وأن هناك مرشدًا سياحيًا أخبرنا بأن البرج على وشك السقوط ولقد زرت البرج من داخله فلم أجد فيه ميلانا كما يشاع وقد صعدنا إلى شرفة البرج العالية حيث شاهدنا الحدائق الغناء ومنظر المدينة وميناءها الشهير وقد كان له دور في الحروب الصليبية وله دور نشط في التجارة بين الشرق والغرب وقد بنى البرج عام ١١٧٥م... وقال الإيطالي أن حكاية السقوط قد أصبحت شائعة منذ أوائل هذا القرن عندما لاحظ العلماء أن الميلان يزداد في كل عام ولميلان هذا البرج يعود فضل اكتشاف قانون الجاذبية وسرعة سقوط الأجسام وأن الأهتمام من العلماء بالبرج قد بدأ منذ أكثر من سبعين عامًا حيث شكلت لجنة من الأخصائين لمعرفة أنظمة وقوانين هذا البرج وفحص مواده

وعمارته وهناك من اقترح تفكيك البرج وإعادة بنائه من جديد بعد ترسيخ قاعدته وهناك من يطمئن الناس بسلامة البرج.

والواقع أن مثار الدهشة هو ميلان البرج وهو مثار الجدل بين العلماء والسياح... وأفاد بأن أول من عالج الميلان عام ١٢٧٣م مهندس إيطالي يدعي «جوفاني سيموني».

وتوجهنا بعد ذلك إلى مدينة «جيتو» وزرنا معالمها وهي مدينة صغيرة وبها شارع كبير تموج فيه الحركة والنشاط ثم واصلنا السير إلى مدينة «سورينتو» حيث وصلناها الساعة السابعة والنصف مساء وهي مدينة جميلة تقع على شاطيء البحر الأبيض المتوسط... وتكتظ بالسياح وتزدان بالحدائق والمتاجر والشاطئ الجميل... حيث شاهدنا صيادي الأسماك.

وقمنا برحلة إلى جزيرة (كابري) وتقع قرب المدخل الجنوبي لخليج نابلي في جنوب إيطاليا في مواجهة شبه جزيرة «سورينتو» والجزيرة عبارة عن كتلة منعزلة من الحجر الجيري بطول ٦,٢٥ كيلو متر وبأقصى عرض ٢,٨٠ كيلو متر مساحتها عشرة كيلو مترات مربعة ويرتفع جبل سولارو إلى ١٩٣٢م قدمًا وتستخدم تعاريج الشاطئ كمراسي للسفن، والمرسى الكبير يقع على الشاطئ الشمالي ويحميه حاجز للأمواج ويقع المرسى المفتوح (مارينا بيكولا) في الجنوب وهو يستخدم في حالة هبوب الرياح الشمالية بقوة.

والجزيرة مسكونة منذ ما قبل التاريخ، ثم أصبحت مستعمرة يونانية ثم منتجعًا للأباطرة في بداية عهد الإمبراطورية الرومانية فقد أقام الإمبراطور أغسطس هناك كما بنى الإمبراطور تيبيريوس عدة فيلات إحداها فيلا لوفيس على القمة الشمالية الغربية المطلة على نابولي وقد تم الكشف عنها خلال الحفريات الأثرية.

وحين خاف سكان الجزيرة من هجمات القراصنة في القرن العاشر انتقلوا من مساكنهم على ساحل البحر إلى المدينة الحالية وهي (كابري) في الشرق و(آناكابري) في الغرب أعلى الشاطئ ولا يمكن الوصول إلى المدينة الثانية إلا عبر طريق البحر إلى أن تم بناء طريق للعربات في القرن التاسع عشر بين

المدينتين – وكان – قبل بناء الطريق يلزم صعود سلم من ٨٠٠ درجة يطلق عليه السلالم الفينيقية. . وخلال العصر الوسيط كانت كابري تابعة لكنيسة فونت كاسينو وإلى جمهورية (امالفي) قبل أن تنضم إلي مملكة نابلي وقد تبودلت بين الفرنسيين والإنجليز عدة مرات خلال الحروب النابليونية قبل أن تعاد إلى مملكة المصنفليتين عام ١٨١٣م وقد وجدت أدوات حجرية في أحد الكهوف في الشواطئ الصخرية التي تحيط بالجزيرة وأشهرها هو الكهف الأزرق الذي أعيد أستكشافه عام ١٨٢٦م ولم يمكن الوصول إليه إلا بالقارب ويعطي ضوء الشمس الذي ينعكس من صفحة الماء إلى مدخل الكهف منظراً غريباً من الضوء الأزرق ومن هنا اشتق الأسم. . . كما توجد آثار قلاع من العصور الوسطى مثل قلعة باربا روس وقلعة كاستيليون وأقدم الكنائس كنيسة القديس كوستانزو الرئيس الروحي للجزيرة وقد أقيم في مكان فيلا تيبيرويس فيلا أخرى تسمى فيلا سانت ميشيل بناها الكاتب السويدي «اكسيل مونت».

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت كابري إحدى أشهر المنتجعات في جنوب إيطاليا نظراً لمناظرها الرائعة وطقسها المعتدل والخضرة النضرة وبها أنواع عديدة من الطيور المهاجرة تحط هناك لعدة أيام.

وترتبط كابري بنابولي وسورينتو بخدمات القوارب البخارية وإلى جانب السياحة هناك النشاط الزراعي وصيد الأسماك.

وبعد زيارة جزيرة سورنيتو – كابري زرنا ميدان القرية الملونة ثم عدنا بالمركب إلى سورنيتو حيث أقمنا في فندق «كاساراوجت» بعد رحلة يوم على ارتفاع مئات الأقدام في الجبال ووسط المغارات في البحر. . . وقد كان البحر هائجاً مخيفاً وتزدحم هذه الجزر بآلاف السياح. . . والواقع أن إيطاليا محور جذب قوي للسياحة بحكم آثارها ومناخها وشواطئها وجزرها ومرتفعاتها الجبلية ومدنها الريفية ذات الطبيعة الرومانية وطبيعتها ومناظرها الجميلة والأنهار والبحيرات والأطلال والمناظر التي تعود إلى حضارة تلك البلاد وما مر بها من تطور ثقافي وفني، ولتاريخها البعيد وانتشرت ثقافتها عبر معظم بلاد أوروبا والبحر المتوسط. . . وما كان للرومان والإغريق من آثار وحضارة وتجارة

وفنون ومخترعات...

وبعد تمضية وقت غير قليل غادرنا مدينة «سورنيتو» إلى ميدان القرية الأثرية ثم زيارة المناظر والمشاهد التاريخية في «بومبي» عاصمة الرومان... وقد دفنت هذه المدينة نتيجة ثورة أحد البراكين وبدأ حفرها في القرن الثامن عشر وهي تضم أشياء كثيرة عن آثار الرومان وتاريخهم وقد مكثنا فيها فترة من الوقت... ثم واصلنا السير ومررنا ببلدان كثيرة وقرى وحدائق وبساتين وبحيرات وجبال وأنهار وأودية وغابات قبل أن نصل إلى العاصمة روما التي برزت بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية كعاصمة للمسيحية وقد كانت «تورينو» خلال حقبة طويلة عاصمة لإيطاليا وهي اليوم أحد المراكز الهامة لصناعة السيارات، وقد تجولنا في مرافقها السياحية ومعالمها التاريخية.

ووصلنا العاصمة بعد الظهر وتوجهنا صوب الفندق «فيلا بامفيلي» واستقر المقام بنا فيه حيث الهدوء والمرافق السياحية، ويطل على مناظر بديعة وغابات رائعة، كما قيل: يستجلب العين منها حسن رونقها.

وخلال الطريق إلى روما كان الطريق ممتعًا وجميلاً ومليئًا بالحركة وتذكرت قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندسا وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا

ومررنا بالجسور والمزارع والبحيرات والبساتين التي تمتلئ بالزهور ومنها بكثرة ما نسميه «عباد الشمس» يستخرجون منه الزيوت النباتية وغيرها من المأكولات وقد شاهدنا ذلك في مناطق أخرى من أوروبا وكنت أستغرب من كثرته وتعدد زراعته على هذا النحو وقد سألت أحد الإيطاليين فعدد لي مزاياه وفوائده الإقتصادية.

ولم تكن روما بالنسبة لي مدينة جديدة فقد سبق أن زرتها قبل هذه الريادة عام ١٣٩٣هـ وكذا عام ١٣٩٥هـ ولكن هذه المرة جئتها من البر بعكس الزيارات السابقة كانت من الجو وما أعظم الفارق من حيث الفائدة والاطلاع والتعرف على طبيعة البلاد وحياتها وعمرانها وأوجه الحياة في قراها ومدنها وأحوالها

وطبائع شعبها وعاداتهم وتقاليدهم ولا شك أن السفر بواسطة السيارة فيه عناء وطول وقت وتصحبه متاعب لكنه متعة وفائدة حيث يتمكن المرء من التجوال والإطلاع الواسع على المعارف والآثار والتقاليد والمقومات الحضارية وشتى ألوان المعرفة المختلفة.

وفي روما يشاهد المرء الآثار والمعالم والمتاحف والمعاهد والأماكن الأثرية القديمة والقصور التاريخية وأينما اتجه السائح سيجد ما يستحق النظر ويملأ العين بما يغري بالمشاهدة... فالمرء أمام تاريخ ممتد طويل عبر آلاف السنين إلى جانب الحدائق العامة والميادين وأماكن الفنون... وهم في الواقع يهتمون كثيراً بالآثار والفنون لدرجة أن المباني التي مضى عليها أكثر من مائة عام تصبح أثراً يجري ترميمه ويعوض أصحابها... وقد حكى لنا ذلك أحد المرشدين السياحيين التابع لإدارة الآثار وروى أموراً كثيرة في هذا المجال وقلت له إن آثاركم تدل عليكم فحرصكم على صيانة الآثار جعلها مدينة بل عاصمة الآثار والفنون حتى الصخور حافظتم عليها من خلال النحت وحفر الأعمدة وكتابة النقوش عليها ولكن ينبغي أن تدركوا أن العرب سبقوكم في هذا الميدان الذي تفتخرون بأنكم رواده فقد نحت العرب الجبال وجعلوها سكناً وهو نحت ذكره المؤرخون من بلادكم بأنه لا يوجد له مثيل فالتفت الجميع من شتى الوجوه السياحية وصفقوا لهذه المقارنة العلمية التي لم يستطع الإيطالي أن ينكرها والتفت إلي أحد الأخوة التونسيين فقال هكذا يكون الإعلام والدعاية لأمتنا وتاريخها.

فقلت لقد صبرت على مكابرة ومغالطة المرشدين السياحيين هنا وفي اسبانيا بحيث ينسبون كل تقدم وعلم لهم وحدهم ويسلبون أسلافنا كل علم ومعرفة، ولعل من يقرأ كتاب (الفن العربي في أسبانيا وصقلية) للمستشرق الألماني «فون ساك» (١٨١٥-١٨٩٤) يدرك ذلك.

وبعد: إن الزائر لروما سيشاهد شتى المناظر الطبيعية الجميلة والبحيرات المتعددة في ضواحيها حيث تحلو الجلسة على ضفافها ويتناول المرء من المطاعم المجاورة لها الأسماك المشوية اللذيذة من أسماك تلك البحيرات.

وقمنا برحلة إلى «راتشانو» وهي تقع في شمال العاصمة وتبعد عنها حوالي

٣١ كيلاً وبحيرة «لوكو» وغيرها.. كما قمنا بزيارة إلى حديقة الملاهي ويحتاج خروجها ودخولها إلى نوع من اليقظة والإنتباه حيث توجد بها شتى الألعاب الرياضية وغرفة الزجاج المتعددة الأبواب وكثيراً ما ضل الناس في كيفية الخروج من تلك الأبواب فقد ارتطم الكثيرون بزجاجها وبها حديقة جميلة رائعة ذكرتنا بقول الشاعر :

نزلنا بها واستوقفتنا محاسن يحن إليها كل قلب ويهواها

ومنها عدنا إلى الفندق بعد تمضية يوم حافل مفعم بالمناظر والمشاهد والذكريات.

وفي الصباح ذهبنا نتجول في شوارع روما وميادينها وسألنا أحد الأخوة المصريين من هواة الرسم والفن حيث أمضى في هذه المدينة سبع سنوات يمارس هذه المهنة عن تمثال الشاعر أحمد شوقي فأرشدنا إليه وهو قد كتب عليه اسمه كما رأينا بعض المسلات المصرية الموجودة في بعض الميادين... تم تجولنا في روما القديمة وقصورها ومتاحفها ولقد ترك الأقدمون آثارهم وتعيد إليك خوالي الأيام وأحداث الزمان... إنها أطلال من الروائع يجليها رخامها واعمدتها ومرمرها وتنوع المناظر والمظاهر.

إنها مناظر تذهل العقول ولا غرو فقد كانت هذه المدينة مركزاً هاماً للثقافة والمعرفة، ولقد ذكر مؤرخو الأندلس أن الإيطاليين كانوا يفدون إلى غرناطة وقرطبة ابان مجدهما وتقدم العلوم والفنون بهما وبكثير من المدن الإندلسية وتلقوا العلوم عن أعلام ونقلوا كثيراً عن حضارة الأندلس التي انبعثت من جنباتها أضواء العلم تنير العالم كله وارتفعت في نواحيها منائر العرفان تهدي سبل الحياة للسالكين.

وذهبنا في اليوم الرابع إلى رحلة خارج روما لزيارة ومشاهدة قصر «بيستي» الذي يعود تاريخه إلى ٤٠٠ سنة وما زالت حدائقه ونوافيره وشلالاته في غاية الإبداع والجمال... والمنطقة التي يقع فيها القصر من المناطق الشهيرة حيث المناظر الساحرة وهي تبعد عن روما حوالي خمسين كيلا وكان يمتلك هذا القصر

أحد الأثرياء الإيطاليين وبها المناظر والحدائق والخمائل والأجنحة والبرك المائية والشلالات التي هي آية في الجمال... والحدائق درجات بعضها فوق بعض والواقع أن هذا القصر يزدان بأبهائه الفخمه وأفنيته الكثيرة ومن روائع الفن والإبداع كما أن الزهور والأشجار مهندسة مرتبة مختلفة الألوان بحيث تجمع لك كل المناظر الطبيعية... وتركنا هذا القصر التاريخي حيث تجولنا في أسواق هذه البلدة وكانت جولة قصيرة ثم مضينا إلى أحد المطاعم المجاورة للقصر والمطل على بعض المناظر الجميلة وتناولنا طعام العشاء مع مجموعة كبيرة من السياح من كندا واستراليا وأمريكا وغيرهم وقد اشتهر هذا المطعم بتقديم الوجبات الإيطالية التقليدية فالمكرونة بأنواعها وكذا تقديم بعض الفنون الشعبية القديمة.

ورجعنا إلى العاصمة روما من طريق آخر وكانت الساعة الثانية عشرة ليلا وكما يقال كل الطرق تؤدي إلى روما ووصلنا الفندق وكنا في حاجة إلى الراحة والنوم... وفي الصباح غدونا مبكرين إلى زيارة المركز الثقافي الإسلامي ثم إلي مقر الفاتيكان وزيارة المكتبة والمتحف... والفاتيكان هو عبارة عن دولة صغيرة كأي مدينة صغيرة مشابهة في أوروبا مثل أندورا وموناكو وليختنشتين... تقع ضمن قلب مدينة روما العاصمة الإيطالية - ورغم ضآلة حجم هذه الدويلة فإنها تملك نفوذاً أعظم من نفوذ إيطاليا ذاتها ذلك لأنها مركز رئاسة أكبر فرع للديانة المسيحية وهي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية... وهذه الدويلة مستقلة عن إيطاليا ويحكمها لجنة من الأحبار الرومان يعينها البابا.

أما كيف تكونت تلك الدويلة فذلك له تاريخ طويل منذ كان البابوات يمارسون لقرون طويلة سلطتهم الزمنية على وسط إيطاليا فيما يسمى بالولايات البابوية والتي كانت تضم مساحة ١٦٠٠٠ كيلاً وما يزيد على ثلاثة ملايين من السكان ثم دخلت هذه الأراضي في مملكة إيطاليا الجديدة في القرن التاسع عشر وصدر قانون عام ١٨٧١م بتحديد سيادة البابا بحيث تقتصر على قصور الفاتيكان في روما وضمن هذا القانون ميزانية سنوية للبابا.

وتقع مدينة الفاتيكان بجوار الجانب الغربي لنهر التيبر في روما وتشكل

أسوارها التي بنيت في عصر النهضة في العصور الوسطى حدود تلك الدولة عدا الحدود الجنوبية الشرقية ناحية ميدان القديس بطرس فهذه الناحية مفتوحة للجميع ومساحتها ٥ كم تقريباً ولها ستة مداخل أهمها ميدان القديس بطرس وقوس الأجراس والمدخل المؤدي إلى المتاحف وأهم المباني فيها هي كنيسة القديس بطرس وكنيسة جون لا تيران وكنيسة ماري ماجور والقصر البابوي وفيلا البابا الصيفية وقلعة جاندولفو وبعض تلك المباني يمتد إلى خارج الحدود... هذا إلى جانب محطة السكة الحديد ومحطة الإذاعة المقامة داخل الأراضي الإيطالية.

يسكن مدينة الفاتيكان حوالي ١٠٠٠ نسمة معظمهم من الموظفين الدائمين في الحكومة ويمثل القساوسة والرهبان انتخاب البابا فإنهم يمنحون جنسية الفاتيكان وعندما يخرجون تنزع عنهم تلك الجنسية ليعودوا إلى جنسيتهم الأصلية... وللمدينة نظام للتليفزيون والإذاعة والبريد وكذلك عملتها الخاصة ونظامها البنكي.. أما الجيش فقوامه مائة جندي من الحرس السويسري المميز بزي خاص وتصدر فيها صحيفة يومية اسمها (الابوزيرفاتور رومانو) كما توجد فيها مطبعة تصدر الكتب بكل اللغات حتى لغة التاميل الهندية.. وقمنا بزيارة إلى المكتبة بعد دفع رسم الدخول.

في مكتبة الفاتيكان

تضم مدينة الفاتيكان واحدة من أعظم المكتبات في العالم هي مكتبة الفاتيكان وتقع في الطابق العلوي من القصر البابوي وتشتمل على جناحين في صالة مستطيلة.. ووضعت الكتب داخل ٥٠ دولابًا مغلقًا كل دولاب يبلغ ارتفاعه ١,٧٥ مترًا ومثبت في الحوائط وفي الأعمدة الوسطى.. وزخرفت الدواليب برسومات تشير إلى محتوياتها ولكنها منسجمة مع التصميم الفني العام للأعمدة والحوائط والأسقف المقوسة المزخرفة بالفريسكو اللوحات المعبرة عن روما في القرن السادس عشر والتطور الباهر لفن الكتاب عبر العصور وتوجد مثل تلك الزخارف في الغرف الأخرى مثل غرفة الفهارس وقاعة مطالعة المواد المطبوعة ويزيد من جمال القاعة مجموعة الفازات والهدايا الملوكية التي قدمها الأمراء والملوك والقادة السياسيون للمكتبة.

وتشتمل هذه المكتبة على حوالي ٦٣٠٠٠ مخطوط و٩٢٠٠٠٠ كتاب مطبوع وينقسم قسم المخطوطات إلى ١٦ قسمًا مغلقًا تضم المجموعات التي جاءت إلى المكتبة كاملة وجرى تقسيمها حسب لغتها مثل المجموعة التي جلبت من هيدلبرج عام ١٦٢٣م ومجموعة الكاردينال انجلوا ماي التي أضافها بيوس التاسع عام ١٨٥٦م وتقدر بأربعين ألف مخطوطة، وأطلعت على فهرس المخطوطات العربية وأكثره يشتمل على كتب التراث والدواوين الشعرية ولم أجد بينها مما كنت حريصًا عليه.

ويتولى إدارة المكتبة مدير وهو في نفس الوقت مدير المتحف الوثني والمتحف المسيحي ومسئول عن مجموعة المسكوكات أما الوثائق فهي تحت إشراف كردينال ومجموعاتها الرئيسية هي المجموعة السرية ثم وثائق الدولة.. ويقصد هذه المكتبة يوميًا آلاف الباحثين في العلوم الكنسية واللاهوت وخاصة أتباع المذهب الكاثوليكي ولهذه المكتبة شهرة في الشرق والغرب.. وهكذا فالفاتيكان مكان واسع وكثير الأقسام.

وبعد أن أمضينا برهة من الزمن في هذا المكان ومشاهدة ما يحيط به من المباني

عـدنا إلى الفندق للـراحـة وقـد كـان الفنـدق الذي نسكنه عـلى درجـة من الأناقـة والجمـال فإذا دخله المرء مـجهـداً مكدوداً نسى التعب حـيث أنه يقع في مكان هادئ خـارج روما.. وكـان الجوع قد أخـذ منا كل مأخـذ بعـد جولة طـويلة في متـحف ومكتبة الفاتيكان.

وفي المساء قمنا بزيارة لمكتبة المجمع العلمي الإيطالي حيث تشتمل على مجموعة من المخطوطات العربية المصـورة كما أن بها قاعات للمطالعة وقـاعة للفهارس مع العناية بتـجليـد الكتب وترتيبهـا ثم ذهبنا لإحـدى المكتبـات التي تباع بـها الصـحف العـربية في قلب روما حيث أخـذنا مجـموعـة من الصـحف وتوجهنا بعـد ذلك إلى الفندق للراحة والنوم استعداداً للسفر غـداً إلى مدينة البندقية.. فـينيسيا عبـر جبال الانباين ومـررنا بعشرات الأنفـاق الجبلية والجسور المعلقة الشـامخة وتوقفنا عدة مرات في الطريق حتى وصلنا إلى مدينة البندقية الخامسة والنصف عصراً.

البندقيـة – ڤينيسيـا:

كان الطريق إليها حوالي ٥٠٠ كيلا، ورغم طوله فقد كان جميلاً وممتعاً حيث الحدائق ومزارع العنب بل جنات ألفافًا وأقمنا في فندق «بلازا»..

مدينة فريدة بديعـة.. وميناء رئيسي في شمال إيطاليا.. وعـاصمة منطقة فينيـو والمركز السـابق للجمـهـورية البـحريـة التي عـرفت قـوتها الـسيـاسـية والبـحرية في كـل أرجاء إقليم البـحـر الأبيض لأكـثر من ألف عـام.. ورغم أن هناك مدنًا أنشئت فوق جزر وتغشاها القنوات وغنية بالفن والعمارة وذات قوة علمية إلا أنه لا يوجد سـوى ڤينيسيا واحدة فقط فـربما لا يوجد مدينة أخرى في العـالـم ظلت لزمن طويل مـثلها لأن قـوارب الجندول وبحـارتهـا في قنواتـهـا ومبانيها وآثارها تجعل منها متـحفًا حيًا للماضي ونظرًا للمحيط الشامل الذي قد يميزها ليس فقط عن جمـيع المدن الأخـرى في العـالم بل عن العـالم المعاصـر ذاته.

والبندقيـة تقع في مـركـز بحيـرة هلاليـة الشكل تمتـد من الشـمـال الشـرقي إلى الجنوب الغـربي بطول ٣٢ مـيلاً وهذا الكيان المائي يخـتلف في العـرض بين ٩,٥

أميال ويفصله عن بحر الإدرياتيك حاجز ضيق من الجزر وشبه الجزر وتم بناء مركز المدينة التاريخي فوق أرخبيل من الجزر والشواطئ الطينية بطول ميلين تقريباً وعرض ميل واحد أما حدود المدينة الحديثة التي تحتضن محيط البحيرة البالغ ٩٠ ميلاً فتشتمل على الجزر العشر الرئيسية بخلاف جزر المدينة الأم والضاحيتين الصناعيتين: مستر ومازغيرا في الأرض الرئيسية وكلها اندمجت في المدينة عام ١٩٢٧م.

وسكان ڤينيسيا حوالي ٣٥٠,٠٠٠ نسمة.. وقد فقدت البندقية جزءاً منها عام ١٨٤٦م عندما أقيم كوبري علوي بطول حوالي ميلين فوق ٢٢٢ قوساً لمد الخط الحديدي من الأرض الرئيسية.

ويشق المدينة ١٨٠ قناة – منها متوسط عرضها ١٢ قدماً تشق مجراها الأصلي بين الجزر الأصلية البالغ عددها ١١٨ جزيرة– أما القناة الكبرى التي تجرى حول قوسين كبيرين خلال المدينة فهي تشكل النهر الرئيسي خلال الجزر ويسمى نهر «التو» وتحول إلى اسم ريالتو وطولها حوالي ميلين ومتوسط عمقها ٩ أقدام وأقصى اتساع لها ٢٢٨ قدماً وأقل اتساع هو ١٢٠ قدماً يقع على ضفافها ٢٠٠ قصر بنيت بين القرنين ١٢، ١٨ وعشر كنائس ومحطة غاز بحرية وتلتقي مع ٤٦ قناة جانبية لتشكل أجمل شارع في العالم.

وتشتمل فينيسيا على ٣٠٠٠ شارع يابس يبلغ مجموع طولها ٩٠ ميلاً والعمارة لها شكل فينيقي كما أنها طعمت بالأساليب الفنية المتتالية عبر القرون فنجد التأثير الإيطالي والبيزنطي والقوطي وعصر النهضة فنجدها منفردة أو مشتركة مثل الفينيتو– بيزنطي كما ساهمت عوامل أخرى في تنسيق التجميع المعماري

ومن أهم الميادين: «ميدان سان مارك»:

حيث الأنغام العادية للأحجار والهواء والماء.. وسان مارك أحد أشهر ميادين العالم فهذا الصالون الرخامي الذي طوله ٥٧٤ قدماً وعرضه ٢٦٠ قدماً كان المركز الإجتماعي والسياسي للسيرنيسيما (اسم فينيسيا القديم) .

ولا يزال ميدان سان مارك هو مركز ڤينيسيا ولا يخلو أبداً حتى ساعات ما

قبل الفجر الثلجية في الشتاء من الناس- وفي الصيف تخرج مناضداً المقاهي لتلقى السياح بينما المرشدون السياحيون يخطبون والفرق الموسيقية تترنم بألحانها والحمام يأكل بشراهة مما يلقيه السياح عليه.

والحمام الشره أحد الكنوز الفنية في ڤينيسيا كما يقول لنا المرشد السياحي لأن فضلات الحمام تلوث تلك الكنوز وتتراكم على أسطح الأعمدة والقصور واللوحات المرسومة في السقوف.

وتجد في الميدان - كما في كل مكان آخر من ڤينيسيا الأسد الرمزي وفي جميع الأشكال والأحجام.

وتقع قيصرية التجارة التركية القديمة بعيداً على ضفة القناة الكبرى وقد تحولت الآن إلى متحف التاريخ الطبيعي - والتجارة التي تغرق المحلات الأن ذات طابع محلي: السمك - اللحوم - الجبن - الدواجن - الخضروات والفواكه والمشترون الفينسيون يتبعون التقاليد بشراء ما يكفي لوجبة واحدة بعكس غيرهم من المدن الأخرى والسياح.

وتتعرض ڤينيسيا للفيضان عندما تتوافق عدد من العوامل الجوية والمائية لإحداث مد نافوري فوق البحيرة التي وصلت مسبقًا إلى مستوى مرتفع - وقد تكرر حدوث الفيضان ٥٨ مرة بين ١٨٦٧م-١٩٦٧م وقد عملت الحكومة الإيطالية بالتعاون مع الخبراء العالميين على وضع أجهزة إنذار تعطى إشارة قبل ١٢ ساعة من حدوث الفيضان واقترحوا وضع سدود متحركة للتحكم في تيار الماء عند الفتحات التي يمر خلالها البحر إلى البحيرة وخارجها.

وفي عام ١٩٦٩م، اكتشف أن إحدى الصناعات التقليدية القديمة وهي صناعة الزجاج والمنسوجات تستخدم عدداً كبيراً من أهل ڤينيسيا كما أن ٢٠٪ - ٣٠٪ من القوى العاملة ترتبط بأنشطة الميناء ولكن اليوم نجد ميناء مارغيرا وهو أحد أحياء ڤينيسيا يملك ٨ أضعاف طاقة المدينة كما أن حوالي ٢ مليون سائح يوفرون العمل لثلث القوة العاملة ولكن هذه الحركة كلها تتركز في خلال ثلاثة شهور في فصل الصيف.. حيث تتحول المدينة إلى متحف يعج بالسياح من شتى الأجناس.

كانت الجزر بها خالية تماماً من السيارات فالمواصلات فيها هي القوارب والمراكب فقط بين البيوت وتشتمل على المطاعم والفنادق والأسواق المليئة بالكرستال والزجاجيات.. وقمنا بزيارة لأحد المصانع الخاصة بالزجاجيات الفاخرة وتناولنا طعام الغدا في أحد مطاعم تلك الجزر الفاتنة وذات الجو البارد الجميل ثم قمنا بزيارة لقصر «دودجيس» الذي مضى على بنائه ستمائة عام ومازال شامخًا حقًا إن هذه الجزر لآية في الحسن والجمال.

ولقد وضعت بلدية البندقية لافتات بمنع السياح من النوم خلال الليل بجانب القنوات وقال رئيس البلدية أن المدينة لا تلقى الإحترام اللازم من السياح ويجب ألا يسمح لهذا المركز التاريخي بأن يتحول إلى موقع مخيم.

وبعد زيادة لأهم معالمها غادرنا هذه المدينة الجميلة الرائعة تحت وابل من المطر كان ينهمر في هذه الأثناء وكان يومًا ممتعًا يشد لإقامة أطول في هذه المدينة لما تمتاز به من جمال الطبيعة ونسق الحياة وروعتها وسحرها.

ثم أخذنا باخرة إلى شواطئ المدينة وكنت أتذكر كم شهد هذا البحر من وقائع وكم حمل من سفن وكم رافق من حوادث جسام.. وكان في إنتظارنا حافلة فصعدنا بها متوجهين نحو بلاد أخرى مردداً قول الشاعر:

أرحل وشاهد بها ما قد سمعت به ... شتان عندي بين الخبر والخبر

وسوف تلقى بها أضعاف ما سمعت ... أذنان من منطق قد ليث بالحصر

فاشدد رحالك وأعجل فالدنا فرص ... وما سماعك بالأثار كالنظر

حوار في مكتبة الفاتيكان

حرصت خلال زيارتي لإيطاليا على زيارة مكتبة الفاتيكان والإطلاع عليها وبعد جولة في رحابها ومشاهدة مخطوطاتها التقيت بمجموعة من رجال الدين المسيحي فكان محور الحديث عن الإسلام والمسيحية وتراثهما وكان الحوار هادئًا وموضوعيًا وتحدثت لهم عن القرآن الكريم المعجزة الخالدة على مر الدهر فقلت أنه حجة الله البالغة على خلقه وهو حجة النبي ﷺ في رسالته وهو مرجع المسلمين عند كل إحتلاف ورويت لهم حديث رسول الله الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتن كقطع الليل المظلم قلت يا رسول الله وما المخرج منها قال: كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله وهو الذي تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته ان قالوا «انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد»، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».. إلخ ولقد وجدت منهم كل إنصات وتقبل وطلب الاستزادة والتوضيح فتحدثت عن منزلة القرآن الكريم في السلام والإخاء ونبذ الشر والحروب والحث على الآداب السامية والاخلاق الرشيدة والسلوك القويم للبشر والاهتمام بالعلم والبحث بشتى فروعه وقد وصفه الله بقوله: «الله الذي نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد.. وحينما انتشر الإسلام في أوروبا نشر الهداية والنور والعدل حيث كان القوي يضطهد الضعيف فعاملهم الإسلام بالرحمة والسماحة وهو معدوم اليوم في معاملة الكثير من الدول المسيحية في معاملة أبناء الإسلام اليوم.

وكان معنا أخ عراقي يجيد الإيطالية بطلاقة فسألوني عن معجزات إبراهيم وعيسى ثم قلت ان كل معجزة جاءت مناسبة العصر الذي أرسل فيه صاحب المعجزة ومعجزة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام مستمرة وباقية وعامة إلى يوم القيامة ولقد وجد أهل الكتاب في الإسلام ما يرد عنهم الغوائل والشرور ولقد عاملهم بالحق والعدل والإحسان والحماية..

كان حوارنا تسوده روح المعرفة والحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن وسقت نماذج من هدي القرآن الكريم وبيان حقيقة الإسلام واركانه وتشريعاته وانتهى حوارنا بقول احدهم لقد جئنا نبشرك بديننا فغلبتنا بحجتك وعظمة رسالة دينك الإسلام وافترقنا على أمل اللقاء لاستكمال الحوار والنقاش العلمي.

ثم خرجت متجولاً في داخل «قصر الفاتيكان» وما يشتمل عليه من دروب ومباني ومشاهدة آلاف السياح وهم واقفين ومتهيئين للدخول وعدت إلى المكان الذي نقيم فيه والتقيت في الفندق ببعض الأخوة العرب ممن يعنون بأخبار الكتب والمكتبات والآثار والمخطوطات فكان الحديث عن الفاتيكان ومكتبته وما تضمه بين جنباتها من مخطوطات جديرة بالاهتمام والعناية والنشر والتحقيق.

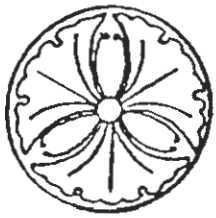

في النمسا

في صباح يوم بديع من يوم ١٤٠٦/١٢/٣هـ امتطينا إلى سيارتنا حيث انطلقت بنا نحو الحدود الإيطالية - النمساوية ولم نقف سوى بضع دقائق ثم دخلنا النمسا ومضى الخيال يمتد في هذا البساط الأخضر والشجر والغابات والعمران ومررنا بعدة قرى وأرياف توحي بالشعر والجمال والخيال وتاريخ الإمبراطورية النمساوية التي كان لها ذكر وشأن وتاريخ.. والنمسا اليوم ذات مساحة صغيرة إذ تقدر مساحتها بـ ٣٢٣٧٥ ميلاً مربعًا وسكانها ثمانية ملايين وعاصمتها ڤينا وبها أكبر تجمع سكاني ولغتها الألمانية.

ولقد أصبحت في العصر الحاضر مقصداً للسياحة حيث جذبت إليها أعداداً كبيرة من السائحين الذين يتوافدون عليها تشدهم إليها مناظرها الجميلة ومعالمها السياحية.. وجبالها الشاهقة نظراً لوقوع الجزء الأكبر من النمسا في منطقة جبال الألب الشرقية ولذا تعتبر واحدة من أكبر بلاد أوروبا ذات الطبيعة الجبلية إذ تمتد جبال الألب النمساوية عبر البلاد من الغرب إلى الشرق في أكثر من سلسلة ولقد كنا نشاهد تلك الجبال الرائعة البديعة المكسوة بالخضرة والفتنة والجمال وكنا محظوظين كثيراً كما قالوا لنا حيث كانت الشمس مشرقة وساطعة.. وبعد سير استمر أكثر من ثلاث ساعات حيث كنا نشاهد الجبال والبحيرات والغابات توقفنا في إحدى القرى بعد سيرنا مسافة كبيرة في داخل البلاد وبعد استراحة نصف ساعة شددنا الرحال نعبر الدروب ونمر بالقرى والبلدان ولا يكاد المرء يفرق بين قرية وأخرى وكنا نشاهد أصنافًا شتى من معالم الحياة ومظاهرها وبعد سير خمس ساعات لاحت لنا العاصمة فيينا..

وهي مدينة جميلة تجمع بين القديم والحديث وتحتفظ بالكثير من الخصائص العالمية ولها تاريخ حافل طويل في التراث والأدب والمسرح والموسيقى وغير ذلك من الفنون.. ولقد أسست أول جامعة بها عام ١٣٦٥م ويقول المرشد السياحي إنها أقدم جامعة في البلاد التي تتكلم الألمانية وأن هناك مدارس ذات تاريخ عريق قد أسست في عام ١١٥٥م ومازالت قائمة في ڤينا حتى اليوم.

إن وضع النمسا الجغرافي المتميز جعل منها منطقة التقاء بين أوروبا الغربية والشرقية كما أن حدودها البرية ممتدة مع سبعة أقطار مما يدل على أهمية مركزها ووضعها الجغرافي في قلب أوروبا.. لقد استمتعنا خلال سيرنا الطويل بمشاهدة نهر الدانوب الذي يجري على مسافات طويلة وله روافد شتى..

وعند وصولنا العاصمة نزلنا في فندق «بارك اوتيل» وسط المدينة وهو فندق ضخم واسع كان في السابق قصراً لضيافة الامبراطورية.

ولقد كنت في حاجة إلى الراحة والنوم ولكني لم استطع أن أقاوم الرغبة في استجلاء معالم المدينة وشوارعها وميادينها التي يبدو عليها الثراء والتنظيم كما أن المحلات التجارية مليئة بالسلع والكماليات ولكنها غالية.. ثم عدت إلى الفندق حيث أخلدت للراحة والنوم.. وفي الصباح ذهبنا في جولة سياحية مع عدد من السواح نتجول في العاصمة ومشاهدة معالم التطور بها وزيارة متحف الفنون الجميلة ومتحف التاريخ الطبيعي.. وقصر البرلمان ومسرح برج جامعة فيينا.. وقصر شونبرون الداخلي وهو قصر رائع جميل وقد كان المقر الصيفي لامبراطور النمسا كما قمنا بزيارة لقصر بلفيدر وهو يعتبر تحفة فنية رائعة يمتاز بالزخرفة الدقيقة ثم عدنا إلى الفندق لتناول طعام الغداء والاستراحة.. وفي المساء قمنا بجولة على حدايق ڤينا الجميلة ثم تناولنا طعام العشاء في أحد المطاعم النمساوية التقليدية للتعرف على الأطعمة النمساوية والأكلات الشعبية.. والفنون التقليدية.

وفي صباح الغد توجهنا لبعض الضواحي وغابات ڤينا والاستمتاع بمشاهدة بحيرة «سجرون» ذات المياه النقية الصافية الواقعة تحت سطح الأرض والقيام بجولة بالقارب في تلك البحيرة ومشاهدة المناظر الجميلة التي امتدت ملء البصر في لوحة جميلة. وكان منظراً أخاذا جميلاً ثم عدت أدراجي إلى المدينة متأملاً مناظر الطبيعة والجمال والأشجار التي نسقت على اليمين والشمال حتى وصلنا العاصمة وعدنا إلى الفندق بعد نزهة يوم جميل وذلك للاستعداد لرحلة إلى مدينة «سالزبرج» وفي صباح اليوم الرابع غادرنا العاصمة فيينا إلى مدينة «سالزبرج» وأمضينا سحابة النهار في سير متواصل وتوقفنا أكثر من مرة عند

الاستراحات التي تزخر بالناس وتمتلئ بالرواد من شتى الأجناس وبها المطاعم والفنادق ومخازن لبيع ما يحتاج إليه.

ومررنا بعشرات القرى وقد كان سيرنا بمحاذاة نهر الدانوب الأزرق الجميل وكنا نشاهد الجبال الشامخة المكسوة بالخضرة وكذا القلاع الأثرية حتى وصلنا إلى المدينة الساعة الرابعة عصراً وتوجهنا صوب فندق «اورسبيرج» وهو قصر حُوِّل إلى فندق إذ يحتفظ بالفن والأصالة والتقاليد النمساوية العريقة وذهبنا بعد ذلك لزيارة المدينة والإطلاع على أهم معالمها التي أمكن رؤيتها وتمتاز بيوتها بدقة الزخرفة والفن وقمنا بزيارة لقلعة المدينة التي يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي وشاهدنا المنزل الذي ولد فيه الموسيقي الشهير «موزارت» كما قمنا بجولة في المدينة القديمة ومشاهدة قديمها وحديثها وقصورها وميادينها ونوافيرها التي تتدفق بالمياه في منظر رائع خلاب.. وبعد جولة استمتعنا خلالها بالمشي على الأقدام في طرقات المدينة الضيقة والتي توحي للزائر أنه يعيش في القرون القديمة قلت لصحبي فلنخرج سريعاً من جوف هذه الأحياء المخيفة.

ولنتركها لهؤلاء السياح المولعين بحب كل قديم حتى لو كان في قمة جبال الألب وعدنا للفندق ولم يكن بد من النوم وفعلاً أمضينا ليلة هادئة مطمئنة حتى صحوت مع الفجر وكنت أرقبه من النافذة لمشاهدة مولد يوم جديد رائع وقد تنفس الصبح فيه وأشرقت الشمس.. وودعنا هذه المدينة وقد ارتفعت شمس الضحى وسلكنا طريقًا جميلاً تشدك إليه منظر البحيرات والخضرة الممتدة والغابات السامقة ومشاهدة المناطق الزراعية بين جبال الألب وسهول النمسا الواسعة والأراضي المحروثة للزراعة والبساتين والكروم وبيوت الفلاحين ذات الخشب فهم يستخدمون الخشب كمادة تقليدية في المباني لكثرة الغابات.

وبعد جولة في ربوعها ومعالمها ومتاحفها غادرناها على أمل اللقاء بزيارات آخرى إن شاء الله.

في هولندا

وفي وقت مبكر من صباح يوم الثلاثاء ١٤٠٦/١٢/٧هـ مابين طلوع الفجر وشروق الشمس ركبنا السيارة متوجهين بطريق البر إلى هولندا.. وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم والمطر ورغم أننا في فصل الصيف.. وفي جو جميل ندي كان السير في الطريق ممتعًا وجذابًا.. فرغم مئات الأميال التي قطعناها في السير لم نشعر بالتعب ووصلنا الحدود الهولندية.. وقد كنت أستعرض في ذاكرتي هذه الأرض وتاريخها وما تعرضت له من دمار في الحرب العالمية وما نشأ من حروب بين هولندا وألمانيا.. واحتلال ألمانيا لها.. ودخلنا هولندا ولم يستغرق وقوفنا في الحدود سوى بضع دقائق حيث كانت المعاملة في منتهى السهولة.. ثم توقفنا في إحدى القرى الهولندية للراحة واستبدال النقود.. حيث كان معنا المارك الألماني والفرنك السويسري.. فاستبدلتهما بـ«لقولدر الهولندي» ثم واصلنا السير.. حيث شاهدنا الحقول الغناء والمزارع الخضراء الفسيحة المليئة بالأبقار ولا غرو.. فنحن في بلد الأبقار والأجبان والزهور وطواحين الهواء والأنهار وتبلغ مساحة هولندا (١٥٧٠٠) ميلاً وسكانها ١٤ مليون نسمة ولغتها الهولندية.. كما أن هناك لغة أخرى تسمى الفريزية ينطق بها أهل الشمال.. كما أن اللغة الألمانية يجيدها عدد كبير وكذا الانجليزية في الفنادق والمطاعم والمتاجر وبالطبع فالديانة هي المسيحية، جزء كبير منهم بروستانت وآخرون كاثوليك ويوجد بها عدد كبير من اليهود.

وهولندا تقع في الشمال الغربي لأوروبا وهي أكبر دولة في العالم لتصدير الزهور.. ولذا كنا نشاهدها في الحقول والبساتين.. وقد حكى لنا المرشد السياحي أن عدد الزهور التي تباع فيها تصل إلى أكثر من خمسة عشر مليون وتصدر لمختلف أنحاء العالم وتنتجها مزارع متخصصة لهذا النوع.. كما شاهدنا طواحين الحبوب وعصرها ويهتمون بها كجزء من تراثهم وهي تعتمد في حركتها على قوة التيارات الهوائية.. حقًا إن الريف الهولندي هو بمثابة حديقة غناء.. حيث

الزهور المتنوعة والألوان وتتفتح هذه الزهور وتزدان في بيوت محمية وفي مركز الزهور الذي تباع فيه بشتى ألوانها المختلفة.. ويبدأ موسم الزهور لديهم في فبراير وينتهي في سبتمبر من كل عام.

كما أن عدد الأبقار بها تصل إلى ٦ مليون بقرة ويصل الإنتاج إلى ثلاثة عشر مليون طن من الحليب والزبد والجبن.. فتربية الماشية هي النشاط الزراعي الرئيسي.. ولذا حرصوا على زيادة رقعة بلادهم من المياه المحيطة بهم واكتساب الأرض من البحر واستطلاع أول سهل من قاع البحر عام ١١٥٠م بواسطة حواجز أقيمت للاحاطة بمساحة من الماء ومن ثم تجفيفها، ومنذ ذلك الحين وهولندا في توسع مستمر.

وبعد فترة من السير الطويل وسط الريف الخلاب لم يخالطنا فيها السأم والملل لا حت لنا العاصمة «أمستردام» حافلة بالمناظر الجميلة ومواكب الدراجات والسيارات والقطارات تملأ الشوارع والميادين وكان دخولنا المدينة ظهراً حيث صادف إنصراف العاملين من مكاتبهم ومصانعهم ومتاجرهم حيث يشاهد المرء أفواجًا من البشر وشاهدنا البحيرات والجداول المائية وسط المدينة.. ولذا كانوا يسمونها مدينة الماس وبندقية الشمال ووصلنا الفندق وهو يقع في قلب المدينة التي تجمع بين القديم والحديث..

وفي فندق «نوفوت» كان مقامنا حيث أخذنا قسطًا من الراحة، خرجنا بعد ذلك إلى المدينة نتعرف على معالمها ونتمشى في طرقاتها ونشاهد المنتزهات والحدائق والجداول المائية، ومن الصدف أن نلتقي بشاب عربي عرفت أنه جزائري من لهجته وحددت له البلدة التي ينتمي إليها من لهجته فقال ومايدريك فقلت له لقد عشت في بلادكم عامين مدرساً وأتقنت لهجة أهل وهران حتى كان الأخوة في العاصمة عندما أذهب إليهم يسألونني عنها وكأني واحد من أبنائها، ثم عرفنا بنفسه وقال لقد سبق أن درست في المملكة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وجئت إلى هنا للدراسات العليا، ومضينا معه يعرفنا بالمدينة ويشرح لنا أسماء الشوارع والميادين ويعرفنا بالعادات والتقاليد وكنت متابعًا لحديثه فكنت أسأله عن بعض ما يصادفنا من مبان شاهقة ويشرح لنا أن هذا المبنى مكتبة وذاك كلية وهذا مستشفى

الخ.. وسألته عن هولندا وتاريخها والهجرات التاريخية لها وسكانها وكان المطر يتساقط رذاذًا ولا غرو فالمطر يسقط طوال العام وقال أن الجو الجميل لا يتجاوز شهرين وما عدا ذلك فالشتاء بارد جدًا وتتساقط الثلوج وتتجمد هذه القنوات المائية التي نشاهدها الآن كما تهب العواصف الشديدة.. فقلت الحمد لله على مناخ بلادنا وما تمتاز به من دفء وجو جميل.. ثم قمنا بجولة في المدينة القديمة وفي المساء قمنا برحلة نهرية في قناة أمستردام وهي نوع من فروع نهر الراين للنزهة والاستجمام ومشاهدة العاصمة ومعالمها ثم امتد بنا السير بعد ذلك في قنواتها وكان قائد الباخرة يشرح لنا ذكريات التاريخ في هولندا إذ التقاليد في هولندا تحتل مكانًا رفيعًا وهي أساس الفنون الشعبية وطريقة الحياة بصفة خاصة غنية بالتقاليد ومازالت تزاول بنشاط كالحرف القديمة والأسواق الشعبية والتي يأتي السواح لمشاهدتها والمباني التاريخية وبها أكبر مزاد للزهور في العالم.

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى روتردام من أكبر المرافئ البحرية في أوروبا وكنا نشاهد المزارع والسدود التي تجسد نشاط الهولنديين ضد البحر الذي يحيط بهم ومشاهدة الحقول والضواحي والسهول والغابات الشاسعة من أشجار الصنوبر.

وفي الميناء شاهدنا السفن والمراكب وصيادي الأسماك فهو يكتظ بالسواح من شتى الأمم ورأينا المحلات التجارية التي تمتلئ بالتحف والصناعات التقليدية ومصانع منتجات الألبان والأسماك المجمدة ولقد حكى لنا المرشد أن هذا الميناء الضخم قد دمر في زمن الحرب العالمية الثانية وأعيد بناؤه. وفي هذه البلدة شاهدنا المنسوجات والسلع الجلدية وقمنا بزيارة لمصنع من مصانع الأجبان وكذا قاطعي الأحذية من الأخشاب وجلسنا بعد رحلة طويلة نلتمس الراحة في أحد المقاهي وإن كانت كل الأماكن مزدحمة بالناس وهم من شتى بلدان العالم. وبعد استراحة وقضاء وقت ممتع ودعنا هذا المكان المزدحم بالحركة والسياحة والنشاط والحياة والبحر بمنظره الرائع ثم قمنا بجولة على بعض الأرياف الخضراء ذات النظام والنسق الرائع البديع وشاهدنا أنهارًا من الماء ولم نزل نعيش في تلك الأجواء المفعمة بالسحر والجمال حتى وصلنا في المساء إلى العاصمة أمستردام حيث عدنا إلى الفندق وأخلدنا للراحة والنوم.

وفي الفندق التقيت بشاب بدا لي من ملامحه أنه عربي وكأن يلبس الملابس الهولندية التقليدية حيث يقف على باب الفندق فكانت التحية بيننا حيث عرفني بنفسه إذ هو عربي من مصر وأنه مقيم في هذه البلاد منذ خمس سنوات ويجيد اللغة الهولندية فسألته هل توجد جالية عربية إسلامية وهل هناك مركز إسلامي ومسجد لأداء الصلوات فقال نعم توجد جالية إسلامية ولهم مركز إسلامي ويؤدون الصلاة فيه وأغلبهم من أبناء المغرب العربي وتركيا ولكن إمكانياتهم ضئيلة فكلهم من العاملين هنا في الفنادق والمطاعم فقلت: نسأل الله لهم القوة والمزيد من التوفيق والإخلاص للعمل الإسلامي لتكون لهم نتيجة مثمرة في التعريف بالإسلام والدعوة إليه في هذه البلاد.

وقمنا بعد ذلك بزيارة لمجموعة من المدن والقرى الهولندية كفولندام العاصمة وأم القرى الهولندية كما يقولون وزيارة قاطعي الماس وبعض المتاحف والمكتبات ومدينة ايندهوفن عاصمة الصناعات الالكترونية ومقر شركة فيلبس الشهيرة.. وفي هولندا معاهد وجامعات ولعل أقدم جامعة بها هي جامعة ليدن الشهيرة والتي تأسست عام ١٥٧٥م وتعتبر مدينة ليدن من أهم مراكز الاستشراق في أوروبا وبها أقدم مطبعة عربية «بريل» طبعت الكثير من مؤلفات المستشرقين وكذا لاهاي مقر محكمة العدل الدولية.. ويطلقون عليها اليوم مدينة هولندا الارستقراطية وهي مقر الحكومة وقد اختارتها الملكة مقراً لإقاممتها.

وهكذا فإن لهولندا دوراً تجاريًا كبير الأهمية في العصور الماضية كما أنها ذات تقاليد عريقة في صناعة السفن والاساطيل البحرية كما أن أمستردام اليوم واحدة من المدن المالية ذات الأهمية التجارية. وبعد زيارة لهذه البلاد التي تتألق بالزهور والأماكن السياحية غادرناها بعد أن أمضينا في ربوعها أيامًا حافلة لا تنسى وتوجهنا بعد ذلك إلى جهات أخرى في أوروبا حيث غادرنا أمستردام في الصباح الباكر تحت وابل من المطر وكنا نطوي الأرض بحافلة سياحية ونتأمل بدائع الخالق العظيم في صبح يوم جديد حيث المطر والسحاب والسهول الخضراء والحقول والجمال والزهور مد النظر وتناثرت بين تلك المناظر والقرى والمدن حيث كسيت الأرض رداء أخضراً وجميلاً.

في بلجيكا

في صبيحة يوم الأربعاء الموافق ١٤٠٦/١٢/٢٠هـ غادرنا هولندا وتوجهنا صوب بلجيكا في شمال غرب أوروبا بطريق السيارات. . وقد استغرقت الرحلة أكثر من ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى الحدود البلجيكية الهولندية ولم تكن الرحلة شاقة أو متعبة. . حيث كان الجو بديعًا وممطرًا وكانت الإجراءات سهلة. .

فقد عبرنا من بوابة كان عليها أحد الموظفين وبعد أن اطلع على جوازاتنا لوح بيده للدخول ودخلنا إلى بلچيكا وكان الجو جميلاً .

وعلى طول الطريق يغطي أرضها بساط نضير. . كنا نشاهد حقول الكروم والبساتين وألوان الفواكه والزهور ومعظم أرضها منبسطة في بعض الأماكن. . تتحول الأرض إلى جبلية وغابات في الجنوب الشرقي فيما يسمى بمنطقة الأردين وتحدها فرنسا من الجنوب الغربي ولوكسمبرج من الجنوب الشرقي وألمانيا الغربية من الشرق وهولندا من الشمال. . أما اللغة فإن ٥٧٪ من السكان يتكلمون اللغة الهولندية و٣٣٪ اللغة الفرنسية و٠١٪ اللغة الألمانية و١٠٪ من السكان يتكلمون اللغتين الهولندية والفرنسية.

أما الديانة فإن ٧٥٪ هم من الروم والكاثوليك و٢٥٪ من البروتستانت.

اسم بلجيكا مشتق من اسم أول قبيلة سجلها التاريخ تقيم في هذا الموقع وهي قبيلة البلجاي وقد فتحها يوليوس قيصر. . وعاشت ١٨٠٠ عامًا في ظل حكم الغزاة من الرومان والافرنج والاسبان والنمساويين والفرنسيين.

وبعد عام ١٨١٥م أصبحت بلجيكا جزءًا من هولندا ولكنها تحولت إلى مملكة دستورية مستقلة عام ١٨٣٠م.

ويتكلم سكان شمال بلجيكا اللغة الهولندية بينما الفرنسية هي لغة الجنوب ويتحدث معظم السكان اللغة الإنجليزية حيث لم نجد صعوبة في التفاهم. . وتعيش بلجيكا على التجارة إذ أن حوالي ٥٠٪ من مجمل إنتاجها للخارج.

ومن أهم صناعاتها الصلب والزجاج والماس والمنسوجات والكيماويات والفحم والأخشاب.

ومضت بنا السيارة بين السهول والقرى والمزارع والتلال وكنت أستمتع برؤية تلك المناظر وروعتها واستجلى ذكريات التاريخ وأحداثه.. وكانت أشجار الفاكهة فواحة بأريج أزهارها تياهة بطيب ثمارها.. وبينما نحن نعبر الأودية تذكرت قول الشاعر:

وادٍ أغَنُّ سرى النسيمُ بأرضه ... مترقرقًا بندى النمير الصافي

تشدوا العنادل فيه ألحان المنى ... فتثير من شجن المشوق الغافي

وتفيض من نغماتها خطراته ... فتشع بالبسمات والألطاف

ولا شك أن رؤى الربيع ومناظر الطبيعة التي مررنا بها والمروج الخضراء كانت جذابة وخلابة.. وكان الطريق مليئًا بحركة السيارات ولوحات الإرشاد بين الطرق وتوقفنا قليلاً للراحة والاستجمام ولتزويد السيارة بالوقود ثم واصلنا المسيرة وكنا نشاهد الريف البلجيكي الجميل وبيوته التي ترمز إلى متانة البناء ودقة التصميم.. حيث يقع البعض منها على قمم عالية وذلك تجنبًا لمخاطر السيول وبلغنا العاصمة بروكسيل قبيل الثانية ظهرًا وكانت تعج بالحركة والنشاط.. فالناس في عجلة دائبة وذهبنا توا إلى أحد الفنادق ويسمى ميجور وبعد الاستراحة وتناول الطعام مضينا في جولة إلى شوارع العاصمة وميادينها ومحلاتها وأسواقها ومعالمها وآثارها.

ومدينة بروكسل تمثل القلب النابض للحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية لبلجيكا.. كما أنها تفخر باحتوائها على أجمل ميدان في العالم وعدد كبير من المتاحف والأبنية الشاهقة وبها مجمعات إدارية وتجارية ضخمة.. ويتخلل ذلك الحدائق الفسيحة التي يمكنك الإستراحة فيها من ضيجيج وسط المدينة.. ومن أهم المعالم السياحية التي تسنى لنا زيارتها:

- الميدان الكبير وهو من أجمل الميادين في أوروبا.. حافل بما يقر النواظر ويسر الخواطر.

- قصر الملك وبه متحف البلدية.

- قصر العدالة وهو قصر ضخم تتجلى فيه الفنون المعمارية.

المركز الإسلامي في بروكسل:

وحرصت على زيارة هذا المركز لقد تكون المجلس الإسلامي في بلجيكا في عام ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م كان هدفه تأسيس مسجد جامع في بروكسل ومركز ثقافي إسلامي ومقبرة للمسلمين.. اعترفت الحكومة البلجيكية بالمجلس في ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م وتشكلت له لجنة تنفيذية ضمت بعض الأعضاء من السفراء المسلمين وأعضاء من الجالية المسلمة في بلجيكا.. أقيم المركز الإسلامي في الحديقة الخمسينية في قلب بروكسل وعلى مقربة من مباني المقر العام للسوق الأوروبية المشتركة.. استلم أرض المركز المغفور له الملك فيصل بن عبدالعزيز «رحمه الله» خلال زيارته لبلجيكا وافتتحه المغفور له الملك خالد بن عبدالعزيز في ١٣٩٨هـ وحضر الافتتاح الملك (بودان) ملك بلجيكا.

يتكون المركز من أربعة طوابق، يشمل مدرسة - قاعة للاجتماعات والمناسبات الاجتماعية، قاعة للسيدات ومسجداً صغيراً، إدارة للدراسات الإسلامية، مختبراً لتعليم اللغات، مكتبة. والمسجد يعد من أبدع المساجد الإسلامية في أوروبا معماراً.. وبجوار مبنى المركز مبنى آخر أهداه ملك بلجيكا إلى جلالة الملك خالد ليكون متحفاً إسلامياً، وتضم مدينة بروكسل (المجلس القاري للمساجد) وعدد المسلمين في بلجيكا (٢٠٠,٨٠٠) تقريباً..

كما قمنا بزيارة المتاحف الموجودة بها:

- **متحف الفن الكلاسيكي.**
- **متحف الفن الحديث.**
- **المتحف الملكي للفنون والتاريخ.**
- **المتحف الحربي.**

كما قمنا بزيارة إلى واترلو وهي موقع على مسافة ١٨ كيلاً جنوب بروكسل

وقد حدثنا الدليل السياحي عن هذا المكان حيث حدثت به موقعة واترلو الشهيرة التي كانت فيها نهاية نابليون بونابرت وكانت في يونية ١٨١٥م.

ثم توجهنا لزيارة مدينة انتفيرب: **Antwerp** وهي مدينة غنية ومليئة بالحياة ليس فقط بسبب مينائها أو صناعتها ولكن أيضًا لاحتوائها على الكثير من الأنية والمتاحف التاريخية.. وسكان المدينة أنفسهم يحرصون على المحافظة على هذه الصورة لها.. المدينة تعج بالحركة ليل نهار إذ بها صناعة الماس الفائقة الشهيرة والبتروكيماويات ويجد السائح أيضًا الهدوء الكامل إذا أراد تأمل مبانيها الرائعة وأزقتها القديمة المتعرجة وفي مساحتها الخضراء الهائلة.. وإن مدينة انتفيرب ذات ماض عريق وسكانها حوالي نصف مليون وهي أكبر مدن بلجيكا وترتبط بمجموعة من المدن الكبيرة بواسطة ٤ قطارات كل ساعة تصلها ببروكسل وأكثر من ٢٠ قطارًا يوميًا تربطها بمدن روتردام وأمستردام وعشرة قطارات يوميًا تربطها بباريس.

ومن المشاهد السياحية:

الحدائق والمتنزهات والمتاحف، والميادين والآثار.

ومن أهم المتاحف: المتحف الملكي للفنون الجميلة:

يحتوي على أكثر من ١٠٠٠ لوحة زيتية لفنانيين قدماء وكذلك ١٥٠٠ لوحة أخرى لفنانين محدثين.. والمتحف به أعظم مجموعة عالمية من روائع الفنان روبين، هو أساسًا قصر بني في القرن الثامن عشر تحيطه حدائق غناء.. ويمتلئ بالسواح من عشاق الآثار القديمة حيث يستمتعون برؤية البروسلين النادر، ومتحف التماثيل المفتوح.. متحف الفن الشعبي..

ومن أهم المعالم: الميناء فهو إلى جانب أهميته الكبرى في التجارة الدولية مشهد سياحي جميل ويمكن للسائح في رحلة بحرية قصيرة أو بالسيارة أن يلم سريعًا بنشاط المدينة الصناعي وكذلك معامل تكرير البترول والمجمعات الكيميائية والبتروكيميائية ومصانع تجميع السيارات.. الخ..إلى جانب المناظر الطبيعية والمباهج الخلابة.

صناعة الماس:

منذ عدة قرون حتى الأن ومدينة انتفيرب هي قلب تجارة الماس وصناعة تقطيعه. . ويمكن للسائح أن يرى بنفسه قطاع الماس وهم يمارسون صناعتهم وقد أتيح لنا دخول أحد المحلات المتخصصة وشاهدناهم وهم يعملون في صناعتهم وعرضوا علينا نماذج عديدة ولكن أسعارها كانت غالية ومرتفعة.

كما قمنا بزيارة إلى حديقة الحيوان بالمدينة ولها شهرة عالمية وتقع في قلب المدينة حيث بنيت فيها متاحف الحيوانات المائية وبيوت الزواحف وبيوت للحيوانات الليلية وغيرها.

ومما تجدر رؤيته بالنسبة للسائح الأسواق مثل سوق الطيور كل يوم أحد وسوق الفن عصر السبت من كل أسبوع وسوق الأثاث القديم صباح كل أربعاء وجمعة.

ومن معالم المدينة أيضًا مطاعمها الفاخرة والمعارض الدولية. . والمنتزهات الجميلة. . وهناك مدن أخرى مثل مدينة بويلون Bouillon.

وبعد جولة في تلك البلاد أخذنا طريقنا متوجهين إلى الأراضي الفرنسية وهكذا نكون بين شد الرحال وحطها وعلى حد تعبير قول القائل:

نزلنا ها هنا ثم أرتحلنا فدنيانا نزول وارتحال

في سويسرا

في صبيحة يوم ١٤٠٦/١٢/٢٥هـ وفي الساعة السابعة صباحًا ودعنا إيطاليا متوجهين صوب سويسرا وفي الطريق مررنا على «ليشتنشتاتين» وهي كما فهمت من الدليل السياحي إمارة صغيرة تقع على ضفة وادي الراين ومساحتها ١٦٥كيلا وقمنا بزيارة لقلعتها التاريخية والتي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى ثم زيارة للمتحف القومي بها وهي مقر العديد من الشركات الدولية.. ثم غادرناها مواصلين السير نحو الحدود السويسرية.. وقد مررنا بالعديد من المزارع والغابات ومشاهدة سهل الراين ثم لاحت لنا الحدود وتوقفنا بضع دقائق واصلنا السير بعدها في الأراضي السويسرية وبدأ الهواء البارد يلفح وجوهنا وكان الجو ممطرًا وبديعًا. كما أن سويسرا تشتهر بمشاهدها الجبلية الرائعة وهي تتألف من اتحاد مكون من ٢٢ مقاطعة ومساحتها ٤٢٠٠٠ كيلاً مربعًا وعدد سكانها ستة ملايين ونصف المليون.. ولها حدود مع ألمانيا وفرنسا وإيطاليا.. ولذا فإن لهذه البلاد ثلاث لغات رسمية.. الألمانية ويتكلمها قرابة ثلاثة أرباع السكان.. والفرنسية ويتكلمها أهل جنيف والمقاطعات المتركزة حولها.. أما الإيطالية فيتكلمها قسم منهم يقدر على حد تعبير الدليل السياحي ١٠٪ من السكان في الجنوب. وهناك توجد لغة رابعة هي اللغة الرومانسية وتتكلمها أقلية صغيرة.. فسبحان من علّم اللغات وعلّم الإنسان مالم يعلم.. فهذا البلد يتكلم أهله أربع لغات إلى جانب اللغة الإنجليزية فالكل يتحدث بها في الفنادق والمطاعم والبيع والشراء بالنسبة للسائحين.

إن سويسرا منتجع سياحي جميل ولذا فهي مليئة بالسواح، والفنادق محجوزة طوال فصل الصيف ولذا حرصنا أن يكون سفرنا لها بواسطة شركة سياحية تتولى بدورها توفير المواصلات والفنادق والرحلات وما إلى ذلك تجنبًا للمتاعب وتوفيرًا للوقت والجهد الذي يلقاه المسافر اليوم من صعوبة الحجز في الفنادق وغيرها.. ومنذ دخولنا سويسرا ونحن ننعم بمناظر خلابة وجو جميل على حد قول الشاعر:

والروض مخضل الجوانب مشرق وشذى الزهور يشيع في الأرجاء

وقول الشاعر:

بلاد بهـا مـا يملأ العين بهـجـة ويسلي عن الأوطان كل غـريب

لقد أحاطنا المرشد علماً أن سويسرا تتألف من منطقة تلال خصيبة واقعة بين جبال الألب التي تغطي أكثر من نصف مساحة البلاد وبين جبال الجورا في الشمال الغربي.. وهو بلد قاري محاط بثلاث دول كبرى هي فرنسا من الغرب وألمانيا من الشمال وإيطاليا من الجنوب وليس لها أي منفذ على البحر وبها الأنهار والمياه الغزيرة إذ يجري بها نهر الراين ونهر الرون ونهر تيسان ونهر أين كما أنها جبلية إذ ثلاثة أرباع أراضيها مؤلفة من الجبال. وبعد مسيرة ثلاث ساعات من الحدود وصلنا إلى مدينة «لوسيرن» وتوجهنا صوب فندق «بيلفيدير» في وسط المدينة ويطل على بحيراتها الجميلة..

وبعد استراحة بالفندق وتناول طعام الغداء خرجنا بعد العصر لنتجول في المدينة فوجدناها روعة في الجمال وفي طراز البناء والنظافة وزرنا المدينة القديمة والمناطق والمعالم الجديرة بالإطلاع والمشاهدة وفي اليوم الثاني خرجنا للبحيرات وقمم الجبال المغطاة بالضباب وهي مناطق سياحية بهيجة فاتنة وأودية خضراء تمثل الجمال الساحر.. وصعدنا بالقطار ثم بالسيارة اللاسلكية فوق الضباب وحينما هبطنا في تلك الجبال لم يستطع بعضنا أن يرى بعضاً من شدة الضباب والسحب الكثيفة وكان الجو بارداً ثم هبطنا بواسطة «تلفريك» من علو مرتفع حيث كنا نشاهد نهر الراين والقرى وكأنها شيء صغير.. وصلنا إلى الأرض بسلامة الله وكانت رحلة ممتعة حيث أمضينا يوماً كاملاً وسط مناظر رائعة ثم عدنا في المساء بقلب منشرح على ما رأيناه. وقصدنا الفندق واسترحنا وحضرنا في المساء حفل العشاء الذي نظمته الشركة السياحية في أحد مطاعم المدينة الفخمة ولقينا هناك مجموعات شتى من البشر من كل القارات والأجناس وكانت فرصة طيبة مع هؤلاء كما قال الشاعر:

إذا وجد الإنسان للخير فرصة فلم يغتنمها فهو لا شك عاجز

فكانت فرصة للتعريف ببلادي والحديث عن الإسلام وفضائله ومزاياه

والحكمة في تحريم لحم الخنزير والخمور.. ومن العجيب أنهم حريصون ومتلهفون على أن يتعرفوا على الإسلام بانفتاح وبحب. إن الحوار مع غير المسلمين من الأمور الهامة حتى يتمكن المسلم من إيصال حقيقة العقيدة إلى غيره وتوضيح حقيقة الإسلام.. «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين».. ثم عدنا للفندق الذي كنا نازلين فيه للنوم والاستعداد للسفر.

وفي صباح اليوم الثالث وفي الساعة الثامنة صباحًا غادرنا لوسيرن بعد أن ألقينا عليها نظرة حب وود من بعيد وتوجهنا بعد ذلك إلى جنيف ولوزان وهما مركزان تجاريان هامان ومن مراكز الاصطياف والتجارة.. كما أن منظر البحيرة يضفي عليها جمالاً وروعة.. وفي جنيف أمضينا يومًا وليلة وأقمنا في فندق «هيلتون» وهي مدينة جميلة.. تذكرنا بقول الشاعر:

متع فؤادك بالجلوس هنيهة بين الجمال وروضة خضراء

وفي الصباح خرجنا لنشاهد بعض معالم مدينة جنيف.. وبعد جولة في شوارعها ومشاهدة بحيرتها وحدائقها نزل المطر رذاذًا فحاولنا تحمله.. ولكن سرعان ما هطل بغزارة فكان لابد من العودة إلى الفندق.

وفي صباح الغد ودعنا تلك المدينة وما تحفل به من مناظر جميلة وركبنا سيارتنا متوجهين نحو شلالات نهر الراين وكانت تطوى بنا الأرض والذهن يطوى بي التاريخ والذكريات وكان الجو لطيفًا باردًا إلى حد ما وكنا نشاهد قمم الجبال وهي مكسوة بالثلج تتلألأ تحت الشمس..

كما أن السفوح عابقة بالزهر والعطر والرياحين.. وجعلت أستعرض في ذهني ما قيل من الشعر في وصف مثل هذه المناظر ففيها يحلو الشعر وما يصفه من حسن وحب وجمال.. فإن تراثنا الشعري حافل بهذا اللون.

وكم تعطرت بالريحان وامتزجت رياك بالروض أفنانا وأزهارا

ما أن نشقتك حتى خلت منتعشا ماء الحياة جرى في الجسم أنهارا

ولكم يخفق القلب للربيع الجذاب والهواء العليل. وسرَّحت النظر أجيل الطرف في أرجاء تلك الرياض الفيحاء وقد تبرجت وتجلت فتنة للناظرين مما يذكرني بقول الشاعر:

فلست تبصر إلا واكفا خضلا أو يانعًا خضرا أو طائرا غردا

ومررنا في الطريق بمدينة زيورخ وأمضينا في رحابها عدة ساعات.. حيث شاهدنا معالمها واسواقها وميادينها فهي المركز التجاري الهام وبها البنوك والمصانع.. ولا شك أن الحياد الذي عرفت به سويسرا أتاح لها أن تكون مركزًا تجاريًا هامًا ومقرًا للمؤتمرات الدولية وتجارة سياحية هامة فحققت بذلك مستوى عاليًا من المعيشة رغم قلة الموارد الطبيعية فيها.. كما أنها متخصصة في صناعة الساعات بمختلف أشكالها والمجوهرات والمنسوجات وغيرها.

ووصلنا شلالات نهر الراين وتوقفنا لمدة ساعتين.. وكانت مليئة بالسواح يموج بهم المكان وكان منظر الشلالات رائعًا وبديعًا ومياهه العذبة البراقة صافية ورقيقة توحي بالبهجة في الأفئدة والأنس في النفوس وعلى ضفافه المطاعم والمقاهي وباعة التحف ومؤجرى «القوارب» فأخذنا مركبًا نتجول به في وسط هذه الشلالات الهادرة الراقصة.. وأخذت أجيل بصري في جنان وبساتين المناطق المجاورة لها وراق النسيم وراق الجو فتذكرت قول القائل:

يا نسيما هب مسكا عبقا هذه أنفاس ريا جلقا

وسعدنا بقضاء وقت رغد ممتع.. وهكذا ودعنا تلك البلاد بعد أن نعمنا بجمال مناظرها الطبيعية وعذوبة هوائها البارد وكحلنا ناظرينا بتلك الأنهار والبحيرات وتذكرت أبيات وجيه الدولة بن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني إلى برد ماء النيرين حنين
وقد كان شكى بالفراق يروعني فكيف يكون اليوم وهو يقين

إن الجمال في سويسرا مشاهد لا ينتهي أولها إلى آخرها ففيها متعة النفس ومسرح الفكر، وجمال المشاهد وروعة المناظر والجمال.

في الولايات المتحدة الأمريكية

بعد رحلة طويلة حطت بنا الطائرة بعد عبورها المحيط ولكم مرّ بي من هاجس وخاطر ونحن فوق المحيط أتذكر فيه آكتشاف قصة البحار كريستوف كولمبس لأمريكا حيث توالى بعده المكتشفون وما كان لأسلافنا من دور كبير، فالمسلمون الأندلسيون قد سبقوه إلى البرازيل والبرتغال والأرجنتين حيث ذكروها في أخبارهم باسم الجزيرة الخضراء ومازال للعرب آثار حتى الآن في تلك الديار من قبل وفي أمريكا اللاتينية فاسم قرطبة وغرناطة وقرطاجة لا زالت في كل مكان منها أثر.

ووصلنا مطار نيويورك في مساء يوم ١٣٧٣/٦/٢٠هـ فاستقبلنا المطر الغزير والبرد الشديد.

وبعد إنهاء الإجراءات المعتادة كانت سيارة المكتب الثقافي في انتظارنا، ومضت بنا تطوي الأرض وتجتاز الشوارع والميادين والأحياء حتى استقرت بنا في أحد فنادق نيويورك وسرحت طرفي في جنبات هذه المدينة الكبيرة اتأمل نيويورك المدينة التي طالما سمعت وقرأت عنها، حيث ناطحات السحاب العالية وبعد استراحة في الفندق خرجت مع مجموعة من الرفاق نتجول في أسواقها وميادينها القريبة من الفندق والحياة فيها لا تفتر ليلاً ولا نهاراً، وبعد تمضية يومين في رحابها توجيهنا صوب ولاية ميتشقان وفي مطار نيويورك يشاهد المرء أفواجًا من البشر وأصنافًا من الناس ونظامًا وترتيبًا، وعلى إحدى طائرات البوينج الأمريكية أقلعت بنا الطائرة والساعة سبع من الصباح وكان شريكي في المقعد أمريكيا من ولاية تكساس ذاهبًا إلى ولاية ميتشقان فكانت فرصة للحديث وقد لمست منه تجاوبًا وسرورًا حيث كان متهلل الوجه فكان يشرح لي عن الحياة في أمريكا وتاريخ كل ولاية ونشاطاتها وحاصلاتها، وبعد ساعتين من الطيران هبطنا في مدينة «لانسنق» وكان الجو ممطراً وبارداً وفي المطار كان في إنتظارنا مجموعة من الإخوان وقد كانوا في المطار منذ الصباح فأوسعونا ترحيبًا وإيناساً وصحبونا بسياراتهم إلى فندق جامعة ميتشقان وبقينا تلك الليلة في سمر لطيف ولم

يتركوا وسيلة لإكرامنا وتعريفنا بالولاية إلا اتخذوها وقد طرحت عليهم الكثير من الأسئلة والاستفسارات على حد قول الشاعر القديم:

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

وفي الصباح سرنا كما رسم لنا إلى إدارة الجامعة حيث قابلنا المسؤولين ثم خرجنا إلى معهد اللغة الإنجليزية فزرنا حجر الدراسة واستمعنا إلى مديره وأساتذته، ولقد رأينا في المعهد أعدادًا كبيرة من أبناء الوطن العربي ممن حضروا لتحضير الشهادات العليا ولقد امتلأت نفسي سرورًا حينما ذهبت إلى المكان المخصص لصلاة الجمعة حيث وجدت عددًا كبيرًا من الإخوة المسلمين من مختلف الأجناس.

وفي المساء خرجنا في صحبة إخواننا إلى أسواق المدينة ومشاهدة معالمها وميادينها ثم ذهبنا لأحد البنوك المجاورة للجامعة لفتح الحساب وايداع النقود التي كانت بحوزتنا، وغدونا بعد ذلك إلى خارج المدينة حيث جلسنا في بعض الحدائق والمتنزهات الجميلة وذهبنا لتلبية حفل العشاء الذي أقامه أحد مواطنينا وشبابنا الأفاضل، والتقينا عنده بطائفة من إخواننا الذين يتلقون تعليمهم في هذه الولاية. وبعد قضاء وقت ممتع ودعنا الجميع شاكرين لمضيفنا فضله وهمته وكان الوقت متأخرًا قاصدين فندق الجامعة، وفي أثناء الطريق أصيبت سيارتنا بعطب عطل حركتها ولبثنا خمس دقائق في انتظار سيارة عابرة وإذا بسيارة الشرطة تقف بجوارنا وعلى الفور أخذوا في إصلاحها وإضاءة الأنوار لنا وهكذا لقينا من عنايتهم وإهتمامهم ما جعلنا ننسى ما أصابنا من إعياء وتعب.

وفي الصباح غدونا إلى مركز اللغة الإنجليزية للدراسة فيه والتحق كل واحد منا بالمستوى المماثل له وأمضينا في ربوع «ولاية ميتشقان» أيامًا ممتعة رغم مضايقات الجو والثلج والبرد القارس مما جعل بعض الأيام عصيبة رغم ما وجدناه من إخواننا من أنس ومودة جعل لهم في قلوبنا أثرًا لا يمحى وشكرًا يتجدد.

ووسط هذه الأجواء فقد تفرق جمعنا ووجه كل واحد للسكن مع أقوام آخرين

من غير جنسه وبني جلدته ودينه فإذا بعضنا يشعر بالامتعاض والآخر يحس بالسعادة وفريق بين الرضا وعدم الارتياح، ولقد سرني أن يكون نصيبي السكن مع زميلين من الولايات المتحدة الأمريكية ولقد وجدت منهما في البداية عدم الأرتياح وخاصة عندما عرفا أني عربي فأمطروني بكثير من الأسئلة وسرى الخبر بسرعة في أنحاء الجناح الذي نقيم فيه فحضروا زرافات ووحدانا ليتفرجوا ويشاهدوا الضيف الجديد القادم من الشرق الأوسط ومن بلاد العرب، وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث وأجيب على الأسئلة والاستفسارات وبالطبع بلغة ركيكة ضعيفة وإذا بأحد الرفاق من زملائنا يدق الباب فسعدت به حيث ساعدني في فك حصار الأسئلة وقال لي: هلم بنا نبحث عن زملائنا فقلت: وكيف الوصول إليهم فقال: هيا بنا فقد ضقت ذرعًا من هؤلاء، فخرجنا نتجول وسط الثلوج والبرد والمطر من عمارة إلى عمارة دون نتيجة مرددًا قوال الشاعر:

نزجي الأحاديث من سلوى ومن ألم ومن أمان ذوت فيهن أعمار

فضللنا الطريق حتى أغطش الليل وازداد الظلام، وكلما التفتنا إلى الخلف فإذا المناظر والطرق تمتلئ ثلوجًا وصدفة مرت إحدى السيارات الخاصة بأحد طلاب الجامعة فسألناه: أين نحن من مقر سكننا؟ فقال: أنتم على مقربة منه وأرشدنا نحوه.. وسرنا نجتاز الثلوج ولابد من التريث وإلا سقطنا عليه وهكذا مرت الأيام تترى وتتوالى سراعًا حتى كأنها ساعات في العمر في بحر الزمان.

وخلال وجودنا قمنا برحلات متعددة إلى عدد من الولايات الأمريكية والتعرف على معالمها وجامعاتها ومرافقها السياحية ومؤسساتها التعليمية والتربوية، والمعامل والمصانع على إختلاف أنواعها وقل أن تجد موقعًا من الأرض خاليًا من البناء والزراعة والإصلاح والتعمير مما يذكر بقول الشاعر:

وسوف تبهرك الأنوار ساطعة بكل علم حباه الله للبشر

حفل عربي في جامعة اكلاهوما

تضم ولاية أكلا هوما عدداً من الطلاب العرب وقد رغبوا في تنظيم حفل غربي في جامعة اكلاهوما يدعون إليه أساتذتهم وزملاءهم ومن هم يتعاطفون مع العرب ويتحمسون للإسلام، ووجهت رقاع الدعوة إلى أعداد أخرى خارج الولاية، فكان حفلاً رائعاً يجسد الشرق بجماله وحضارته ومجده التليد وروابطه التاريخية، وما أن حان وقت الحفل حتى شاهدنا أعداداً كبيرة من الناس تهرع لحضور هذا الحفل حتى غصت القاعة الكبرى في مدينة نورمان بالمدعوين من الأساتذة والطلاب ورجال العلم والمعرفة والمراكز الإسلامية فكان لقاء كريماً ازداد التعارف فيه بين الحضور.

وخلال الحفل ألقيت الكلمات والأناشيد والرقصات الشعبية وقدم الطعام العربي الشرقي اللذيذ وأعقبه دقات طبول وأصداء العرضة السعودية.

واستجابة لرغبة الزملاء رأيتها فرصة طيبة فنهضت متحدثًا عن مراكز الثقافة الإسلامية في العصور السالفة وكيف كان الشرق منارة تشع فيها أنوار العلم والعرفان، وكيف خبا ذلك النور ثم أردفت القول بهذه القصيدة بناء على طلب الإخوة والزملاء:

فجاءت هذه القصيدة تحية لليلة وتعريفا بمفاخر الحضارة والثقافة العربية الإسلامية، وهي قصيدة طويلة أجتزئ منها ما يلي:

حي الجميع بليلة عربية ... جمعت كرام الصحب والأمجاد
ياليلة جمعتنا وسط ولاية ... بجنوب أمريكا بلا ميعاد
قد زانها حسن التعاون والإخاء ... هاجت من الأشجان كل مراد
وغدت بذكرى شرقنا وجماله ... وزهت تتيه به على الأنداد
أيامه الغر الوضاء توهجت ... في خاطري وتضوعت بمداد
يا إخوتي في الضاد ألف تحية ... تترى مدى الأيام والأبعاد
فلئن تجمعنا هنا في ليلة ... فالقصد تعريف بكل بلاد
فروائع الأمجاد قد كانت بها ... ومفاخر التاريخ والإسعاد

هم شعلة الدنيا ومطلع فجرها ... والحاضر استهدى بهم والباد
فلقد علوا في الخافقين وأوغلوا ... بحضارة ممتدة الأوتاد
لله من يوم تألق جمعنا ... وزها بروعة أجمل الأعياد
يادوحة المجد الأصيل توهجي ... بمفاخر الأجداد والأحفاد
فلكم تألق عالم من أرضنا ... وأتى بكل فضيلة وسداد
لكنها مثل الأساطير انطوت ... في عصر تكنيك شديد عناد
بالأمس قرطبة وبغداد بها ... علم وآداب وحسن وداد
ومهابط الوحي العظيم فتزدهي ... بالفخر والإشعاع والرواد
ودمشق دار أمية ومعارف ... والنيل يحفل بالسنا الوقاد
والمغرب الأقصى تجلى فاخراً ... مما جرى لعقبة وزياد
واليوم نطمح أن نعود لمجدنا ... مترسمين مسيرة الأجداد
فملاحم التاريخ توحي أن من ... يسعى ويعمل صابراً بجهاد
لابد أن نصل الذي وصلوا له ... علم وتخطيط بكل عتاد
أنتم هنا رسل البلاد وفخرها ... بل موئل لرجائها ورشاد
إذ بالعزائم والشدائد نرتقي ... في كل ميدان بكل وهاد
ونقول للدنيا بكل شموخها ... إن المبادئ مصدر الإمداد
ولقد رأينا طول فصل كامل ... كيف التغير في الولاية باد
ولقد توهج فجرنا في وقفة ... باتت تؤرق مضجع الحساد
حين أنبرى العرب ألأ باة بقوة ... إذ حطموا ما كان من أطواد(١)
والمسجد الأقصى علينا واجب ... تحريره من قبضة الأوغاد
العز للإسلام دوما خالداً ... مهما يكن من بالغ الأصفاد
آي الكتاب تضيء كل دياجر ... وتشع بالتبصير للمبعاد
إني وجدت الخير في دنيا التقى ... متنكبا ما كان من أضداد

(١) إشارة إلى حرب رمضان عام ١٣٩٣هـ.

قد عزنا الإسلام بعد جهالة ... لا فرق فيه بأبيض وسواد
يا أخوتي نبراسنا وضياؤنا ... الدين والأخلاق نعم الهادي
فتمسكوا بهما على طول المدى ... فهما لنا ذخر وخير عماد
وعلى هدى الإسلام نبقى هاهنا ... متمسكين بديننا بجلاد
لن أنسى طول الدهر مثل لقائنا ... في «نورمن»[1] هي ملتقى القصاد
نسجت جمال الورد في أحيائها ... وتمايس الأغصان وسط الواد
وبحيرة بالحسن يالجمالها ... والروض طوقها بحسن اياد
وسنذكر الأيام وسط ربوعها ... بعد افتراق الجمع والآحاد
مرحى بمن قد جاء يحضر حفلنا ... من سائر الأرجاء والأنجاد
متكبداً طول الطريق وبعده ... ومتاعب «الهاي وي»[2] والترناد[3]
قد جاء من تكساس أو واشنطون ... نيومكسيكو ميشقان ومن نيفاد
ميشقان فلن أنسى بها أيامنا ... تلك الولاية ذكرها بفؤاد
فصلان قد أمضيتها بربوعها ... بلد الثلوج تغطي كل مهاد
وتحية للكل ممن قد أتى ... بمشاعر ومحبة للضاد

ثم انفض الحفل الذي كان مشهداً رائعاً يمثل الماضي والحاضر ويعطي صورة طيبة عن العادات والتقاليد، كما كان فرصة للتعريف بالحضارة الإسلامية وتراثها العريق، وبينما كنت في وداع بعض الإخوان وإذا ببعض الأساتذة الأمريكيين يقولون لي: لقد ذكرت قرطبة فما شأنها بالعرب فقلت: هل تقصدون ما شأنها بالأمس أم اليوم؟ فأوضحت لهم تاريخها وما كانت تحفل به من مجد فهي من المدن التي يفيض بذكرها التاريخ الإسلامي وما الحضارة الغربية إلا إمتداد طبيعي في مجال تراثنا العلمي ولكن الحاقدين على عظمة الثقافة الإسلامية وصيرورتها ثقافة عالمية هم الذين يكابرون في ذلك.

(١) نورمن: إحدى مدن ولاية أو كلاهوما وبها الجامعة.
(٢) الهاي وي: الطريق البري الطويل.
(٣) الترناد: محرفه عن «الترنيدو» ريح عاصف شديد.

في مدينة نورمان:

هذه المدينة أحدث مدن ولاية أكلاهوما ولقد أمضيت بها فترة من الزمن وهي بلدة هادئة وبها جامعة تضم عشرة آلاف طالب وبها عدد من الطلاب السعوديين.

ولقد حباها الله بالجمال وكنا نخرج في الأمسيات والإجازات إلى ريفها ومتنزهاتها لنرى المزارع والمراعي والبساتين والزهور، وبجوارها بحيرة من أروع البحرات تبعد عن نورمان خمسة عشر كيلاً وعلى جوانبها حدائق فواحة بالزهور والرياض وميادين فسيحة لوقوف السيارات وبجوارها مزارع نشتري منها الأغنام ونذبحها على الطريقة الشرعية.

وعلى ضفاف البحيرة كانت اللقاءات والإجتماعات للجاليات العربية وإقامة الحفلات والدعوات حيثأن المكان واسع فسيح إلى جانب نسمات الصبا ونفح الورود إن هذه المناظر الخلابة الساحرة توحي بالشاعرية.

كم جلسنا على ضفاف البحيرة في سرور وبهجة ومحبه

ولقد قمت بجولات عديدة وشاهدت الكثير من الولايات الأمريكية مثل أنديانا.. شيكاغو.. أوهايو.. بنسلفانيا.. تكساس.. واشنطن.. ميزوري.. كاليفورنيا.. أكلاهوما.. واشنطون.. نيويورك.. وغيرها.

ولقد وجدت الولايات المتحدة الأمريكية باتساعها الجغرافي وتنوع سكانها النازحين من أوروبا وغيرها أنها مجتمع غريب التركيب، فتنوع أولئك السكان وتلك السلالات البشرية المتعددة جعلها من أكثر بلدان العالم تنوعاً بل وغموضاً ولكن الطواف بهذه البلاد الشاسعة سيجعل المرء دون شك يزداد خبرة ومعرفة بحياتها فرأيت أمريكا في خيرها وشرها ونعيمها وبؤسها ونظامها وحياتها وشدتها ورخائها وصيفها وشتائها وشبابها وكهولها ومدنها وقراها.. فيها المدن المزدحمة والبلدان المكتظة والمصانع العتيدة والمتاجر الرائعة والثقافات الحديثة والأراضي الخصيبة والأنهار الجارية والبساتين الممتدة وحقول القمح التي لا يبلغ البصر منتهاها والمزارع الواسعة الخصبة وألوان الحضارة المتنوعة والجامعات.. وتتشابه في عاداتها وتقاليدها.

ومع ذلك فهناك عدد من الولايات تهب عليها في الشتاء ريح صرصر عاتية تسمى «الترنيدو» وتصحب بمطر غزير وعاصفة هوجاء فتقلع الأشجار وترمي الأحجار وتضرب الجسور وتهدم البيوت وتقطع خطوط الهاتف والماء والكهرباء ويتابع مركز الأنواء الجوية بث التحذير من خلال المذياع والتلفاز ولكم واجهت تلك العواصف في مدينة «نورمن» وخلال رحلاتي إلى تكساس ولكن الله كان بنا رحيما.

وهكذا حوت هذه الأرض أموراً شتى ومناخات متعددة وكما قيل:

وقد حوت في طواياها هوى وهدى ... لكل منغمس فيه ومدكر

ترى بها الضد تلو الضد قد جمعا ... فيها وتلقى اندماج الصفو بالكدر

حول الجامعات الأمريكية

إن الجامعات تحظى بعناية ورعاية فهي بحق مدن جامعية متكاملة وتتوقف حياتها على الجامعة وطلبتها فلا جلبة ولا ضوضاء، والجامعات هناك منها ما هو أهلي ومنها ما هو حكومي تضطلع الدولة بأعبائها الوفيرة، كما أن المكتبات عامرة بشتى الكتب والمراجع فلا يشعر الطالب والباحث بنقص، ومتى بحث الطالب عن كتاب فلم يجده فإن الحصول عليه يسير من الجامعات والمكتبات الأخرى بزمن قصير علمًا بأن الكتب تباع بأسعار زهيدة ولا تقتصر الجامعة على مكتبة واحدة بل فيها إلى جانب المكتبة العامة مكتبات للكليات والأقسام الأخرى وقاعات للبحث وغرف للباحثين، ولقد وجدت أن بعض الجامعات في ميتشقان وهارفارد وشيكاغو وأنديانا ونيويورك وواشنطن وغيرها من الجامعات تشتمل مكتباتها على أكثر من ثلاثة ملايين كتاب إلى جانب المخطوطات والمطبوعات الدورية والشهرية وغيرها مما ينشر في مختلف العواصم والمدن الأخرى في العالم ورسائل الماجستير والدكتوراه التي يقدمها الباحثون في العالم بأسره.

أما المتاحف والمعامل والمختبرات فالجامعات مليئة بها وبشكل منسق ودقيق... ويحرص علماء اللغات على تسجيل اللهجات واللغات عن طريق الناطقين بها وخاصة وأن الجامعات بها أعداد من الموفدين من شتى بلدان العالم.

ولقد رغبت في أن أقف على الكثير من المكتبات ودور العلم وعنيت أكثر ما عنيت بزيارة مجموعة من الجامعات ومكتباتها، وكم وددت لو طال بي الزمن لأزور معظم الولايات والوقوف على الكثير من المعالم والمؤسسات الثقافية والفكرية والتربوية، وآمل أن تتاح لي الفرصة لاستكمال ذلك... ولقد أقمت في بداية ذهابي إلى هناك حيث يقيم الطلبة والأساتذة واشتركت في الكثير من مظاهر الحياة فشهدت الكثير من الدروس والمحاضرات وجلست في قاعات البحث والمكتبات وطفت بالمعامل والمختبرات والأندية والملاعب ودعاني البعض لزيارة دورهم ومنازلهم في بعض المدن والقرى. لم تخل تلك اللقاءات والزيارات من فوائد ودروس وذكريات مما ترك في نفسي أثرًا وذكريات لا تنسى.

إن معظم الجامعات في أمريكا تحظى باهتمام وعناية إذ يقع الكثير منها في القرى والمناطق الهادئة بعيدة عن المناطق الصناعية وجلبة المصانع وضوضاء المدن مما يوفر للطلاب والطمأنينة وراحة النفس وهدوء البال والإقبال على الدراسة والبحث والتأمل والمذاكرة والدراسة فينقطع الطالب للعلم لا يكاد يشغله شاغل.

ويحضرني بعض الذكريات التي لا تزال صورها ماثلة أمامي، فقد كنت في زيارة لاحدى الجامعات في ولاية أكلاهوما وقد طلب مني أحد الطلاب أن أسجل له بعض الكلمات باللغة العربية الفصحى، ثم طلب مني آخر أن أسجل له بعض الأشعار العربية. ثم فوجئت بأحد الطلاب يقدم نفسه بأنه من معهد الصوتيات ويرغب في تسجيل بعض الكلمات العربية.

ولا شك أن حرصهم على ذلك دليل على اهتمامهم بهذا العلم لأن في ذلك فرصة لهم يستفيد منها الطلاب وعلماء اللغات واللهجات.. ولقد وجدت مجموعة من الطلاب الأتراك والإيرانيين يطلبون مني ذلك قائلين إن ذلك يعينهم على معرفة ودراسة اللغة العربية وإجادة نطقها، ولقد قرأت أن إحدى الجامعات في بلومنتجتن تستعد للتحضير لمؤتمر للهجات ووجهت دعوة مفتوحة للراغبين في ذلك من مختلف أنحاء العالم من علماء اللغات.

إن بعض الجامعات يزيد عدد طلابها عن خمسين ألفا ومع هذا فلا جلبة ولا ضوضاء بل نشاط متجدد ونظام دائم وحركة متواصلة وعمل مستمر وهدوء في الدخول والخروج، ولذا فإن منصب رئيس الجامعة لا يقل عن أكبر منصب في الدولة فهو رفيع الشأن ويتنافس العلماء في الفوز به.

هذه لمحة سريعة وصورة من الحياة الجامعية في أمريكا، والمهم أن تستفيد مما هو جدير بالفائدة منه وليس كل ما في الجامعات حميداً خاصة بالنسبة لنا ولتقاليدنا الإسلامية، ولكن ينبغي أن نأخذ ما يكون حسنًا ومفيداً وندع ونتجنب ما يكون ضاراً وسيئًا، فالجامعات في كل أمة هي مناط الرجاء ومعقد الأمل ووسيلة إلى النهوض والرقي والتقدم بل ومعمل لإعداد الرجال.

الطلاب المسلمون في أمريكا:

بمناسبة ذكرى المولد النبوي أقام اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا حفلا بهذه المناسبة وقد وجهت الدعوة إلى عدد كبير من الطلاب والأساتذة وغيرهم، وقد تلقيت دعوة من اللجنة المشرفة على تنظيم هذه المناسبة بالمشاركة في إلقاء كلمة عن الحضارة الإسلامية، وقد لبيت الدعوة لأني رأيتها فرصة ذهبية أن يرتفع صوت الإسلام وسط هذا الزخم الهائل من نشاط الجمعيات المسيحية واليهودية ونشاط الكنيسة ووعاظهم الذين يحاولون أن يجتذبوا إليهم أكبر عدد من شباب المسلمين الذين يتلقون دراساتهم في تلك المجتمعات بأعمق أساليب التأثير كما أن جمعيات الطلاب المسيحيين لها نشاط واسع في الجامعات ولهم نشاطهم ومشروعاتهم الرامية إلى التبشير ونشر الديانة المسيحية، وقد كان ذلك كله من بواعث حماسي لاهتبال هذه الفرصة والمشاركة في ذلك اللقاء الإسلامي الكريم، وقد بدأت الحديث مباركًا هذا اللقاء ومرحبًا بالحاضرين من أبناء الديانات الأخرى، وتحدثت عن الرسالة الخالدة وأهدافها العادلة وحينما كنت مسترسلا في الحديث عن ذلك ومستدلاً بنماذج من تاريخنا وتراثنا ورجالنا إذا بأحد الإخوة ممن اعتنق الإسلام حديثًا ينبري قائلاً: أرجو أن تحدثنا عن العدالة في الإسلام فقد أفقدتنا بعض الديانات إنسانيتنا وكرامتنا فقلت: إن الإسلام لا تمييز فيه بين أبيض وأسود بل أمة واحدة لا يرتفع ويتعالى صاحب اللون الأبيض على الأسود بل الكل سواء عند الله فلا تمايز إلا بالعمل الصالح «إن إكرمكم عند الله أتقاكم» وفي الحديث «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» فالأخوة الإسلامية هدف من أهداف الإسلام، وفي كل التشريعات الإسلامية يلمس المرء ذلك واضحًا جليا بارزا ففي الصلاة يقف المسلمون جميعًا فلا تفاضل بين غني وفقير ولا أسود وأبيض وفي الحج يلبس الناس لباسا واحدا ويؤدون منسكًا واحدًا وفي الصوم موقف واحد..

ثم أردف أحد الأخوة الحضور بسؤال عن إعطاء أمثلة ونماذج فقلت: لقد كرم رسول الله سلمان الفارسي وصهيبًا الرومي وبلالا الحبشي وكانت لهم المكانة الرفيعة فقد أمر رسول الله بلالا أن يؤذن فوق الكعبة يوم فتح مكة والكعبة لها

قدسيتها وعظمتها.

وقد كان رسول الله بارًا بالفقراء وكذلك خلفاؤه من بعده يجوعون ليشبع غيرهم ويتفقدون الناس في منازلهم، وأعطيت أمثلة من مواقف عمر الخالدة المشهورة كما أن الكثير من الوفود الإسلامية إلى الملوك والرؤساء كان على رأسهم أمثال عبادة بن الصامت وعطاه بن أبي رباح وهما معروفان بشدة سوادهما ولم يمنعهم سوادهم من تسنم المناصب القيادية فالإسلام لم يكن معروفًا في تاريخه بالتمييز العنصري بل تطبيق واضح لمبادئ الإخاء والمساواة.

لقد كان للحضارة الإسلامية دور فعال وأثر بارز في مختلف الميادين الفكرية والعلمية والخلقية والأدبية وفي ميدان الطب والفلسفة والعلوم والرياضيات، فقد استيقظت دول أوروبية عديده على آثار علمائنا ومفكرينا وفلاسفتنا في قرطبة وغرناطة والقيروان وبغداد ودمشق ومكة والمدينة، تلك العواصم كانت تتألق بالعلم والمعرفة ونشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية مما هو معروف وواضح، وكتب المستشرقين تمتلئ اعترافا بذلك ومنهم غوستاف لوبون ومسيورنان فمن يرجع إلى كتاباتهما يدرك أن للحضارة الإسلامية فضلاً في التقدم العلمي.

وختامًا فإن واجب شباب الإسلام اليوم أن يكونوا على مستوى المسؤولية ويقتدوا بأسلافهم ويقودوا الناس إلى مبادئ الإسلام والحق والخير، وما أجدرنا أن نتأمل قول الله «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور».

وبعد فحسبي من ذلك الحديث الموجز أن ألفت الأنظار إلى ديننا وحضارتنا وإن كنت لم أتمكن من توفية هذا الموضوع حقه ولكن الدقائق المحددة لم تسمح لي بأكثر من ذلك، والمهم اختيار الوسيلة والاسلوب المناسب الحسن الذي يتقبله الآخرون.

وأخيرًا لقد انقضت تلك الأيام وبقيت الذكريات من تلك اللقاءت العلمية:

رعى الله أيامًا لنا وليـــاليـــا سعينا بها للمجد والدهر مسعد

في مكتبة الكونجرس

المكتبات في كل أمة عنوان رقيها وتطورها فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلها إذ تساهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل، فهي من أهم ركائز المجتمع إذ تتحف عشاق المعرفة ورواد العلم والآداب بينابيع ثرة من المعارف والفوائد والعلوم. . فهي حجر الزاوية في تكوين المواطن القارئ والمجتمع القارئ. . ومكتبة الكونجرس الأمريكي هي أكبر المكتبات في العالم تستأثر باهتمام الزائرين إذ يحرص كل فرد يصل إلى تلك الربوع على زيارتها وقد أصبحت شهرتها تجذب الناس إليها. .

ولقد أتيح لي زيارة عدد كبير من المكتبات في مختلف البلدان ولكني لم أشاهد مثيلاً لهذه المكتبة، فهي أضخم مكتبة في العالم في نظري. وخلال زيارة لمدينة واشنطن العاصمة ذهبت لزيارة تلك المكتبة وبقيت أتجول في ردهاتها وبين مختلف قاعاتها وخزائن كتبها عدة ساعات.

ولكم بهرت وأنا أشاهد ما تحفل به هذه المكتبة من روائع الحضارات وما تزخر به من شتى الثقافات وما تفيض به من ملايين المجلدات في مختلف ميادين المعرفة وفنون العلم وضروب الآداب والحضارات القديمة والحديثة ومصادر البحث ودوائر المعارف بالإضافة إلى ما حفلت به من مختلف الفهارس العامة والخاصة والمنوعة إلى جانب الموسوعات التي يجد الباحث فيها مبتغاه ويروي ظمأه من هذه المناهل العذبة الوافرة.

ورغم تلك الساعات التي قضيتها في رحاب المكتبة لم أتمكن من مشاهدتها كلها ورؤية كافة جوانبها ففيها يتوافر كل ما يحتاجه الباحث من مصادر البحث والمعرفة نظراً لوجود المراجع، وهي من أهم أسس المكتبات إذ هي عماد المعرفة وركيزتها وهي السبيل الوحيد للاطلاع الواسع على مختلف أنواع الثقافة والمعرفة قديماً وحديثاً، ولكي تقوم المكتبة بواجبها على الوجه الأكمل يجب تزويدها بالعديد من المراجع التي تقوم بحفظ المعرفة والثقافة على مر العصور والأجيال.

فالكتب هي السجل الدائم للحضارة والثقافة الإنسانية وستبقى باستمرار ذات

أثر بارز وحيوي للوفاء بالاحتياجات العلمية والثقافية والتربوية.

ومن هنا تبدو أهمية مكتبة الكونجرس العلمية فلقد شاهدت العديد من الباحثين والمؤلفين جاءوا من مختلف الولايات وشتى الجامعات ومراكز البحوث إلى جانب العديد من الطلاب ممن يحضرون رسائل الماجستير والدكتوراه غارقين في بحر من الكتب والنشرات والقصاصات والدوريات... والخرائط والصور واللوحات التوضيحية والشرائح التعليمية والأفلام الناطقة والصامتة إلى غير ذلك من الأجهزة الحديثة التي تعرض بها المواد البصرية والسمعية.. مما جعلها مقصداً للرواد والزوار.

ولقد جرى تصميم هذه المكتبة على أحدث طراز في فن البناء وزينت بالصور والرسوم الجميلة إلى جانب الذوق الفني الرفيع في بنائها إذ هي تقع في أبرز مكان بمدينة واشنطن وبجوار مجلس الكونجرس الأمريكي والمحكمة العليا، وتمتاز تلك المنطقة بجمالها الفتان ومناظرها البديعة وخمائلها المبهجة التي تسر الناظرين.

والحديث عن المكتبات حبيب إلى النفس وقريب إلى القلب وكيف لا يكون كذلك وهي أكبر مظاهر التقدم والمقياس الصحيح لرقي الأمة فإذا أردت أن تعرف هل أرتقت أمة من الأمم وما مقدار هذا الرقي أو الانحطاط فاعرف عدد مكتباتها وقرائها فبمقدار عدد المكتبات وروادها يكون الرقي وعكس ذلك دليل على الضعف والخمول.

ولمكتبة الكونجرس الأمريكية رسالة عظيمة تؤديها، وليس أجدى وأنفع من تقديم العلم والمعرفة بايسر السبل، فقد شاهدت الآلاف من الشباب يتهافت على دخول المكتبة بدافع من الجد الفائق والنشاط الكبير.. ومع هذه الأعداد الكبيرة من الناس فإن لهذه المكتبة نظاماً عاماً يخضع له الجميع من رواد وزوار فلا صخب ولا ضجيج ويمنع التصوير داخل المكتبة إلى غير ذلك من التعليمات... ولقد توجهت صوب المكتبة وعند بابها أخبرني أحد الحراس قائلاً: ممنوع التصوير داخل المكتبة فقلت: لقد أضعت ساعتين في البحث عن فيلم ألتقط به صوراً لهذه

المكتبة وتخليداً لزيارتها ولو كنت أعرف ذلك لما أضعت وقتي متنقلاً من مكان إلى مكان في وسط شوارع واشنطن الضخمة فقال: إن تعليمات المكتبة تنص على ذلك وبإمكانك ترك المكينة هنا أو اصطحابها معك مع ملاحظة عدم التصوير... والقصد من ذلك كما فهمت هو عدم إزعاج القراء وغير ذلك من الأسباب، لأني دخلت متحف واشنطن فكادت عيناي لا تبصران ما في داخل المتحف نظراً لكثرة التقاط الصور من السائحين والزوار بدرجة تزعج المشاهدين وخاصة أن آلات التصوير تطورت تطوراً هائلاً وأصبحت عدسات الإضاءة تجهر كل عين وتؤذيها.

ولنعد إلى الحديث عن مكتبة الكونجرس فلقد عهد بتنظيمها إلى أكبر الكفاءات العلمية البارزة هناك فرغم ما تحويه من كتب وموظفين وخبراء فقد نظمت العلاقات المختلفة بين هذه الجماعات العاملة فيها كأنها آلة ميكانيكية متحركة، فليس هناك شيء اسمه من اختصاص الجهة الأخرى فقد أمطرنا المرافق الذي خصصته لنا إدارة المكتبة بوابل منهمر من الأسئلة العامة والخاصة والدقيقة فكانت الإجابات في منتهى السرعة والوضوح سواء منه أو من سواه.

ويعود تاريخ مكتبة الكونجرس لعام ١٨٠٠م ويوجد بها حالياً من الكتب خمسة وثمانون مليوناً ما بين كتاب ووثيقة ومخطوطة، أما عدد الكتب فهي ستون مليون كتاب ومائة وعشرون ألفا من مجلدات الجرائد والمجلات الدورية والعامة و٧٥٠ ألف بكرة ميكروفيلم و٢٠ مليون مخطوطة أكثرها يتعلق بتاريخ أمريكا وحضارتها و٣ ملايين خارطة و٣ ملايين صورة وشريحة ومئات الآلاف من الاسطوانات الموسيقية وغير الموسيقية والأفلام[١].

وإلى جانب ما أتاحته للقراء المبصرين فلم تغفل إخوانهم المكفوفين إذ يوجد بها أكثر من مليون ومائتي ألف كتاب مجلد مطبوعاً على طريقة برايل إلى جانب الاسطوانات وغيرها الخاصة باستعمال الإخوة المكفوفين.

كما أن عدد موظفيها والعاملين بها أربعة آلاف شخص وقد سألتهم عن أقدم

(١) كانت الزيارة في عام ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

كتاب يوجد بهذه المكتبة الكبيرة فقيل لي أن أقدم كتاب بها يرجع تاريخه إلى ما قبل أربعة آلاف سنة وهو من مصر.

ولقد شاهدت بها كتابين أحدهما من جلد الغنم والآخر من جلد العجل يعود تاريخهما إلى ما قبل خمسمائة عام وقد كتب عليهما الإنجيل. كما توجد قاعة خاصة حفظت بها جميع رسائل قادة أمريكا ورؤسائها منذ أكثر من مائتي عام، ووضعت كل رسالة في داخل زجاجة مقفلة تحمل توقيعاتهم.. ولقد عن لي أن أسأل عن عدد اللغات التي كتبت بها هذه الملايين من الكتب والمجلدات فكانت إجابة مرافقنا عن ذلك سريعة هي مائتان وخمسون لغة قديمة وحديثة تمثل مختلف لغات العالم، وإلى جانب ذلك توجد خمس عشرة قاعة للمطالعة على أحدث طراز وكل قاعة على شكل قبة تحتوي على مختلف الصور والرسوم، ويشاهد في أعلى كل قبة رسوم رائعة خلابة لمختلف الحضارات ومن بينها الحضارة الإسلامية وبها جذع شجرة يعود تاريخه لأكثر من سبعة آلاف سنة على حد تعبير مرافقنا، وهذه الإحصائيات التي أوردتها أخذتها مشافهة عن موظف المكتبة الذي خصصته إدارة المكتبة لمرافقتنا والإجابة على أسئلتنا.

وأمام هذا البحر المتلاطم الزاخر بالعلم والمعرفة والكتب دار في ذهني تساؤل عن الكتاب العربي واللغة العربية وهل تبوأت مكانة لائقة بها في هذه المكتبة العريقة؟ فلا ريب أن الثقافة الإسلامية والعربية بلغت مكانة مرموقة وصيتًا ذائعًا، وبقيت تلك الكتب لامعة في سماء العلم والمعرفة بما تحمله من آثار جليلة في حقول العلم ورياض الآداب وميادين الفكر قديمًا وحديثًا... فتوجهت بسؤال عن عدد الكتب العربية الموجودة في هذه المكتبة وخلال دقائق جاءت إحصائية بذلك بأن عدد الكتب العربية ثمانون ألف كتاب كما يوجد (٢٥٠) مائتان وخمسون ألف عنوان لكتب ومؤلفات عربية وهذا الرقم خلال الزيارة عام ١٣٩٣هـ.

ولعل مما يثير الدهشة أن كل ثلاث ثوان يدخل إلى هذه المكتبة كتاب جديد.

وبعد تجوال طويل تركت هذه المكتبة حاملاً لها أجمل الذكريات إنها لجديرة بكل إعجاب وخليقة أن تذكر في سجل أوائل المكتبات الحديثة على مر الأجيال.

في الشرق الأقصى

في الساعة العاشرة والنصف مساء يوم الاثنين ١٣٩٩/١/٤هـ غادرت مطار الظهران على طائرة البوينج الكورية متوجهًا إلى سيول عاصمة كوريا الجنوبية ضمن الوفد السعودي وقد أخبرتنا مضيفة الطائرة بأننا سوف نرتفع على بعد ٢٧ ألف قدم وسنهبط في الصباح في مدينة بانكوك عاصمة تايلاند للتزود بالوقود ومن ثم استئناف الرحلة إلى كوريا وفترة الرحلة ثمان عشرة ساعة بالتمام والكمال فالتفت إلى أحد الزملاء قائلاً: ستكون الرحلة شاقة وهل سنبقى هذه الفترة الطويلة بين طيات الغيوم والسحب فقال: نعم فقد سبق أن ذهبت في رحلة مماثلة وقال مازحًا: ستكون الرحلة أطول من الساعات التي حددتها المضيفة، وهكذا بقينا معلقين في الجو طوال الليل وكانت العواصف على أشدها فنحن نتجه للشرق الأقصى وإلى بلاد لا نعرفها وفيها الكثير من الجبال والبراكين والبحار.. ومضت الطائرة تشق أجواز الفضاء في هدوء مهيب تلهب في الذهن الخيالات الكثيرة، ومرت شتى الخواطر في ذهني وعاد بي الخاطر متذكرًا المكتشف الأول للطيران العالم المسلم عباس بن فرناس رغم ادعاءات البعض من المؤرخين الذين يغيظهم أن يكون المخترع الأول عربيًا ومسلمًا.. نعم فقد أعطي أولئك سر اختراع الطائرة. ورحت أسائل نفسي لو نجح عباس في محاولته كيف سيكون وضع الطيران في العصر الحاضر؟. وخلال تلك الأفكار التي كنت أناقش فيها أحد رفاق الرحلة وكان النوم يغالبه بسرعة جاءت المضيفة الكورية وكانت في غاية النشاط وتمرق في الممشى كمروق السهم وتغدق علينا بنظراتها لمعرفة ماذا نريد.. فهي قد اعتادت هذا الأسلوب من الحياة وقد تجد في ذلك متعه وراحة.

وبعد انصراف الهزيع الأول من الليل استأذنتنا في إطفاء الأنوار ليتسنى لمن يريد النوم أن ينام هادئًا، وأحضرت ما يشبه النظارة السوداء لنضعها على عيوننا أو لنعصب بها عيوننا ولكنها ناعمة ورقيقة ولا يتسرب من خلالها الضوء لينعم النائم بالهدوء والأحلام السعيدة ولكن كيف لي ذلك فأنا من الناس الذين لا يعرف النوم سبيلا إلى أعينهم في الاسفار سواء في الطائرات أو السيارات وأحمد الله

على ذلك، فبقيت وحدي بعد أن نام الرفاق أردد قصيدة امرئ القيس في مناجاته لليل:

ألا أيهـــا الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وغير ذلك من القصائد والأشعار.. ولم يطرد عني تلك الوساوس في الليل الدامس الرهيب إلا انبثاق إشعاع الفجر حيث نهضت لتأدية صلاة الفجر، ولكم شعرت بالراحة والسكينة بعد ذلك وبقيت أتأمل في قدرة الخالق وأردد قول الله تعالى (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) وأخذت أشاهد هذا الكون العظيم من ثقب نافذة الطائرة الذي هو من آيات الله، وكنا نعبر أرض تايلاند الخضراء حتى أشرفنا على العاصمة بانكوك ونظرت لساعتي فإذا بالتوقيت حسب بلادنا الخامسة صباحًا وحينما هبطت في المطار فرنوت للساعة المعلقة في قاعة الإنتظار فوجدتها العاشرة والنصف صباحًا...

غادرنا بانكوك بعد أن أمضينا فترة من الراحة في حدود ٤٥ دقيقة، ولم نستطع خلالها أن نستريح، حيث كانت مكبرات الصوت تتوالى في نداءاتها تعلن قيام الرحلات والإشعار عن وصول الرحلات القادمة، ومطار بانكوك مطار دولي كبير، كما أن قاعة الإنتظار تحوي أسواقًا حرة للبيع، وفيما نحن نتجول بين جنبات المعارض ونشاهد ما فيها من التحف والهدايا وأنواع البضائع المختلفة، وإذا بأحد الإخوان يربت على كتفي قائلاً: أسرع فقد صعد الركاب للطائرة، وهلم بنا، فذهبنا مسرعين نحو الحافلة التي جرت بنا نحو باب الطائرة، وبعد لحظة أقلعت الطائرة مواصلة رحلتها نحو كوريا طوال يوم كامل، ووصلنا «سيول» العاصمة في تمام الساعة السابعة مساء بتوقيت سيؤل وكان الجو ممطراً والبرد قارسًا، ودرجة الحرارة ٢ تحت الصفر، فكان المناخ باردًا جدًا، وكان في استقبال الوفد عدد من المسؤولين الكوريين، وسعادة السفير السعودي، وبعد استراحة قصيرة في المطار انطلقت بنا السيارة متوجهين نحو الفندق وسط وابل من المطر، وكنت أشاهد الناس يجرون في الشوارع بكل قوة وعزيمة وتصميم. وبحركات سريعة خفيفة؛ فالمطر بالنسبة لهم شيء عادي، كما أن البرد كذلك، رغم أجسامهم النحيلة، ولقد كان المرافق الكوري يتكلم لي بلغة ثلاثة أرباعها

كوري، وجزء منها انجليزي، حينما كنا نعبر شوارع العاصمة، ورغم أني لا أعرف كلمة واحدة من اللغة الكورية، فقد كنت أكتفي بهز رأسي حينما يتطلع إليَّ في إنتظار الإجابة، لقد حرصت قبيل سفري أن أدون بعض الكلمات في مفكرتي حيث أخذتها من بعض الكوريين العاملين في بلادنا، ورصدت مجموعة من الكلمات، وكنت متباهيًا بجمع هذه الألفاظ مما سيساعدني في عملية المخاطبة والتفاهم.. وحينما صعدت لغرفتي وفتشت حقيبتي وتحسست جميع جوانبها أدركت إني قد نسيت تلك المفكرة التي أمضيت ساعات في جمع تلك الكلمات وتبويبها وتنظيمها..

لقد كنت أحرص دائمًا قبيل سفري لأي بلد أن أستعلم عن عاداتها وتقاليدها ومناخها وتراثها وما إلى ذلك، مما ينبغي أن يعلم به المرء ويعني به.

ورحم الله أسلافنا الذين وصلوا إلى هذه الديار في الزمن الماضي فقد جاء في كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا إلى كوريا.

لقد أتيح لنا في هذه الرحلة التعرف على الكثير من النشاطات الصناعية والثقافية ومشاريع الإسكان والصناعات الإستراتيجية فهم يعملون بلا كلل ويحرصون على تعويض مافاتهم من أسباب الحروب فلقد أصيبت بلادهم بحروب طاحنة كانت نتائجها الخراب والدمار، ومع ذلك استطاع الكوريون الجنوبيون أن يعملوا بجد وحزم ويصمدوا أمام تلك المصاعب فأخذوا يضاعفون العمل ويتسابقون في ميدانه، فدوام العمل لديهم أكثر من عشر ساعات وقد حصدوا بالفعل نتائج المثابرة والتصميم والعمل المتواصل الجاد، وقد تجسد في هذه النهضة والتطور الاقتصادي والزراعي في مختلف المجالات، علمًا بأن كوريا تتكون من عدة جزر يبلغ مجموعها كما سمعته منهم ٣٥٠٠ جزيرة، وعدد السكان يتراوح بين ٣٧ مليونًا إلى أربعين مليونًا.

ولقد كان لزيادة ساعات العمل لديهم مردود اقتصادي حققوا من خلاله معدلات في الزيادة والإنتاج وبذلك تحسن مستواهم الاقتصادي فالمسألة مسألة صبر وتضحية وعزيمة.

إن العاصمة «سيؤل» مدينة واسعة كبيرة ويبلغ سكانها سبعة ملايين نسمة والشيء اللافت للنظر إنك لا تحس بالازدحام والتكدس والاختناق الموجود في بعض العواصم ولا تسمع للأبواق صوتًا كما لم ألاحظ ضغطًا أو تزاحمًا في عملية المرور، ولعل ذلك يعود إلى تخطيط وتصميم المدينة فهي مصممة بشكل هندسي جميل كما أن أحياءها غير ملتصق بعضها ببعض فهناك مسافات تفصل بعضها عن بعض.

لقد تجولنا في شوارع العاصمة ودخلنا الكثير من المعارض والمتاجر تحت الأرض والشيء اللافت للنظر سرعة الناس وهم يجرون في الشوارع ويتحركون بخفة ورشاقة ولا شك أن خفة أجسامهم وعدم ترهلها مما يساعد على الحركة والنشاط كما أنهم لا يأكلون كثيرًا وقد سألت الكثيرين ممن التقيت بهم عن ذلك فقالوا: إننا نأكل بمقدار محدد ونتجنب الدهنيات وبالفعل فقد لاحظت أطباق الأرز دون سمن كما يستعملون الثوم بكثرة ولقد حكى لي أحد الإخوان قائلاً: إن اليابانيين أصبحوا يحسدون الكوريين على رشاقة أجسامهم وخفتها فصاروا يحذون حذوهم في تناول كميات من الثوم إلى جانب تناولهم لكميات من حبوب وشراب «الجنسون» وهو أشبه بالشاي الأخضر وهو من خلاصات الأعشاب المتنوعة كما فهمت منهم، وهو منتشر بشكل واسع فكلما دخلنا متجرًا أو معرضًا عرضوا علينا كميات منه ونصحونا بشرائه قائلين سوف ترون فيه الفائدة الصحية إلى غير ذلك من أساليب الدعاية والتأثير وقد حدثونا قائلين إن عمر الشجرة يصل إلى أربع سنوات ويعود إنتاجها من جديد كما أن المطر والرياح يؤثران عليها، والعجيب أن هذه الشجرة منتشرة في الشرق الأقصى حيث رأينا ذلك في الصين والفلبين وتايلاند وكلهم يستعملونه وتدر عليهم أرباحًا هائلة ولدى البائعين أساليب شتى في اجتذاب الزبون ولديهم طرق عجيبة في طريقة عرض السلع وبيعها ويحضرون ما تريده في سرعة مذهلة.

والواقع أن هذه الأيام القليلة قد أعطتني حصيلة طيبة وهي مجرد انطباعات شخصية لا تعدو أن تكون بمثابة ذكرى متواضعة للأيام التي أمضيتها في تلك البلاد بل هي ملامح مما علق في الذاكرة من مشاهد ومواقف قد تكون في بعض

الأحيان طرائف.

وأحسب أن القارئ الكريم سيجد بين فصولها ما يمتعه وبطبيعة الحال فالقارئ محب وتواق إلى الاستطلاع ومعرفة أحوال الأمم والبلاد وخاصة حينما تكون ذات أسلوب خفيف.

ولنعد لاستئناف فصول الرحلة فقد وجهت لنا دعوات إلى تناول الوجبات في المطاعم الكورية التقليدية على طريقة الضيافة الكورية الأصيلة، وعند الدخول لتلك المطاعم لابد من خلع الأحذية واستبدالها بنوع آخر يكون ناعمًا، ولقد فرشت الأرض بالخشب والجلوس أمام مناضد قصيرة جدًا تكاد تلامس الأرض ويكون الجلوس على وسائد ناعمة ويحضرون الطعام بمختلف ألوانه وأنواعه، ومذاق الأكل يتميز بروائح سيئة من كثرة ما يحتويه من البهارات وأغلبيته حار جدًا، كما أن هناك مضيفين يساعدون على تقديم الأكل واختيار ما يكون مناسبًا وموافقًا لمزاج الشخص، وقد كانت الفلافل كثيرة والأسماك أنواع شتى منها الحار والبارد والمقلي والنيء إنها أشكال وألوان لم نعرفها ولم نشاهدها، ولقد التفت إلى أخي عبدالرحمن البيز القائم بأعمال سفارتنا هناك استفسر منه عن هذه المأكولات فقام مشكورًا بالشرح والإيضاح لكل الأنواع التي قدمت لنا، وكان بها خبيراً لطول مقامه ومعرفته بهذه الأصناف. ولقد كانت تلك الأنواع من الأشياء الممتازة والمفضلة لديهم ولكنها لم تكن مفضلة لدي فبقيت التقط من هنا وهناك لقيمات يسيرات خاصة وأن الفلافل والتوابل مليئة بها تلك المائدة وأنا من النوع الذي لا يطيق أكل الحوار.

وخرجنا من المطعم بعد أن غمرونا بلطفهم ووداعتهم وحسن ضيافتهم واجتزنا شوارع العاصمة التي كانت جميلة ونظيفة ومنسقة تطل عليها عمارات كبيرة ومعارض تجارية جذابة الشكل.

ذهبت مع مجموعة من الإخوان للتجول في شوارع العاصمة، وكانت أشكالنا وسحنتنا تدل على أننا غرباء فكانوا ينادوننا لدخول محلاتهم وشراء البضائع المعروضة فيها، ويخيل للبعض من شدة ملاحقته لنا أننا صيد سمين يجب أن يمسك

به وألا يتركه للآخرين فكانوا يغالون في أسعار البضائع التي يعرضونها علينا. ولابد من المفاصلة معهم والتشدد مما يجعل الرجل الطيب يقع فريسة لهم، ولقد اشتريت من أحد المحلات أحجارًا كريمة وعند فحصها لدى خبير في ذلك في عاصمة أخرى تبين أنها تقليدية ولا تساوي شيئًا، وأعتقد أن ذلك موجود في كثير من عواصم بلدان الشرق الأقصى، فلابد أن يكون المرء على جانب من الحذر والدقة حين شراء الهدايا والحاجات لأن التقليد كثير والمصانع جاهزة لعمل أي شيء، وعلى سبيل المثال فقد سألت عن مسبحة تماثل المسبحة التي كانت في يدي وقد طلب مني أحد أصحاب المحلات أن أعطيه إياها ويحضرها غدًا مع أنواع شبيهة بها، وبالفعل وجدنا عشرات المسابح قد أحضرت وبكل دقة، ولقد لاحظت ذلك في كل من بانكوك وهونج كونج وسنغافورة فهم يصنعون كل شيء حتى ثيابنا العربية أخذوها وعادوا بمثلها في اليوم الثاني مخيطة وبشكل دقيق؟.

وهكذا أمضينا أيامًا جميلة في كوريا ولعل من أحسن الأنطباعات التي تركت في نفوسنا أثرًا طيبًا هو حرصهم على الوقت والاستفادة منه وتنظيمه بشكل يعود بالمصلحة، فلا تجد من يمشي بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً حيث تطبيق نظام حظر التجول الساري تطبيقه منذ مدة طويلة ومازالوا ملتزمين به، وقد كان عاملاً كبيرًا في مساعدتهم على تنظيم الوقت وزيادة الإنتاج والعمل والعطاء، وحين أخبرني أحد الأخوان بذلك كنت أظنه مازحًا وقد روى لي قصصًا كثيرة وطريفة لزوار كثيرين من العالم العربي يأتون إلى هنا دون أن يكون لديهم علم بنظام التجول ليلاً فيدركهم الوقت فيضطرون للمبيت في المكان الذي كانوا فيه سواء كان مطعمًا أو متنزهًا أو زيارة صديق أو سوى ذلك، ومن خلال نافذة غرفتي في الفندق حرصت على مشاهدة الشوارع بعد الثانية عشرة فوجدتها بالفعل مقفرة وخالية تمامًا من الناس حتى الساعة الرابعة صباحًا حيث يستيقظون مبكرين ويجرون بسرعة إلى أعمالهم ومصانعهم..

وخرجت في الصباح الباكر أرمي بصري يمنة ويسرة كالناظر العاجب لجد هؤلاء وانهماكهم في العمل والكسب وحب الجد والنشاط.

في الفلبين

ودعنا سيول وتوجهنا إلى مانيلا عاصمة الفلبين في الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ١٣٩٩/١/١٢هـ توجهنا صوب الفلبين مودعين أصدقاءنا الكوريين الذين ابتسموا لنا قائلين: مع السلامة، وصعدت للطائرة وجلست بين رجلين أحدهما فلبيني والآخر من تايلاند، فكانت فرصة للحديث معهما حول بلديهما وتعريفهما ببلدي، ولقد حدثني الفلبيني عن بلاده وأن بها ٧٠٠٠ سبعة آلاف جزيرة، ثم جاءت مضيفة الطائرة تسألنا عما نريد أن نشرب، فقلت: عصير برتقال فاسغربت لهذا الطلب، فقالت المضيفة: إن لدينا مشروبات أخرى والتفت إليَّ التايلاندي قائلاً: إن المشروبات هنا مجانًا، فأخبرتهم بأني مسلم والمسلم لا يجوز له أن يحتسي المشروبات الروحية.. فبدا عليهما الدهشة فكانت فرصة للحديث عن الإسلام وقواعده وأسرار تشريعاته، والحكم العظيمة التي يتضمنها التحريم، والمصالح المترتبة على ذلك، وقد جاملاني فطلبا عصير برتقال، وقد سألت الفلبيني عن الإخوان المسلمين في الفلبين، وكم عددهم، وما هي مناطقهم؟ وقد تبين لي أنه مسيحي كاثوليكي ومتعصب لمسيحيته، حيث قال: إن المسلمين قلة وليس لهم شأن، فقلت، ليست العبرة بالكم، وإنما بالكيف، ورغم قلتهم قد استطاعوا بعون الله وتأييده أن يواجهوا تحديات طويلة، وصمدوا بفضل نصر الله لهم، ثم تحدثنا عن اللغات التي يتكلم بها الفلبينيون، فقال: إنها تزيد عن سبعين لغة، كما أن بلاده تضم أكثر من خمسة عشر ألف نوع من الزهور والورود، وبها من الطيور ما لا يوجد في العالم كله، وهكذا استمرت الرحلة ثلاث ساعات ونصف حتى وصلنا إلى مانيلا العاصمة، حيث أضيئت الأنوار في الطائرة لحزم المقاعد والاستعداد للهبوط، واهتزت الطائرة بعنف في مطار العاصمة، وكان الجو دافئًا وحارًا، وقد كنا منذ ساعات في كوريا نرتعد من شدة البرد، وبعد انتهاء الاجراءات في المطار والخروج من بوابة المطار تجمع حولنا عدد من سائقي سيارات الأجرة، حتى جاء شاب طويل القامة فنهرهم وقال: إن لدي سيارة مكيفة فانتظروني لإحضارها، وفجأة وقف بسيارته أمامنا وأخبرناه بالفندق الذي نود

النزول حيث حجزنا فيه من مكتب استعلامات المطار، وقد كان الطريق ١٢كيلاً، وكان السائق طيباً إذ لم يكن فضولياً وثرثاراً كعادة السائقين الآخرين الذين نقابلهم، فكان صامتًا لا يتكلم حتى نسأله، ووصلنا إلى فندق «هيلتون» وكان على جانب من الفخامة والروعة حيث شلالات المياه الصناعية وقاعات الجلوس الجميلة على جوانبها، وصعدنا لغرفنا نلتمس الراحة والهدوء..

إن الفلبين بلاد واسعة تضم ألوف الجزر وقد أخذت اسمها من الملك فيليب الثاني أحد ملوك أسبانيا فقد دخلها الأسبان مع البرتغاليين الذين حكموا هذه الجزر وأقاموا فيها ولقد استقر الأسبان فيها ولا تزال اللغة الأسبانية والكثير من العادات والتقاليد الأسبانية شائعة كما أن الكثير من أسماء الشوارع والمطاعم والمدن تحمل الأسماء الأسبانية إلى جانب أن دين الدولة مسيحي كاثوليكي وقد نقله الأسبان، وتكاد تكون الفلبين هي الدولة المسيحية الوحيدة في شرق آسيا، ولقد حرصت على زيارة معالم مانيلا ومناطقها السياحية عبر شركات السياحة ولقد كان الجو لطيفًا والسماء ملبدة بالغيوم والسحب مع سقوط مطر خفيف ولقد أمضيت في هذه الجولات عدة ساعات تجولنا خلالها على مختلف معالم المدينة. ويطلقون على مانيلا جوهرة المحيط، كما قمنا بزيارة لمتاحفها ومناطقها الأثرية وأحيائها القديمة وضواحيها المجاورة كما شاهدنا الحي الصيني وقصور الأسبان.

كما أن الصينين يمثلون جالية كبيرة ولهم مطاعمهم وتقاليدهم كما قمنا بجولة على شاطئ المدينة وميناءها الكبير وعدنا إلى الفندق وقد فاتنا موعد الغداء حيث أغلق مطعم الفندق أبوابه، فخرجنا نبحث عن مطعم قريب من الفندق وصدفة التقينا بأحد الإخوان السعوديين ففرحنا به وأبتهج بوجودنا حيث كان وحيداً وكانت خبرته بالمدينة واسعة فهو يتردد على مانيلا منذ مدة للتعاقد مع العمال فذهبنا سوياً إلى مطعم هندي وتناولنا الغداء فيه وقد عرف أصحاب المطعم بأننا عرب فحيونا بعبارة السلام عليكم، وتبين أنهم لا يعرفون من اللغة العربية سوى هذه العبارة ومع ذلك فقد كان لهذه التحية وقع في نفوسنا وإن كانوا لا يشاركوننا في العاطفة الدينية حيث عرفت أنهم غير مسلمين فقلت لصاحبي: ألا يوجد مطعم

يملكه مسلمون نذهب إليه؟ فأفاد بعدم وجود ذلك، وفي اليوم الثاني قمنا برحلة أخرى لبعض متاحف المدينة وحدائقها ومتنزهاتها وضواحيها...

كانت رحلتنا ضمن وفد سياحي ومع شركة سياحية وقد بدأت الرحلة بالمرور على بعض متاحف العاصمة وقصور الأسبان القديمة، ولقد لاحظت أن المرشدة وهي بالطبع مسيحية كاثوليكية لم تشر في شرحها إلى أي شيء عن تاريخ الإسلام والمسلمين في هذه البلاد مما يدل على التعصب وعدم الاكتراث والاهتمام بهم فدفعتني الغيرة الإسلامية والعاطفة الدينية إلى عدم السكوت على موقف كهذا ولابد من لفت النظر فبادرت بطرح سؤالين عن تاريخ الإسلام والمسلمين هنا ورجوتها أي المرشدة الإجابة عبر الميكرفون. ثم أردفت قائلاً: أيهما أسبق إلى هذه البلاد المسلمون أم الأسبان فالمعروف تاريخيًا وعلميًا أن المسلمين نقلوا الإسلام إلى جزر الجنوب؟ فامتعض وجهها وارتبكت في إجابتها وقالت: أنت تعرف تاريخ بلادنا فقلت: نعم وعليكم ألا تقفوا موقفًا معاديًا للإسلام فتهملوا واقع المسلمين وتاريخهم وتراثهم وقصدي من ذلك أن يكون الإنصاف رائدكم فأنتم تلتقون يوميًا بمئات السياح وعليكم كمكاتب سياحية أن تقولوا الحقيقة لهم وذكر تاريخ الإسلام والمسلمين خلال استعراضكم للنواحي التاريخية، وأخيرًا أبدت شكرها لهذه الملاحظات وقالت: في رحلاتك القادمة معنا سوف تكون راضيًا وستسمع ما يسرك فقلت: كونوا دائمًا أوفياء للحق والقيم والتاريخ، وفي المساء زارنا في الفندق بعض الإخوان فخرجنا سويًا نتجول في ميادين المدينة ومشاهدة أسواقها ومبانيها وكانت الأسواق ممتلئة بالناس والبضائع وقد ساعدنا لطف الجو على الحركة والتجوال وشراء بعض الحاجات والتحف الجميلة مما تشتهر به الفلبين، ولقد تمكنا من الطواف على مختلف الشوارع الرئيسية ولقد لاحظنا أن الأسعار رخيصة جدًا مما يدفع الإنسان ويغريه بالشراء فالحرير والأصواف والأحذية كلها تباع بأسعار رخيصة جدًا مما جعلنا نشتري كثيرًا وفي النهاية نتركه في الفندق...

تلقينا دعوة من أحد الإخوان السعوديين بتناول طعام الغداء، في إحدى الضواحي الجميلة وكان الجو لطيفًا فذهبنا إلى هناك حيث هناك الخضرة

والأشجار الوارفة والهواء العليل، فمدينة مانيلا تقع على شاطئ البحر وفي منطقة كلها خضراء، كما أن مناظر الأرياف والقرى تبدو خضراء فأمضينا وقتًا ممتعًا وسط الأشجار والغابات ومنابع المياه ورأينا أطباقًا شتى من أنواع الأسماك مما تشتهر به الفلبين، وفي المساء عدنا أدراجنا صوب العاصمة وقد سألني سائق السيارة ونحن في الطريق: وهل يوجد في بلادكم هذه المناظر؟ فقلت له: نعم ففي أجزاء من بلادنا مناظر رائعة وكلما نزل المطر تحولت صحراؤنا إلى مناظر خلابة ومشاهد فاتنة، وأثناء عودتنا مررنا بشارع ديوي على خليج مانيلا فرأينا الأنوار تتلألأ وأضيئت الأنوار أمام واجهات المحلات بشكل يلفت النظر فسألت عن ذلك فقالوا: إن ذلك استعدادًا للاحتفال بأعياد الميلاد ورأس السنة ووضعت شجرة الميلاد كما يقولون أمام واجهات المحلات فنزلنا نتمشى على أقدامنا رغبة في الفسحة والنزهة وممارسة رياضتنا المفضلة «المشي» ولكن الرطوبة الشديدة تنغص على المرء الاستمرار في السير إلى جانب الأزدحام الشديد بالناس كالبضائع بعضها فوق بعض وكان الناس ينظرون إلينا على أننا أناس من جنس آخر، فكان الباعة يلاحقوننا وأصحاب التاكسيات يتزاحمون حولنا وعند ناصية أحد الشوارع أوقفنا سيارة أجرة طلبنا من سائقها أن ينطلق بنا نحو الفندق ووسط زحام السيارات والمشاة وصلنا الفندق وصعدنا إلى قمته في الطابق الحادي والعشرين لتناول طعام العشاء ومشاهدة جوهرة المحيط تتلألأ بأنوارها وتزدهي بجمالها وشاطئها البديع الذي يمتلئ بالسفن والزوارق البخارية.. والناس هنا في الفلبين يمتازون بهدوء الأعصاب والفئة التي تعمل في الفنادق تختلف عن الفئات الأخرى ولعل ذلك يعود إلى كثرة مخالطتهم للأجانب حرصًا على إعطاء الصورة الطيبة.. وفي الصباح الباكر نزلت إلى قاعة الفندق وصدفه جلس بقربي شخص يبدو من ملامحه أنه فلبيني ثم جاء شخص آخر وإذا به ينادي على اسمه «عمر» فالتفت إليه محييًا فقدمت له اسمي فقام بكل حماس مرحبًا ومحييًا فأذا به أحد إخواننا المسلمين الفلبينيين.. حقًا ما أعظم رابطة الإسلام فسرعان ما كنا اخوانًا وأصدقاء، فذهب يخبر أصدقاءه وكان فرحًا مسرورًا ومبتهجًا، حضروا وجلسنا نتحدث أحاديث الاخوة الإسلامية وكان أحدهم على جانب من الثقافة

والمعرفة بأصول الفقه والتفسير وشديد الاحترام للحديث النبوي وكان متألمًا لواقع المسلمين وحريصًا على أن يعود لهم مجدهم وعزهم، فشكرتهم على شعورهم الإسلامي الكريم وعلى محافظتهم على دينهم وتمسكهم بشعائر الإسلام كما قال تعالى «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» إلى غير ذلك مما وجدت نفسي مدفوعًا إلى أهمية الحديث فيه إلى جانب الابتعاد عن البدع والخرافات التي أفسدت على الكثير من المسلمين دينهم، ثم انصرفنا حيث كنت على موعد مع أحد مكاتب الطيران لترتيب الحجز والسفر، والقيام برحلة نهرية إلى «باكس هاين» فيها الكثير من جمال الطبيعة والأشجار الباسقة والمطر والسحاب وكل جزر الفلبين التي زرناها حباها الله بجمال الطبيعة وربوعها الخضراء.

وكانت رحلة غير مملة حيث شاهدنا البحر والنهر والجبل والسهل ولمحات من الحياة ومرافق السياحة وجمال الطبيعة في الأرياف والضواحي وجزر الفلبين جوها صيفي في أغلب أيام السنة ولكنه يزدان بالسحب والأمطار كسائر البلدان التي تقع على خط الأستواء.. وكانت رحلة رغم طولها لا تخلو من جمال التأمل ومتعة النظر ومشاهدة جمال الطبيعة والبحر والنهر والخضرة والأرض والناس على إمتداد الرحلة وإختلاف اللغات وتذكرت المغامرين الرحالة الذين يرتادون الجزر والجبال والكهوف بهواية الرحلات والبحث عن المجهول وحب الاستطلاع في زمهرير الشتاء في مناطق القطب المتجمد وفي غيره من المناطق والجزر الحارة صيفًا وفي البر والبحر وتذكرت تاريخ البرتغاليين والأسبان والهولنديين الذين استعمروها.

وبعد تمضية رحلة في هذه الجزر وسط المحيط عدت إلى عاصمة هذه الجزر «مانيلا» وخلال جولات متلاحقة كنا في حاجة إلى الراحة يومًا قبل السفر ثم التأهب للسفر على حد تعبير الشاعر:

ما آب من سفر إلا وأرقه ... شوق إلى سفر بالبين يجمعه

كأنه وهوفي حل ومرتحل ... موكل بفضاء الله يذرعه

وحينما كنت في شرق آسيا وفي مدينة مانيلا عاصمة الفلبين التقيت بأستاذ جامعي مثقف ولكنه يدين بغير الإسلام وكان يجهل الكثير من الإسلام وحقائقه وعن الفكر الإسلامي ومعطياته. . . وقد وصف الأدب العربي بأنه أدب متخلف ويفقد صفة المعاصرة.

فقلت له: إنك لم تقرأ شيئًا من آثار الفكر العربي الإسلامي ولا تعرف شيئًا عن آثار الأمة الإسلامية وإن ما سمعته منك هو تكرار لأقوال أعداء ممن يعادون الإسلام عداء شديدًا وباعتبارك أكاديميًا يؤمن بأهمية البحث عن الحقيقة من مصادرها فكان الأولى بك أن تدرك ذلك وتتصل بأساتذة الثقافة الإسلامية وبالمختصين في فهم الإسلام وما ينطوي عليه من مبادئ وقيم وسلوك وتشريع وثقافة ومعرفة وفكر، فلو حاولت ذلك لوجدت أنك أمام نور وضياء من المعرفة ليس له نظير.

إن الثقافة الإسلامية ذات جذور عميقة تحتوي المعارف والثقافات وصفحات التاريخ تجسد ذلك إذ أن الكثير من العلماء أصبحت لهم شهرة عالمية والكثير من الجامعات في الشرق والغرب لديها المعجمات التي تحفل بذكر أولئك الأسلاف فمن لا يعرف الغزالي وابن رشد وابن سينا؟ والفارابي والجاحظ والمسعودي وابن خلدون وابن حنبل والشافعي والخوارزمي وابن الهيثم؟ فالتراث الإسلامي متألق بالفكر والمعرفة المتجددة وعدم الإنغلاق أو الجمود وإنه لأمر مؤسف أن يظل الجهل بالإسلام حيث أصبحت المعرفة متاحة في هذا العصر.

وبالنسبة للأدب العربي وإطلاق صفة التخلف عليه فهذا الحكم جائر وغير لائق من أستاذ جامعي ينبغي أن يكون معاصرًا ومتفاعلاً مع المعرفة والآداب العالمية الأخرى يتابع عطاءها ومسيرتها وإنتاجها فماذا تعرف عن الأدب العربي؟ فحكى لي عن كتاب ألف ليلة وليلة. . فقلت له: إن الأدب العربي قديمًا كان يمثل فكر الأمم بأجمعها في مختلف عصور الحضارة حيث كان يمثل الحكمة والثقافة حتى الأمم التي تدين بغير الإسلام كانوا يتتلمذون عليه ويأخذون من معارفه وفوائده حيث كانت الأمم توفد أبناءها لتلقي العلم والأدب في مراكز الثقافة الإسلامية فيأخذون الأدب والمعرفة ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا فيها ما أخذوه

وما تعلموه في عواصم الإسلام في غرناطة وقرطبة والقيروان وغيرها من عراصم البلاد الإسلامية لقد كان الأدب العربي أدبًا مزدهرًا كل الأزدهار.

وهكذا أمضينا ساعات من الحوار الهادف عن الفكر الإسلامي والأدب العربي حينما وجدت محدثي محبًا للاستزادة ومتطلعًا إلى المعرفة بحقائق الإسلام.. وعن الحضارة الإسلامية التي أبدعها المسلمون، وبعد مضي يومين على لقائنا وجدت رسالة منه تتضمن اهتمامه بدراسة الكتب الإسلامية الموجودة في مكتبة الجامعة وأسأل الله له الهداية، إن الكثير من أعداء الإسلام يشوهونه لينفروا الناس وإن واجب المسلمين أن يكونوا قدوة حسنة في كل مكان سلوكا وتعاملاً لتصبح الأمة الإسلامية كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتدعو إلى الهدى ولنبذل في ذلك كل جهد للتعريف بالإسلام وتصحيح الفهم الخاطئ والمعلومات الكاذبة على شريعنه والصور المشوهة للمنتمين إليه.

وعدت بعد ذلك لغرفتي في الفندق للاستعداد للسفر ثم أخذت طريقي للمطار وأخذنا الطائرة في رحلة أخرى.

في الباكستان

وفي تمام الساعة الرابعة صباحًا غادرت عاصمة الفلبين «مانيلا» متوجهًا صوب كراتشي، وكنت طوال الليل قد أمضيته في المطار حيث تأخر إقلاع الطائرة كما أن الطائرة التي كنت قد حجزت عليها في الساعة العاشرة مساء قد ألغيت رحلتها ومع هذا فلم أجزع أو أتبرم بل رددت قول الله تعالى «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم» ولحسن الحظ فقد التقيت في المطار بمجموعات من أبناء الوطن العربي ممن حضروا الدورة الرياضية في بانكوك وكان منهم اللاعب والحكم والمشجع والإعلامي، وقد كان الإنتظار طويلاً رغم المناقشات والمسامرات حول الرياضة وشجونها ورغم أني لا أهوى الكرة ولا أفهم أحكامها ولكن دفعني إلى مناقشة ومسامرة هؤلاء وسؤالهم عن ذلك الرغبة في تزجية الوقت مرددًا قول الرصافي:

الليل قد طال على من شكا وصار ليلاً باردًا مظلمًا

وفي الساعة الرابعة صباحًا اكتمل عدد الركاب وصعدنا للطائرة الباكستانية من نوع «بوينج» واستقلت من المطار فأخذت طريقها في البداية في جو هادئ وسماء صافية ولكن بعد مدة بدأت تعلو وتهبط وكأننا في جو مصارعة ثم هدأت بعد مضي ساعة ونصف، وكان خط الرحلة طويلاً حيث مكثنا ثمان ساعات بعدها هبطت في مطار كراتشي فنزل بعض ركاب الطائرة وآخرون واصلوا رحلتهم إلى البحرين...

وطوال الرحلة كنت استعرض في ذهني قصة قيام الباكستان واستقلالها وما قام به محمد علي جناح وإخوانه وهم يمارسون ببطولات نادرة قضية الاستقلال، ويخرجون بانتصار يشرف المسلمين جميعًا، وكذا كنت أستعرض في ذهني أشعار محمد اقبال وقصائده التي جاءت مشرقة وضيئة وتتلألأ عليها أنوار الأدب الإسلامي العميق.. ومن ذلك قوله:

لا ترى المسلم يحويه عطن تأته في قلبه كل وطن

أمة ملء البرايا أسسًا وضع التوحيد فيها أسسًا

أســـبغ الفـــضل علينا وهدى صـير الأرض جـمـيـعًا مـسـجـدًا

وكما يقول داعيًا إلى الرابطة الإسلامية:

يـا أمين الســـر من أم الكتـــاب هل إلى وحـــدة مـــاضـــينا اياب

لقد كان اقبال شاعرًا فليسوفًا وقف شعره على بعث مجد الإسلام وعلى البحث عن جواهر ونفائس التراث الإسلامي الخالد وشرح آثاره ومبادئه. وكلما قرأت شعر اقبال وجدته مشتملاً على نبضات حية وشعور قوي متدفق بالروح الإسلامي وتنبيه المسلمين إلى ما يتعرضون له من مطامع وما يحدق بهم من مخاطر. ورحم الله الدكتور عبدالوهاب عزام الذي ترجم شعر إقبال ونقله إلى اللغة العربية ولكم التقيت به في جامعة الرياض يوم كان مسؤولاً بها ومحاضرًا فكان يتحدث بإعجاب عن هذا الشاعر ويستشهد بشعره كثيرًا ويقول اقبال مصورًا حالة هذا العصر:

عـــصـــرنا هذا مليء بالفتن طبـــعـــه خلق شـــرور ومـــحن

ولكم سررت كثيرًا عندما رأيت البعض من الإخوة الباكستانيين في الطائرة يقرأ القرآن والمضيفة تردد «السلام عليكم ورحمة الله» وبعد كل كلمة تقول «إن شاء الله» فتلك ظاهرة حميدة أعجبت بها كثيرًا، كما أني لم أشاهد توزيع الخمور على الركاب وعندما خرج مساعد الطيار وكان باكستانيًا من غرفة القيادة وقف صدر الطائرة وحييته على الفور وسر كثيرًا عندما علم أني سعودي، ووجدت الرجل على جانب من الخلق والدين.. وفي مطار كراتشي كان الركاب يتزاحمون للحصول على حقائبهم بطريقة فوضوية، وبعد الانتهاء من الإجراءات خرجت للبحث عن سيارة أجرة إلى أحد الفنادق فتزاحم الناس حولي، وكان موقفًا طريفًا والتفت أبحث عن حقيبتي فوجدتها في سيارة أجرة بينما كنت قد ركبت إحدى السيارات فطلبت من سائق السيارة الذي أخذ حقيبتي أن يعيدها للسيارة التي ركبتها أما حقيبتي اليدوية فقد كانت في سيارة ثالثة فأعدتها وتوجهت صوب الفندق وانطلق كالسهم والسير المتبع عندهم على الشمال، ووصلنا إلى الفندق وقد أخبرني السائق بأنه لا يوجد مكان حيث سألهم في الصباح حينما كان

معه بعض القادمين وأن هناك فندقًا آخر، ولكني أصررت على الذهاب لهذا الفندق حيث كنت أحمل اسمه في مفكرتي، وقد تواعدت مع أحد الأصدقاء في مانيلا على الاجتماع فيه وحينما وصلت الفندق وجدت منهم كل بشاشة وترحيب وكانت الغرف كثيرة وكانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا وكنت لم أنم طوال الليلة الماضية، وكعادتي فإن النوم لا يجد سبيلا إلى عيني في الطائرة أو السيارة فصعدت للغرفة وأخذت في نوم عميق لم يكدر على صفاءه إلا رنين الهاتف حيث تلقيت مكالمة من أحد الأصدقاء في إسلام أباد... وبعد ذلك نهضت وسألت مكتب الاستعلامات في الفندق عن وجود رحلات سياحية جماعية فلم أجد فأخذت سيارة من سيارات الأجرة التابعة للفندق حيث ذهبت أستطلع معالم المدينة وأسواقها الرئيسية وميادينها وزيارة مكتباتها ومساجدها وبعض دور العلم فيها إلى غير ذلك من الجولات السريعة الخفيفة، وفي اليوم الثاني قمت برحلة لضواحي كراتشي ولشاطئها الجميل، وتمتاز ضواحيها بمناظر طبيعية جميلة فكلها ترتدي ثوبا أخضراً وقد كان الجو معتدلا وجميلا كما أن شاطئها الجميل يداعب المدينة ويضفي عليها جمالا وروعة. في اليوم الثاني توجهت للجامع الكبير لأداء صلاة الجمعة والتقيت بعد الصلاة بمجموعة طيبة من العلماء الأفاضل ممن هم على جانب من علم الشريعة الإسلامية وإن كان حظهم من اللغة العربية ضئيلاً، وقد كانت أرض المسجد كلها مفروشة بالمرمر ثم قمت بزيارة لمتحفها المسمى على غرار تاج محل ويحتوي على الآثار القديمة ويدخله أعداد كبيرة من الرواد من مختلف الأجناس والعناصر كما قمت بزيادة لحديقة الحيوانات وهي مليئة بالحيوانات المتنوعة.

وكذا القصور القديمة التي كان يسكنها ملوك الهند ولقد مرت على تلك القصور والآثار أمم وحضارات ومدنيات مما يحكي عهود الغابرين من مئات السنين.

وبعد فالباكستان أرض خصيبة كغيرها من بلدان العالم الإسلامي تملك مقومات الثروات الظاهرة والمطمورة في ترابه.

حقيقة إن الدول الإسلامية تمتلك ما يمكنها من تحقيق الإكتفاء الذاتي حيث

أنها منكاملة من جميع النواحي، ولقد كانت فرصة طيبة خلال وجودي في كراتشي انعقاد مؤتمر الغرف التجارية الإسلامية وكنت أتابع ما يكتب وينشر حول هذا الموضوع حيث اختيرت كراتشي مقرًا للغرفة الإسلامية التجارية وذلك لتنظيم الإنتاج والإستفادة من الطاقات الكاملة للعالم الإسلامي وإنتاج كل احتياجات العالم الإسلامي صناعيًا وزراعيًا منى نظمت تنظيمًا متكاملا، ثم قمت بعد ذلك برحلة إلى إسلام أباد للمشاركة في حضور المؤتمر الدولي للأرشيف فكانت رحلة جمعت بين السياحة والعمل ومفعمة بالفائدة والأنطباعات والذكريات الجميلة والتأملات التاريخية حيث قمت بجولات في رحاب وأطراف هذا البلد المسلم، الذي عاش أحقابًا وأزمانا وتاريخًا ممتدًا طويلاً.

في سنغافورة

ودعنا مطار الظهران (في سنغافورة) وارتفعت بنا طائرة الخطوط الجوية السنغافورية في ١٤٠٩/١١/١٠ وكانت المقاعد كلها مشغولة والمضيفات والمضيفين كلهم من سنغافورة ويتحلون بأدب جم ومعاملة جيدة وكانت ضيافتهم عشاء فاخراً ذكرني بخطوطنا السعودية في رحلاتها الدولية وكان جاري في المقعد أحد الأخوة الماليز بين ممن يعمل في بلادنا فكان يحدثني طول الوقت عن الشرق الأقصى ويمتعني بحديثه عن حضارة الشرق الأقصى وعالمه وأجناسه وعن انتشار الإسلام وبعد وجبة العشاء أغلقت نوافذ الطائرة ثم عرض «فيلم» طويل وكنت بين اليقظة والنوم وصحوت على خطى المضيفة وفي يدها أغطية لمن يحب أن ينام وحيث يتعذر على النوم في الطائرة كعادتي طلبت إضاءة المصباح حيث أن معي مجموعة من الصحف والمجلات صحبتها معي لأتسلى بقراءتها في الطائرة. . وكان الليل طويلاً وفتحت نافذة الطائرة وإذا على الأفق ضوء كالفجر وبدأت الشمس تشرق في مواجهتنا وجاء المضيف يقدم الإفطار الشهي السخي. وكان الطيران أكثر من ثمان ساعات وبدأنا نستعد حسب تعليمات الطائرة للنزول في المطار الدولي الكبير حيث أنه محطة للطيران العالمي بين الشرق والغرب وكنت أشاهد من خلال النافذة المناظر الخلابة والمطر فرددت قول الشاعر:

أني نظرت رأيت ماء سانحًا متدفقًا أو يانعًا متهدلا

وقول الآخر:

نزه الطرف في بلاد ففيها كل ما تشتهي وما تختار

فسنغافورة روضة متموجة غناء تمتع البصر بخضرة أشجارها وترى الخضرة والنضرة في أرجائها وفي صباح اليوم العاشر من شهر ذي القعدة ١٤١٠هـ كان الوصول إلى سنغافورة وكان النزول في فندق «بلازا» وكانت الزيارة الثانية لهذه المدينة الجميلة لأنها كما قال الشاعر:

بلاد بها ما يملأ العين بهجة ويسلي عن الأوطان كل غريب

إنها جزيرة نظيفة عدد سكانها أكثر من مليونين وأغلب سكانها من الصينين والباقين من الهنود والملايو وبها جالية عربية وشارع باسمهم ومحلات تجارية وانطلقت ورفيقي في هذه الرحلة نتجول في شوارعها وميادينها وأسواقها التجارية ونمد أبصارنا إلى ما يحيط بها من مناظر خلابة وغدونا نسير في أسواقها ومشاهدة مرافق التجارة والميادين ونرى الناس في حركة نشطة وهم في ذروة الغني والمرح والانسجام فهم يعيشون في هذه الجزيرة أطيب العيش وأحلاه نتيجة النشاط والعمل والكفاح فهم في هذه الجزيرة مثل الدول المتطورة كاليابان والصين في مظاهر البناء والعمران والبنوك والسياحة ومشروعات النمو والتطور.. إنها جزيرة جميلة حقًا حباها الله بقسط وافر من جمال الطبيعة فهي تبدو كالحديقة الغناء مخضرة الأرض لكثرة المطر الذي يتساقط رذاذًا إذ تشرق الشمس صباحًا وفي الظهر ديمة متواصلة ومزن ينتشر في السماء وكم أصاب ملابسنا المطر فندخل أحد المقاهي لتجفيفها وسرعان ما تجري المياه في جوانب الشارع وتزول وذهبنا لبعض الروابي والجبال وهي أشبه ما تكون بمظلة خضراء وشاهدنا سنغافورة في روائع زينتها في مربعات مختلفة الأحجام والأشكال وفجأة وثبت إلى خاطري قصائد الجمال ملهمة الشعراء حيث الندى والشمس فوق لجين الماء عقبان وكما قال شوقي:

فتحت جنانك الأنهار تجري ... وملء رباك أوراق وورق

ورددت قول الشاعر :

إفرح بدنياك وأشبع من مشاهدها ... ماء وروض وأشجار وأنهار

وفي سنغافورة شوارع لا تحصى مليئة بالمراكز التجارية ومجمعات للتسوق مكيفة ومؤلفة من عدة طوابق حيث محلات الملبوسات بالعشرات بالإضافة إلى المخازن والمطاعم والمقاهي ويشاهد المرء السياح يستمتعون بشراء كميات من الهدايا ذات الشهرة العالمية وآخر ما توصلت إليه التقنية العصرية.

ويلاحظ الإنسان في متاحفها أنها ذات حضارات متعددة ولذا يحرص السكان على إحياء تقاليدها القديمة ولقد شاهدت الكرنفال السنغافوري حيث خرج الجميع إلى الميادين والطرقات للمشاركة في الألعاب والمواكب وعروض الأزياء

والحفلات المتنوعة في مختلف الأماكن والميادين ويجلس الناس في الحدائق تحت ضوء النجوم.

وفي شارع العرب دلفت إلى أحد المحلات التي يملكها تاجر عربي أفاد أن اجداده وفدوا من حضروموت ودار الحديث بيني وبينه عن تاريخ العرب في اندونيسيا وسنغافورة وماليزيا وقال نحن حريصون على إحياء التقاليد والعادات العربية في نفوس أبنائنا ونعلمهم دروسا شتى في مكارم الأخلاق وآداب الإسلام ودراسة اللغة العربية وغير ذلك مما كان يتميز به اجدادنا الذين جاؤوا إلى هذه الديار ونشروا الإسلام في جنوب شرق آسيا وقد اتخذوا سنغافورة قاعدة تجارية حتى قبل أن يكتشفها الإنجليز ويدركون أهميتها الاستراتيجية في العشرينات من القرن التاسع عشر وقال زميل له كان حاضراً لقد اندمج العرب بسرعة في المجموعات السكانية وحازوا احتراما وتقديراً كمعلمين مسلمين وتزوجوا من أهل البلاد وعلى مر السنين وأثرت الثقافتان في بعضها البعض ومن المؤسف اليوم أن نرى بعض شبابنا قد فقد الكثير من لغته وعادات أهله وأجداده وتراثهم ولا يستطيعون التحدث باللغة العربية. . . لقد كان العرب قوة في هذه الجزيرة وكان فيهم تجار ورجال أعمال أقوياء وهذا الشارع وغيره من الشوارع الأخرى كانت تحفل بها متاجرهم وتحمل اسماءهم مثل السقاف والجنيد وغيرهم ثم سألته هل تعرفون اسم أول عربي وصل إلى هذه الجزيرة فقالوا : إنهما محمد الجنيد وعمر الجنيد في عام ١٨١٥م. وذلك قبل وصول الإنجليز بخمس سنوات وقد شيد أول مسجد في سنغافورة في عام ١٨٢٠م وأصبح اليوم من المعالم التاريخية الهامة في الجزيرة إن هذه الجزيرة الجميلة تحوي في جنباتها اليوم اصنافا شتى ويمثل الصينيون ٧٧ ٪ من السكان و١٤ ٪ مالويين ٧٪ يهود ولهم نشاط تجاري واسع والباقي من اجناس اسيوية وأوربية وغيرها.

في ماليزيا

وبعد تمضية أيام جميلة في ربوع سنغافورة وفي يوم مشرق اصيل غادرنا مطارها إلى ماليزيا وبالطبع فإن مطار سنغافورة منطلق رحلات إلى جهات شتى فيشاهد المرء فيه اجناسا شتى من البشر وسنغافورة بلد سياحي جميل خصه الله بفتنة الطبيعة وروعة جمالها وطرنا منها إلى كوالالامبور قاعدة ماليزيا ومن نافذة الطائرة شاهدت المناظر الجميلة والسهول الخضراء وأتأمل عظمة الخالق وأتذكر الرحلات في الزمن القديم يوم كانت تعتبر مجازفة بالحياة ومغامرة بالنفس والمال وكان المسافر يضع نصب عينيه حين عزمه على السفر عدم العودة إلى أهله فكان يكتب وصيته ويقضي ديونه إلى جانب ما يتكبده من عناء وعنت وإرهاق ولفح الهجير وبرد الزمهرير وبعد خمس واربعين دقيقة من الطيران كانت الطائرة تهبط بنا في مطار كوالا لامبور وكان مطاراً جميلاً بأروقته وردهاته وجمال تنسيق حدائقه.

ومنذ بدت لنا هذه العاصمة وأنا استعرض في ذهني تاريخها ودخول الإسلام اليها حيث اتسع بين ارجائها في القرن الثامن الهجري وفي برهة من الزمن انهينا الاجراءات اللازمة بلطف وبشاشة وكان في استقبالنا أحد موظفي المكاتب السياحية الذي أخذنا إلى أحد فنادق العاصمة وهو فندق «رويال» وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً وبعد استراحة في الفندق خرجت للتجوال في هذه العاصمة الجميلة عاصمة ماليزيا التي ترتدي حلة سندسية خضراء وكان الجو معتدلا إنها مدينة ملأى بالبشر من مختلف الأجناس والألوان وكل يسير في طريقه بنظام واحترام.

والماليزي بطبعه رجل هادئ ولا يحب الكلام كثيراً وبعد الإستمتاع بسويعات سعيدة جلسنا في أحد المقاهي لتناول الشاي الماليزي وجاء الشاي أخضراً ثم عدنا إلى الفندق للراحة وتناول طعام الغداء.

وفي المساء اتفقنا مع الفندق على تنظيم جولات في ربوع «ماليزيا» وفي ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة ففيها من جمال الطبيعة وروعة المناظر ما

يغري بالمشاهدة وتأمل السائح فهي اشبه بحديقة غناء وتزدان بالجمال ويشيع فيها الخصب في كل ناحية من نواحيها حيث الأشجار والأزهار ولعل أكثر ما يستلفت النظر أشجار النار جبل بقامته الفارعة في كل مكان. وكان برنامج الزيارات حافلاً في العاصمة وخارجها وعلينا أن نستيقظ مبكرين وتنفيذ برامج الرحلة وتحقيق الهدف منها وإشباع الرغبة الملحة لاستكناه ما في هذه البلاد من تاريخ وحضارة وآثار ومعالم وعلى السائح أن يوطن نفسه على الحل والترحل منشداً قول الشاعر:

ما آب من سفر إلا وأرقه شوق إلى سفر بالبين يجمعه

كأنه وهو في حل ومرتحل موكل بفضاء الله يذرعه

وفي الصباح كانت الجولة مع إحدى الشركات السياحية التي تنظم الرحلات داخل المدينة وخارجها وبدأت الرحلة في التاسعة صباحًا على حافلة صغيرة دليلها رجل هندي ولكنه ليس من الأدلاء الماهرين ولا من الذين يحسنون الإجابة على اسئلة السياح ومعرفة ما يحبون أن يشاهدوه.

سارت الحافلة وأخذ الدليل يلتقط السائحين من عدة فنادق وكان مما بدأ به حدائق المدينة وأسواقها وجولة في قلب المدينة وكان شرحه بالإنجليزية ثم أنطلقت الحافلة في شوارع المدينة وكانت السماء تمطر مطراً ثم رذاذًا يسيرا فالمطر ينهمر كل يوم وتوجهنا صوب ميناء «فينانج» وبعد جولة في انحائه استأنف الدليل زيارة بعض المتاحف والآثار وحاولت أن يظل الوقت طويلاً في هذه الأماكن لمشاهدة تاريخ هذه البلاد وحضارتها ولكن الدليل أشار إلى أعمال الترميم الجارية في المتحف فحاولت استجلاء معالم المتحف من الداخل غير أن الدليل استحثنا على السير لضيق الوقت وأرانا عدة خرائط وصوراً فوتوغرافية لسكان هذه البلاد وغير ذلك. . ثم توجهنا نحو مسجد «نيقارا» الكبير حيث يقع في حي رفيع ومكان جميل تحيط به عمارات فخمة وبعض الدوائر الحكومية كما يحيط بالمسجد فناء واسع كبير. . وترجلنا من الحافلة وأسرع بواب المسجد للتنبيه بخلع الأحذية. . وأرض الجامع من الرخام والمرمر الأبيض ووقفت عند المكتبة فوجدت فيها مجموعة من الشبان

الماليزيين ممن يحسنون اللغة العربية فكانت فرصة للحديث والنقاش والأسئلة وعن أحوال المسلمين في هذه الديار وهل هناك مدارس لتعليم اللغة العربية وهل توجد آثار تدل على آثار المسلمين ونشرهم للإسلام في هذه الديار ومن هو أول سلطان مسلم وعن المركز الإسلامي إلى غير ذلك فأفاد أحدهم بأنه قد درس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وتحدث عن بداية دخول الإسلام في القرن الثامن الهجري وأن أول أثر اكتشف عبارة عن حجر وجد في إحدى الولايات في ماليزيا الغربية وأن إحدى الولايات وهي «ملاكا» لها دور كبير في نشر الإسلام في ماليزيا وأول سلطان مسلم هو «محمود شاه» ويوجد في كل ولاية دائرة تهتم بالشئون الإسلامية وتعلم اللغة العربية فشكرتهم على روحهم الإسلامية وبشاشتهم وأخلاقهم وكانوا على جانب من اللطف والكرم فأصروا على استضافتنا في منازلهم فاعتذرت لهم بضيق الوقت منشدًا قول المتنبي:

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ثم ودعتهم حيث انطلقت بنا الحافلة بعد زيارة لهذا المسجد العظيم في شكله وبنايته ومآذنه وتصميمه فهو تحفة رائعة في منظره وسعته وطابعه العام ورحباته ونظافته وجماله وأناقته وقد سألت عن مصممه فقالوا إنه شاب من أبناء هذه البلاد المسلمين ويسع لأكثر من عشرة آلاف مصلي وكم يبتهج المسلم عندما يرى هذه المعالم الإسلامية في هذه البلدان وسارت بنا الحافلة منطلقة في شوارع العاصمة قاصدة سفح أحد الجبال الخضر التي تحتضن المدينة فكان المكان مليئًا بالسياح ويوجد عدد من الباعة يعرضون عددًا كبيرًا من مصنوعات الخوص اليدوية والتحف الملونة بأشكال جمالية شتى حيث يستعملون منه حقائب أنيقة وقبعات وأغلفة متنوعة ومراوح وغير ذلك كما يوجد باعة الفاكهة المتنوعة وهي ذات أنواع وألوان وأصناف ولكل نوع مذاق وحجم ولا غرو هذه الأرض هي بمثابة بستان أخضر مليء بالأشجار والفواكه ومزارع الأرز والقمح وقد شاهدنا ذلك خلال جولاتنا في أنحاء ماليزيا كما تشكل الغابات الممتدة أحد مصادر الدخل في هذه البلاد حيث يصدر الخشب إلى بلدان كثيرة لجودته وهي تمتلك من مصادر

الثروة الطبيعية الكثير بجانب البترول وزراعة نخيل الزيتون وغابات المطاط والرخام والجرانيت بما يحقق لها دخلاً قومياً هائلاً إذ حباها الله طبيعة سخية من أنهار وأمطار وخيرات ومع إطلالة يوم مشرق جميل وصبح ذهبي دافئ بديع رن جرس الهاتف في غرفتي بالفندق ليؤكد لي مرشد الرحلة أن الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً ولم يبق على موعد التحرك والذهاب إلى جبل «بربيه» سوى بضع دقائق وكنت قد استقبلت مكالمة من أحد الإخوة العرب من أبناء حضرموت ممن يقيم في هذه البلاد حيث عرض علي خدماته ومالديه من عطور وعود أصيل فاعتذرت له بأن النوم ملؤ جفني وعليه أن يتصل في وقت آخر . . وفي لحظات كنت آخذ مكاني في الحافلة فانطلقت بنا في شوارع العاصمة وميادينها إلى جبل «بريزر» في طريق صاعد متعرج بين خمائل أشجار المطاط على الجانبين ومعلق على كل شجرة إناء فخاري صغير لتلقي السائل الأبيض من هذه الأشجار فالمطاط في هذه البلاد أحد مصادر الثروة وأهمها ولذا يشاهد المرء مزارع المطاط منتشرة في شتى الحقول ومختلف البقاع ووصلنا إلى قمة الجبل الرائعة التي ازدانت بمناظر الزهور وتجولنا في انحائه وقصدنا بعض الحوانيت ومشاهدة ما تحويه من تحف وهدايا يحرص السياح على شرائها ثم توجهنا لأحد الفنادق لتناول طعام الغداء وكان الجبل وما تحته ذا خضرة شاملة وبعد الغداء استأنفنا الجولة على الأقدام وتمنينا أن نقضي وقتًا طويلاً إلا أن برنامج الرحلة كان يلزمنا بالعودة فتركنا هذا المكان الجميل وامتطينا السيارة حيث كانت تمر بنا على عدة قرى وساحات وميادين مشجرة ومشاهدة أفواج من الشعب وهم يغدون ويروحون ترتسم عليهم ملامح الهدوء ورغم كثرة السيارات التي تمر مع هذه الساحات والميادين فإن الأبواق المزعجة تكاد تكون معدومة كما أن الشوارع جميلة ونظيفة حتى البيوت الشعبية الخشبية حسنة الشكل والمنظر وفي المساء كانت لنا جولة على الشاطئ وكان الجو ينذر بمطر فبدأ الرذاذ وقطرات من المطر وكانت المنتزهات والاستراحات المتناثرة على الشاطئ تستقطب السياح وكان البحر بجماله يدعونا لأحضانه والقرب منه وتناولنا العشاء على مقربة منه في مطعم حوى ألوانًا شتى من خلق الله من الشرق والغرب قدم لنا أطيافًا شتى من

الطعام الماليزي وألوانًا من الأسماك والفواكة الماليزية الجميلة وغادرنا المكان مرددًا قول الشاعر:

نزه الطرف في ربوع ففيها كل ما تشتهي وما تختار

وهكذا أمضينا أيامًا جميلة في ربوع ماليزيا والتي يتميز الكثير من مناطقها بجمالها الذي يبهر الأبصار ومعالمها الأثرية الجميلة في الفن المعماري وأسواقها المليئة بالتحف والحلي والمقتنيات النادرة ومساجدها الأثرية الخالدة ومدنها الساحلية الخلابة ومعالمها الجميلة وخاصة مدينة «كوانتان» الساحلية وتتميز بمعالمها الجميلة باعتبارها من أهم المدن الساحلية بماليزيا.

وهكذا ماليزيا دولة إسلامية حضارية تقع في أقصى شرق جنوب آسيا حباها الله بالخير وتمتلئ فنادقها وجزرها وأماكنها ومعالمها السياحية بالوافدين للزيارة والسياحة وهي كغيرها من الدول المجاورة كاندونيسيا وسنغافورة وبروناي تتكلم اللغة الملاوية بجانب اللغة الإنجليزية وتمتاز ماليزيا بتقدمها الصناعي والزراعي ولعل ما يبهج الزائر المسلم رؤية المساجد وسماع الأذان من خلال أجهزة الإعلام للصلوات الخمس يوميًا ويهتم مسلموها بالحفاظ على شعائر الإسلام مع الأخذ بجوانب الحضارة والتمسك بالعقيدة الإسلامية، وكم سمعت الكثير منهم يتمنى زيارة الأماكن المقدسة بمكة المكرمة والمدينة المنورة وقراءة القرآن الكريم وحفظه وعندما يعرفون أننا من السعودية نشاهد في وجوههم الفرحة والبهجة والتقدير ويعبرون عن شعور الاعتزاز والإخاء والمحبة.

خـاتمـــة

وبعد أيها القارئ فلم يبق لي من تلك الرحلات سوى الذكريات مردداً مع الشاعر العربي قوله:

قد جئت معتذرًا ما في فمي خبر رجلاي أتعبها الترحال والسفر
ملت يداي تباريح الأسى ووعت عيناي قاتلها ما خانها بصر
إن جئت يا وطني هل فيك متسع كي نستريح وهمي فوقنا مطر
وهل لصدرك أن يحنو فيمنحني وسادة حلمًا في قبضه شجر

ولكم تمثلت بقول الرحالة أبي دلف الخزرجي:

نيمم أقطار البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى وطورًا إلى الغرب

وقوله:

فغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وبقول الرحالة محمد العبودي:

رأيت بقاع الأرض طرًا وطوفت بي الرجل من بر بعيد إلى بر

ومهما رأى المرء من بلاد أخرى فإني أردد مع الشاعر قوله:

يابلادي سئمت من كل شيء غير ذكراك إنها في لساني
ففؤادي إليك يخفق شوقًا وعيوني إلى رباك رواني
وآرى حبك المبرح يزدا د إلى أن غدا من الإيمان

ونختم القول بما قاله أمرؤ القيس:

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

تحية أديب وكتاب

مهداة إلى الصديق الأستاذ عبدالله بن حمد الحقيل بمناسبة صدور كتابه:

«رحلات إلى الشرق والغرب»

كلمات أم درر ضمها هذا الأثر
أم رياض للربيع زانها حسن الزهر
جادها الغيث بكورًا فأفاضت بالثمر
غردت أطيارها فوق أغصان الشجر
أنشدت صداحة تحكي أنغام الوتر
أدب زاهي الرؤى صغته حتى أزدهر
ببيان ساحر جامع شتى الصور
تبرز المعنى بديعًا في حوار مبتكر
رحلة قد صغتها كل ما فيها درر
يا أديبًا شأنه جمع آيات العبر
لم تزل تهدي الفنون محييا ما قد دثر
فنك الهادي الرفيع ضوؤه ضوء القمر
يا حقيلاً ممرعًا نبته الورد الذفر
سفرك الغالي الثمين جلوة الطرف أغر.

الرياض: أبو إبراهيم

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة.	٣
آدب الرحلات فن متميز.	٩
من أعلام الرحالة المسلمين.	١٧
عناية الرحالة بالجزيرة العربية.	٢١
رحلة إلى الخليج العربي.	٢٥
رحلة إلى اليمن.	٣٢
في ربوع الشام.	٣٨
في أرض الرافدين.	٤٧
في تركيا.	٥٣
في مصر.	٦٠
في السودان.	٦٣
في تونس.	٦٦
في الجزائر.	٧١
في المغرب.	٧٤
في لندن.	٨٠
في مكتبة المتحف البريطاني.	٨٣
في فرنسا.	٨٥
في قصر فرساي.	٩٣
في الأندلس.	٩٦
في مكتبة الأسكوريال.	١٠٧
رؤية حول المركز الثقافي الإسلامي في مدريد.	١٠٩
في اليونان.	١١١
في قبرص.	١١٦

الموضوع	الصفحة
في المانيـــا	١٢٠
في إيطاليـــا	١٢٥
في مكتبة الفاتيكان	١٣٤
حوار في مكتبة الفاتيكان	١٣٩
في النمسا	١٤١
في هولندا	١٤٤
في بلجيكا	١٤٨
في سويسرا	١٥٣
في الولايات المتحدة الأمريكية	١٥٧
حفل عربي في جامعة اكلاهوما	١٦٠
خواطر حول الجامعات الأمريكية	١٦٥
في مكتبة الكونجرس	١٦٩
في الشرق الأقصى	١٧٣
في الفلبين	١٧٩
في الباكستان	١٨٦
في سنغافورة	١٩٠
في ماليزيا	١٩٣
الخاتمـــة	١٩٨
تحية أديب وكتاب	١٩٩

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطابع العرزدق التجارية - الرياض
تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣